سُليْمَان الحَلبِي

(العين والمخرز)

داوُد أبو شقرة

سُلَيْمَان الحَلَبِي

(العين والمخرز)

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٦م

سليمان الحلبي : العين والمخرز : رواية / داوُد أبو شقرة .– دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٦م.– ٢٦٤ص؛ ٢٥ سم.

١– ٨١٣.٠٣ ش ق ر س ٢– العنوان ٣– أبو شقرة

مكتبة الأسد

خازوق سليمان الحلبي، عجَّل بخلاص

مصر من خازوق الحملة الفرنسية...



-١-

عبقري، بطل، ومجرم

هل يُعقل أن تترك بقيَّة خبر - في جريدة وُضِعَتْ تحت صحونِ الطعامِ - كُلَّ هذا الأثر!؟ وهل يغيِّر، هذا الأمر، مصير ليس الكاتب فحسب، بل ربما يغيِّر المصير المأساوي لبطل تراجيدي، استشهد قبل أكثر من قرنين لتهنأ عظامه وترقد بسلام؟

أم تبقى هامة القتيل تدور صادية إلى الأبد وهي تصيح:

اسقوني... اسقوني... اسقوني!؟.

لم يدرِ كيف اقتادَته أفكاره، وهو يقرأ سطور ما تبقَّى من الخبر، إلى حالة من التداعي ليتذكَّر وقائع جرت في طفولته.

كلمات الخبر تقول: جُمْجُمةُ (ديكارت) التي تُعْرَضُ في مُتْحَفِ الإنسان في باريس، كمثالٍ لقحف يحتوي على عبقرية الإنسان، وكتب تحتها عبارة: **(جمجمة عبقري: ديكارت)... ... ...**

/سطور سقطت عليها بعض نثرات الطعام، فأتلفت الجريدة، تليها عبارة:/...

(جمجمة بطل: الجنرال كليبر)، في حين تُعْرَضُ في المتحف الجنائي الباريسي جُمْجُمةٌ أخرى كتب تحتها: **(جمجمة مجرم: سليمان الحلبي).**

/عبارات مفقودة من صفحة الجريدة/

... وقام وطنيون من الشعب العربي السوري والشعب العربي المصري،

بتوقيع عريضة شعبية، لإرسالها إلى الحكومة الفرنسية، يطالبون فيها بعودة رُفات سليمان، التي حملتها القوات الفرنسية معها إلى باريس.

وتأسست إثر ذلك الحركة الشعبية العربية، للمطالبة باستعادة رفات وجمجمة سليمان الحلبي من فرنسا، وقد قدَّم العديدُ من المثقفين العرب طلباتٍ لاستعادةِ الجثَّة، ومنها رسالة أرسلها الكاتب والمترجم (محمد غريب جودة) من الإسكندرية، يؤكد فيها وقوف المثقفين القوميين في مصر إلى جانب إخوانهم السوريين في هذه القضية، ومساندتهم في هذه الحملة لاستعادة رفات سليمان الحلبي، معتذراً بالنيابة عن الذين أساؤوا للبطل سليمان حين نفوا عنه صفة البطولة والشهادة، وقال الكاتب جودة في رسالته:

«نحن في مصر – المثقفين القوميين– نتفاعل بشدة مع هذه القضية وننظر دائماً بعين الإجلال والإكبار لكل أبطال وشهداء الأمة ومنهم السوريان سليمان الحلبي وجول جمال اللذان استشهدا دفاعاً عن الأمة وبصفة خاصة دفاعاً عن مصر وشعبها، ومن ثم فلدينا الرغبة للمساهمة في أي موقف وطني موحد يمكن أن يسفر عن عودة رفات البطل الشهيد إلى تراب الوطن السوري العزيز ليدفن بكل مظاهر التكريم اللائقة ببطل عظيم مثله، في احتفال قومي شامل يسهم في تعميق مفاهيم الوطنية وحب الوطن والأمة في نفوس الأجيال الشابة...»

/بقية السطور مفقودة من الجريدة/...

* * *

سرحت عيناه في البعيد، وتكشفت له الرؤى والخيالات عن طفل صغير يحملق في رسمٍ بمنتصف صفحة كتاب مدرسي، يُظهِر رجلاً يحملُ خنجراً يطعنُ به رجلاً يرتدي سترة تشبه تلك التي يلبَسُها مايسترو الأوركسترا.

تفرَّسَ الصغير في الرسم مليّاً. قلَّبَ الصورة. أَمَالَ رأسَهُ وكأنَّهُ يريدُ أن يراها من زوايا مختلفة، عقله ذو السنوات الست لم يستوعب أن يقدم رجلٌ على قتلِ رجلٍ بخنجر.

قلب الصفحةَ. وضعها أمام الضوء المنبعث من قنديل زيت الكاز، فوجد أن الكلام المكتوب على الصفحة الخلفيَّة قد شوَّهَ الصورة تماماً. شغلته الصورة، فَلَمْ يستطع أن يتركها قبل أن يفهم سرَّها.

كان الحديث بين أبيه وأمه لا يفسحُ لَهُ ولو كلمتين للسؤال عن سرِّ هذه الصورة؛ فيعود ليحدِّق فيها أكثر فأكثر. كان الطفل تَعَلَّمَ معظم الأحرف الهجائيَّة منفردةً، لكنَّه لم يتعلَّم قراءتَها مركَّبَةً بَعْدُ. لذلك لم يستطعَ فكَّ طلاسمِ الكلماتِ المكتوبةِ تحتَ الصورةِ وحولها، حتَّى يفهمَ حقيقةَ هذا الرسم العجيب! رجل بسيط بجلبابٍ فقير يقتل رجلاً تبدو عليه ملامح العِزَّة والنعمة!؟!... شيءٌ عجيبٌ حيَّرَ عقلَ الطفلِ الصغير. حضر – بعد قليل – أخوه الأكبر – صاحب الكتاب– فانتزعه منه بعنفٍ، فتمزقت الصفحة، فلطمه على وجهه بكفِّه لطمةً جعلت الشرر يتطاير مِنْ عينيه، وبدأت عيناهُ تتوهمان أقماراً تسبحُ في الفضاء.

أخذ كتابه مُهدِّداً متوعِّداً بأشدِّ أنواع العقاب، إذا لمس كتابه مرَّةً ثانية. هذا الأمر زاده إصراراً على معرفة القصَّة.

اكتفى الأب بأنه زجَرَ ابنه الأكبر، ثم عاد لنقاشٍ حامي الوطيس مع الأم... عقل الصغير لم يستوعب أيَّ شيءٍ حوله، وهو الذي جبل على الفضول. تغلب على الألم، وصمَّم أنه سيسترق بقية القصة يوم غدٍ مستغلاً غياب أخيه، ولو من صفحة ممزقة.

حين عاد الأخ من مدرسته، ووضع حقيبته المدرسية، قام فورا ثم انطلق كعادته للصيد بوساطة الخطاطير[1]، استل الصغير الكتاب واقترب من والده يسأله عن سر هذا الرسم...

نظر الأب في الصفحة، بسرعةٍ ثم انصرف عنه، وهو يسخر منه:

- ألم تتب مما فعله بك أخوك بالأمس!؟

لكنه عاد والتفت للصغير، وراحت يده تبحث عن نظارتيه في العلبة الجلدية داخل الصدرية، مستغلاً الوقت لإكمال كلامه دون أن يقطع الانتباه إلى طفله، مُبدياً اهتماما ملحوظاً لسيل أسئلَتِهِ التي لا تنقطع.

حملقَ في الصورةِ مليَّاً. تمتم. قرأ ما تحتها، ثم انتقلَ سطوراً إلى أعلى. سطوراً إلى أسفل. قلب الصفحة إلى الوراء... شاهد صورة أخرى للشاب نفسه، أيضا مرسومة بخطوط اليد مجرد خطوط ترسم ملامح إنسان، ربطت يده بشاشة ثم علقت بعنقه.

سأل الطفل أباه: أهو الشخص نفسه؟

قال الأب: نعم...

- وما بها يده؟... هل كُسرت؟؟

- لا، لقد حرقوا يدَهُ.

- لماذا؟ ... ومن حرقها!!؟

أعاد الأب فتح الصفحة على الصورة الأولى حيث بدا الشاب يحمل خنجراً، يطعن به الجنرال الذي يرتدي بزة المايسترو.

- لأنه قتل هذا الجنرال.

- ولماذا قتل الجنرال؟

- لأنه أحرق القاهرة؟

---

(١) الخطاطير: طريقة في صيد الطيور بوساطة شرك من الحيال.

- ولماذا أحرق القاهرة؟... ومتى أحرقها؟... وهل احترق الناس معها؟...

كان تدفق الأسئلة لا ينقطع، الأمر الذي اضطر والده أن يقول له: مهلا بني... مهلاً حتى أقص عليك القصة كلها.

هذا الشاب قتل الجنرال كليبر...

- من هو كليبر؟

- قائد الجيوش الفرنساوية في مصر.

- ولماذا قتله!؟

- هذا الجنرال هو قائد الجيش المعتدي على مصر.

- وهل مصر من سوريا؟

ضحك الأب وأخذ نفساً عميقاً يشبه الحسرة.

- وما علاقة مصر بنا ؟!

- مصر هي بلدنا.

- وسوريا أليست بلدنا!؟

- نعم، ولكن مصر هي شقيقة سوريا.

- ولماذا يذهب شاب سوري ليقتل من يحتل مصر.

- اسمع بني. نحن شعب واحد في بلدين، وكنا بلداً واحداً عندما ولدت أنت، لكن وعندما كنت في الثالثة من عمرك انفصل البلدان بسبب أطماع بعض التجار والضباط. والعلاقة بين البلدين عبر التاريخ يا ولدي، فقبل أن تولد أنت بعامين قام ضابط بحري سوري اسمه (جول جمّال) بتفجير نفسه وطوّر بيده بمدمرة فرنسية اسمها (جان بارت) وهي كانت من بين قطع الأساطيل الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية التي هاجمت مصر؛ وقبل مئة وسبعين سنة قام سليمان هذا بقتل كليبر لأنه هاجم القاهرة عاصمة مصر وحرقها. هل فهمت؟

- سليمان بطل...

– أعد كتاب أخيك إلى محفظته وسأعطيك قصة (سليمان) لتكون ملكك وهي نسخة قَيّمة لا تقدَّر بثمن، أما هذا الكتاب فليس لك، وعلى كل حال قصته في كتاب أخيك ليست سوى أسطر قليلة، أما القصة التي سأعطيك إياها فهي بكاملها عن سليمان...

– البطل...

– البطل.

أطبق الكتاب وأعاده إلى محفظة أخيه وحفر اسم هذا البطل في ذاكرته.

قام الأب إلى أحد صندوقيه الخشبيين الذي يحفظ فيهما الكثير من كتبه ومخطوطاته وبحث طويلا حتى وقعت يده على كتاب قديم جداً لا غلاف له، وقد فقدت منه الصفحات الست الأولى، لقد تساقطت صفحات من الكتاب بقدر سنوات عمر الطفل، وبدأ الأب يقرأ من الصفحة السابعة قصة سليمان...

ضمَّه الصغير إلى صدره، وكان يمنِّي نفسه بأنَّهُ سينقل الصفحاتِ المفقودةَ من الكتابِ، خاصَّةً عندما اكتشف أن الخاتمة قد تساقطت منها صفحات أيضاً.

كان هذا الكتاب من الممتلكات الأثيرة بالنسبة للطفل، وكان ينتقل بين أغراضه الثمينة ليحافظ عليه في إطار غلاف من الورق الأزرق المغلف أيضا بالسوليفان... أكثر من أربعين عاما كان هذا الكتاب بين أغراضه، ولم يتسنَ له أن يقرأَ هذه القصَّة، قبل أن تكتمل فصولها، ويستعيد ورقاتها المفقودة.

كل هذه الأحداث داخَلَتْهُ لحظةَ قرأَ خبرَ الصحيفة عن حملة من الشبان العرب يريدون استعادة جمجمة لشخص عربي، تعرض في المتحف الجنائي في قصر شايو في باريس.

* * *

لم تكن القصة التي أهداها الأب لابنه الصغير تحمل اسم الكاتب، لكن الكاتب ينقل بعض الجمل والتفاصيل على لسان شخص يدعى «سعيد عبد القادر» إذ يقول أحياناً: «حدثني سعيد» أو يقول: «أسرَّ لي عبد القادر»، لكنه ذكر الاسم كاملا في أكثر من مرة (سعيد عبد القادر)، ويبدو أن سعيد هذا، كان طالباً أزهرياً، فرَّ من القاهرة برفقة كاتب المخطوطة، حيث يشير إلى أهوال السفر من القاهرة عبر سيناء حتى وصلا إلى العريش فغزَّة. بيد أنه من المؤكد أن كاتب المخطوطة ينتسب إلى قبيلة مهيد، لأنها بقيت عند زعيم هذه العشيرة في حيفا حتى أوائل أربعينات القرن الماضي، وخمَّن أن اسمه (سالم) لكنه حار بين أن يكون هذا اسمه أو لقبه، لما لقيه من أهوال، سجلها في مخطوطته.

وذكَرَ الأب أمام صغيره، أن القصة هذه منقولة عن مخطوطة وجدها عند أقارب العائلة في حيفا التي عاش فيها منذ العام١٩٣٠ أي بعد مئة وثلاثين عاماً من الحادثة، وبقي فيها حتى العام١٩٤٢م. وقال كبير العائلة إن والده مات في العام ١٨٨٦ وترك معه المخطوطة والرسائل، وقد اطلع عليها والد الصغير في العام١٩٣٠ في حيفا قبل أن يأخذ صورة عنها ويقوم بطباعتها في نهاية أربعينات القرن الماضي.

تذكَّر كلام والده، الذي رواه مرَّات ومرَّات خلال مختلف مراحل حياته مشيراً إلى أن هذه المخطوطة طبعت للمرة الأولى في القاهرة، بعد أن أخذ نسخة منها إلى مصر أحد أقاربنا من آل الأباظة، الذين التجؤوا إلى مصر بعد مذبحة الفحيص في الأردن، التي قام بها آل العدوان ضد أمراء المهيد فتفرقوا في مصر ومختلف أنحاء بلاد الشام، الجولان وجبل حوران وفلسطين ولبنان والأردن وسورية. موضحاً أن أقاربنا من آل الأباظة، وهُم فخذٌ من قبيلة مهيد، وليسوا من عائلة الأباظة الشراكسة.

وعندما حضر نابليون إلى عكا وسطَّرَ الكتب إلى زعماءِ القبائلِ العربية، كي يتقبلوا وجوده كـ«فاتح مسلم جاء ليطرد العثمانيين والمماليك»، كان الطالب الأزهري (سالم) تعَلَّم على الشيخ حسن العطَّار، إضافة إلى أنه كان ممن كتبوا رسائل نابليون إلى وجهاء بلاد الشام.

بعد مقتل كليبر، ومطاردة سليمان والأزهريين الشوام الشيخ محمد الغَزِّي، والشيخ عبد الله الغَزي، والشيخ أحمد الوالي، فرَّ الرابع أخوهم الصغير سعيد عبد القادر واختبأ عند سالم المذكور – فيما يبدو – وكان سبقه صلاح شقيق سليمان إلى سكن سالم، خوفاً من إلقاء القبض عليه، وقام سالم فيما بعد بإيصال سعيد عبد القادر الغزي إلى بلده (غزَّة)، وتابع سيره إلى (حيفا)، مصطحبا (صلاح الحلبي)، حيث كتب النسخة الأصلية لقصة (سليمان)، وبقيت موجودة فيها حتى عام١٩٤٢ حيث انتقلت إلى جبل العرب، وبقيت فيه حتى عام١٩٥٤ واختفت بعد أحداث الشيشكلي، أمَّا النسخة المطبوعة في مصر فقد بقيت منها هذه النسخة التي فقد غلافها وثلاث ورقات من أولها، وورقات عدة من آخرها.

هذه النسخة هي الموجودة لدينا حتى الآن والتي سنستند إليها في تتبع معظم أحداث مجريات الأمور خلال الحملة الفرنسية على مصر.

وأوضح الأب أن سالم الذي كان مقرَّباً من الطلاب الأزهريين من السوريين «الشوام الغزاويين» الذين أعدمهم الفرنسيون في (تل العقارب) وقد فرَّ من القاهرة مصطحباً معه سعيد عبد القادر، الذي كان محكوماً بالإعدام أيضاً – فيما يبدو – من خلال الوقائع التي ترويها شذراتُ الأخبار، عن سعيد، الأخ الأصغر للطلاب الشوام الغزاويين الذين تمَّ إعدامهم.

كما يبدو أن (سالم) اصطحب معه أيضاً (صلاح) شقيق سليمان الأصغر، بعد أن رأى بعينه تلك المقتلة الشنيعة لسليمان ورفاقه.

بقي (سالم) في حيفا السورية سنوات طوالاً، يتذكَّر الوقائع، ويحاول لمَّ ما استطاع من شعث الوقائع والأحداث والمصائب والنكبات التي ألمَّت بمصر وشعبها، منذ اللحظة الأولى التي تواردت فيها الأنباء إلى الجامع الأزهر، عن نزول الفرنسيين على شواطئ الإسكندرية.

* * *

-٢-

ثغرة في الجدار

ما توقَّع أحدٌ يوماً أن يحدث ما حدث. وما اعتاد الناس على تلك الجلبة التي حدثت في ذلك اليوم أمام الجامع الأزهر؟

... **كان** الناس ينطلقون بتؤدة إلى المساجد، وقد أشرقت وجوههم بنورٍ كالنور الهادئ الذي بدأ يطلع على المدينة من الشرق.

فرغ الناس من الصلاة، وجلس بعضهم في صحن الجامع الأزهر الكبير، يتلُون بعضَ آياتِ الذكر الحكيم، ي حين بدأ الآخرون في الانصراف.

أمام الجامع التف الناسُ حول رجلٍ يتكلم بصوتٍ خفيض، وتجمع الخارجون من المسجد حولهم حتى اتسعت دائرة هذا الحشد، بحيث لم يعد يسمع من وقف في مؤخرة الصفوف الخلفية، ما يقوله الرجل. فراحوا يتساءلون:

- ماذا يقول هذا الرجل؟

- ماذا حدث؟!

- يا لطيف الألطاف. نَجِّنا ممَّا نخاف... ألطف يا رب!

- إنه البلاء الأعظم.

- هذا نتيجة الفسق والفجور... وترك الناس لدينهم، واللهو والمجون... إنها عاقبة الابتعاد عن التقوى والمتقين.

وبدأت كلماتٌ قليلة تتخطّى الصفوف الخلفية المتراصة، وسمِعَ هؤلاء الذين يقفون وراء الصفوف من يقول بصوت عال، غلب جميع الأصوات:

– لا شكَّ أن هذا الرجل يروي حُلْماً مزعجاً رآه في نومه...

وقال ثانٍ: هذا أمرٌ غير مصدَّق!

وصاح رجلٌ ثالث، غطّى رأسه وجزءاً من جسمه بشالٍ كبير:

– ماذا يريدون منّا!... وليس بيننا وبينهم عداءٌ، أو خصومةٌ أو ثأر... هذا أمر غير معقول!!

وارتفع صوت الرجل الذي توسَّط الجمع، وقال:

– لقد أقسم التاجر الذي وصل أمسٍ وحدَّثني أنه رآهم بعينيه رأسه وهو يغادر المدينة يطلقون النار على أهل الإسكندرية الذين خرجوا لردِّهم عن المدينة.

سأل أحد الواقفين في الخلف: هل غلبوهم؟

لم يَحرِ الرّجل جواباً. وقال طالبُ علمٍ كان يقف في الصفوف الأولى:

– يجب أن يكون هناك سببٌ ما لكي يحدث هذا الأمر، لا تصدِّقوا الشائعات.

ثم زاحم بكتفيه حتى وقف في صدر الحلقة، ومضى يتابع حديثه بصوت عالٍ:

– لقد مضت ستمئة عام وبلادنا تحيا في سلام مع الجميع... لا تعتدي على أحدٍ، ولا يُعتدى عليها، وقد جاء الفرنجةُ منذ قرونٍ إلى أرضنا، لكنهم ردُّوا على أعقابهم خاسرين، ولم يفكروا طوال هذه القرون، في الاعتداء على كنانة الله في أرضه بعد أن أدركوا أن الله قاصمُ ظهرِ كل من يريدها بسوء. وإذا كُنَّا نحبُّ الحياة والسلم، فإننا قادرون – بإذن الله– على هزيمة كل معتد أثيم.

فجأة برز أحد شيوخ الأزهر، وسأل الرجل عن سرِّ هذا الهرج والمرج، فقال:

– لقد استبسل محمد كريم ورجاله يا شيخنا في الدفاع عن الإسكندرية، ولكن قوة الفرنجة أكبر من أن تُغلب.

ردَّ الشيخ الأزهري بهدوء: قل لي هل سبق ذلك في المدينة أيُّ تحركات؟

- نعم يا مولانا... لقد نشروا منشوراً، وهذه نسخة منه.

دفع يده بين الثياب تحت صديريته، وأخرج طُلحيةً ملفوفة، ففردها الشيخ الأزهري، وتمتم بضع كلمات، ثمَّ شرع بالقراءة الصامتة، والناس تسأل:

- ماذا هناك يا شيخنا؟... ماذا بها؟... اقرأ لنا ما بالفرمان يا شيخنا...

وما إنْ فرغَ الشيخُ حتَّى شرح مضمون منشور نابليون لأهل مصر وهو يقرأ سطراً ويقفز سطوراً، ثمَّ همَّ بالدخول إلى الجامع الأزهر، فمنعه الناس حتَّى يتلو عليهم ما جاء في المنشور، وأمام إلحاحهم قال:

- اسمعوني سأقرأ لكم... «سَمَعْ هُسْ»... يقول المنشور:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه».

فغر فاه البعض، في حين ردَّ بعضهم: أمعقول أن يبدأ الفرنجة منشورهم بالبسملة؟!... هذه من علامات القيامة... تلك والله ثالثةُ الأثافي!...

قال الشيخ الأزهري. انصتوا أو أطوي المنشور وأدخل الجامع... أسكت الناس بعضهم البعض، وتابع الشيخ الأزهري: يبلغ نابليون بونابرته الشعب المصري أن هذا الخطاب أصدره باسم الجمهورية الفرنسية مبنياً على أساس الحرية والمساواة.

فصاح بعضهم: ومن هو نابليون هذا؟؟؟ وردَّ قائل: هذا رئيس جمهورية الفرنسيس....

هل ستسكتون وتسمعون؟ أم أَلُفُّ المنشورَ وأدخل؟... ردَّد البعض: نسمع نسمع...

فقرأ الشيخ:**«من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والمساواة».**

صاح رجل عجوز: ما هذه المساواة والله تعالى قال في محكم تنزيله: إنَّا خلقناكم درجات!؟

قال شيخ أزهري آخر، لاحظوا أن المنشور افتقد للإخاء، من ثالوث شعارهم، حرية، إخاء، مساواة.

قال الشيخ: اسمعوا يا ناس... لا أريد أن أسمع صوت أحدكم... لقد برَّرَ الرجل الهجوم على مصر بالقول:

«إنه قد حان الوقت لمعاقبة حكام مصر الذين تسلطوا وتعاملوا بالذل مع الأمة الفرنسية وظلموا تجارها وصادروا أملاكهم واعتدوا عليهم».

وهو يقول بالحرف الواحد:

«السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية، يتعاملون بالذل والاحتقار في حقِّ المِلَّة الفرنساوية. يظلمون تجارها بأنواع الإيذاء والتعدي؛ فحضر الآن ساعة عقوبتهم».

وهو يعطي لنفسه المزيد من التبريرات، يقولون لكم:

«إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين: إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه والقرآن العظيم».

ثمَّ يبدأ نابليون بالمرحلة الثانية من الخطاب وهي تنظيم أمور الدولة وتطبيق مفاهيمه التي جاء بها فيقول:

«ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعداً لا ييأس أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية».

وهو هنا يؤكد أنَّ العلماء والمتعلمين من المصريين هم من سيحكم البلد:

«فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها».

ويطلب نابليون من القضاة والشيوخ والأئمة ووجهاء البلد أن ينقلوا إلى شعبهم نيابة عن الفرنسيين أنهم هم أيضاً مؤمنون ودليل ذلك مهاجمة روما وتدمير عرش البابا الذي لطالما حرض على قتال المسلمين وكما أنه قاتل فرسان مالطا الذين زعموا أن الله أوكلهم بقتال المسلمين فضلاً عن أن الفرنسيين أصدقاء مخلصون للسلطان العثماني وهم أعداء أعدائه، وهو يخلص إلى القول:

«أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم: إن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون؛ وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا، الذي كان دائماً يحث النصارى، على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها الكواللرية، الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني، وأعداء أعدائه أدام الله ملكه».

بدأ الناس بعد ذلك يتفرقون، ولم يبق من هذا الحشد الكبير إلا ثلاثة أو أربعة أشخاص مضوا يتجادلون، وانتشر الآخرون في الطرقات الكثيرة التي كانت تصبُّ جميعها أمام الجامع الأزهر.

مضى بعضهم إلى شارع الغوريَّة. وآخرون صوب باب الوزير، والبعض امتطى الدواب وسعى نحو جبل المُقطَّم، أو إلى خارج المدينة. في الطريق التي بدأت تستقبل أضواء النهار الأولى، تهادى شبح الشيخ الذي أحنت الأعوامُ ظهرَه، ماضياً يتوكأ بعصاه، يفرق الحصى والتراب، في حين كان بعض الشبان يمضون على عجل، كأنهم يسابقون الزمن.

من بين هذا الجمع، الذي تفرق هنا وهناك، كان شابان، يسيران بتؤدة وتأنٍ، وقد تأبَّط أحدهما ذراع صاحبه، وكانا في سيرهما يبدوان كرجل واحد يمضي على الطريق. أحدهما طويل القامة، نحيف الجسم، يرتدي جلباباً من الكتَّان داكن اللون، يظهر من أسفله سروالٌ قطنيٌ لامع، ويضع على رأسه عمامةً صغيرةً، أرسل طرف (شالها) الأبيض وراء ظهره، وكان له شارب

صغير، وعينان تلمع فيهما خضرة خفيفة، تُشعَّان بريقاً هادئاً وديعاً، وسط وجهٍ أبيضَ لفحته سمرةٌ خفيفةٌ.

كان الثاني أقلَّ طولاً من صاحبه، وأكثر امتلاءً. له شاربٌ طويلٌ مفتول. يرتدي جلباباً أبيض، ويتلفَعُ بـ (شال) حريريٍّ حول رأسه وكتفيه.

توجَّه الشابان صوبَ الشمال، في طريق بركة الأزبكية. ظلّا في سيرهما يطرقان الأرضَ بأقدامٍ متئدةٍ والطريقُ مقفرٌ من حولهما، حتى بلغا مشارف البركة. عندها سمعا ضجةً وأصواتاً كثيرةً، وظهرت عند منعطف الطريق جماعة من السقائين، يحثُّ بعضهم الدواب التي حمَّلوها بالقِرَب، على السير، ويمضي بعضهم سِراعاً والقرب على ظهورهم، كأنهم يخشون أن يسبقهم النهار.

بلغ الشابان شطَّ البركة، فيمَّما ناحيةَ اليمين، وسارا حتَّى وصلا إلى الطرف الشرقي، واختارا منتدىً صغيراً هناك، كتب صاحبه اسمه بخط رديء «منتدى أبي الهول». جلسا على دكَّةٍ خشبيةٍ أمامه.

أقبل على صوتهما صاحب (منتدى أبي الهول)، فألقى عليهما تحيَّةَ الصَّباح، وسألاه أن يصنع لهما قدحين من القهوة.

من مكانهما أمام المنتدى، بدت القصور والمنازل ذات الشرفات تحيط بالبركة من كلِّ جانبٍ، تتدلَّى منها قناديلُ زجاجيةٌ مختلفة الألوان، مازالت بعض سروجها ترسل أضواءً خافتةً واهنة، كأنها تلفظ أنفاسها الأخيرة، وكانت الزوارقُ الكثيرة ترسو إلى الشَّط، وقد شُدَّتْ بحبال دقيقة.

بيت محمد بك الألفي، كان أبرز البيوت حول البركة، تحيط به أشجارٌ ضخمةٌ عالية، والطيور ما تنفكُّ تضرب بأجنحتها غصون هذه الأشجار، وترسل أصواتاً مختلفةً جميلةً ابتهاجاً بمطلع النهار. صفحة الماء عند هذا الصَّباح الهادئ، كانت ساكنة كأنَّما طوت نفسها على سرٍّ رهيب.

أقبل صاحب (منتدى أبي الهول) بعد هنيهة، يحمل صينية نحاسية

صفراء، عليها قدحان. وضعها بين يديهما، ومضى لشأنه. بدأ الشابان يحتسيان القهوة وهما صامتان، يتأملان في الماء... الأشجار... الطيور التي بدأت تطير محلِّقة في الجو.

قال الشاب النحيل ذو العينين الخضراوين، وهو يسرح بنظراته الوديعة بعيداً:

- هل تصدق يا إبراهيم أنّني لا أنام هذه الأيام؟

فقال إبراهيم في صوتٍ تشوبه الدهشةُ: لماذا؟!

فقال ذو العينين الخضراوين: إن أيّامي ولياليَّ أصبحت صحواً كلُّها. سوف أرحل بعد أيام إلى الشام، وأنا أحبُّ ألا يفوتني شيءٌّ من هذه المدينة العظيمة. أريد أن أملأ قلبي وحسِّي وبصري بكل ما تزخر به. لا أريد أن أنسى هذه النسمات الندية الرطبة، التي تلفح وجهي الآن. لا أريد أن يفوتني مرأى هذا الطير الذي يحلِّقُ في السماء... ومرأى المعالم الخالدة التي أرى في زخرفة مبانيها وهندستها كلَّ يومٍ جديداً. لقد تزوَّدتُ من القاهرة بخيرِ ما يتزوَّدُ به إنسان، من زادِ العِلم، وغداً أنطلق إلى وطني، وفي قلبي حبٌّ عظيمٌ لكل إنسان عرفته وصحبته هنا، وبين جوانحي هوىً لكل شيء شهدته وملأت منه عيني وحسِّي. لقد عشت بينكم ثلاثة أعوام ستظل في عمري أسعد الأعوام. إنني لم أشعر يوماً أنني بعيدٌ عن قومي وأهلي وبيتي.

قال إبراهيم مقاطعاً: ألا ترى أنك كنت في بيتك وبين أهلك وقومك!؟

فقال الشاب النحيل: بلى كنت كما تقول، في بيتي وبين أهلي وقومي.

سكت لحظةً، ثمَّ قال: ترى متى أعودُ إليها؟

وسمعا صوت طائرٍ صغيرٍ يضرب بأجنحته صفحة الماء، كأنه يغسل فيه آثار النوم، ثمَّ يرتفع محلقاً في السماء.

نظر إليه الشاب لحظةً حتى اختفى عن ناظريه، وتابع حديثه قائلاً:

– سأمضي إلى الشرق كما يمضي هذا الطائرُ، أفتراني أعودُ كما سيعود الليلةَ إلى دوحته؟

قال إبراهيم: إني أرجو أن تعود يا سُليمانُ في أقربِ وقت.

قال سليمان وهو يملأ نظراته من إبراهيم:

– نعم... سأعود رجاء تحقيق أملٍ جاش في صدري أعواماً، لأجعل الصداقة التي ربطتنا، قرابةً خالدةً على مرِّ الأيامِ والسنين.

سكتَ سليمان لحظة، قبل أن يمضي في متابعة حديثه:

– سأعود لأطلب يدَ أختك وداد، وأرجو ألا تضنُّوا بها على طالب علمٍ فقيرٍ مثلي.

قال إبراهيم: إنه ليسعدُ أبي من غير شكٍّ أن يجيب طلبك وأن يحقِّقَ أملك.

يبدو من خلال استرسالهما في الحديث، أنهما قد تداولا فيه من قبل، لأنهما لم يطيلا فيه.

ساد الصمتُ لحظةً، قبل أن يتابع سليمان حديثه، وهو يملأ نظراتِه وقلبَه من النور الذي بدأ يشعُّ أكثر فأكثر من ناحية الشرق: إن الحياة تبدو جميلة في عيني. لم أرها كذلك قبل اليوم.

أغمض عينيه، كأنما يريد أن يحتفظ فيهما بذكريات سعيدة طافت في خياله، وقبل أن يرتد إليه بصره، تردَّدَ في خياله صوتٌ عذبٌ رقيقٌ ظلَّ يسمعهُ من بعيد طيلة السنوات الثلاث. لم ينظر إلى وجه صاحبته، وإن كان قد رأى ذات يومٍ يداً صغيرةً بيضاء تمتدُّ إليه من وراء حجاب بالطعام والشراب، يومَ مرض خادمه... وأمس وقبل أن تغرب الشمس، امتدت اليد البيضاء نفسها،

تحمل مصحفاً صغيراً وضع في كيس من القطيفة الزرقاء، وسمع الصوت يقول له:

– خذ هذا هديةً مني إليك، لعلك حين تراه أن تذكر القوم الذين عشتَ بينهم كأنك واحدٌ منهم.

تناول المصحف، واختفت اليد، وأسرعت وداد إلى بيت الحريم.

فتح سليمان عينيه على النهار وقد أشرق. صفحة الماء في بركة الأزبكية تسري على سطحها هزّات خفيفة، وبدأت النوافذُ تصفِّق في أعلى البيوت، وتُفتحُ لتستقبلَ الحياة والنور، والناس يخرجون من الأبواب زرافاتٍ ووحدانا، ويمضون إلى الشوارع والطرقات.

قال لصاحبه: لقد آن لنا أن ننهض.

قال إبراهيم: إلى أين تمضي الآن؟

– إلى الأزهر، أودِّع أساتذتي ورفاقي.

– سأراك في البيت، إذا كان الغروب.

– بإذن الله.

سارا معاً، اليد في اليد حتى بلغا الغوريَّة، فمال إبراهيم إلى اليمين، وسلَّم على صاحبه، ومضى إلى متجره، فيما تابع سليمان السير في طريقه حتى دخل الجامع الأزهر، الذي كان يموج بطلاب العلم، الذين قدموا إليه من شتى أقطار الأرض. تختلف سحنهم وألوانهم وقاماتهم، كأنَّ العالم كلَّه قد أرسل أبناءه إلى هذا الجامع الكبير لينهلوا من موارده، ويتزودوا من معارفه وعلومه.

في الطريق إلى الأزهر، طافت في خيال سليمان ذكريات الأعوام الثلاثة

الماضية. لقد قدم إلى القاهرة من الشام مع قافلة من قوافل التجّار، غريباً لا يعرف أحداً، يحمل خطاباً من والده، إلى الحاج مصطفى البشتيلي، يوصيه فيه برعاية ولده في القاهرة، وتقديم العون إليه، ليتابع دراسته في الأزهر.

صلةُ الشيخ محمد أمين والد سليمان بالحاج مصطفى البشتيلي كانت صلة قديمة تعود إلى سنوات بعيدة، عندما كان مصطفى الشاب يرحل إلى الشام عبر البحار حاملاً بعض غلال مصر إلى الشام، من الحبوب والسكر والأنسجة القطنية، ثمَّ يعود بحرير الشام ومنسوجاته وفاكهته. وكان مصطفى إذا قدم إلى حلب، نزل في بيت محمد أمين ضيفاً عزيزاً يلقى كلَّ أنواع الرعاية والإكرام. ولم تقم في ذلك الحين حدودٌ أو فواصلُ بين سائر الأقطار العربية.

كان الناسُ – من مختلف البلدان– يتقابلون للمرَّة الأولى، وسرعان ما تسود بينهم الأُلفة، وتلتقي قلوبهم على المحبة والإخاء، ولا عجب في ذلك، فالقرابة العريقة التي تربطهم، تشدُّ بعضهم إلى بعض بقوة.

عندما طرق سليمان باب الحاج مصطفى، للمرة الأولى، عند قدومه إلى مصر، فتح الباب له إبراهيم ابنه، وسأله عن حاجته، فقال له إنه قادم من الشام، ومعه خطاب من أبيه إلى الحاج مصطفى.

انبسطت أسارير إبراهيم، وفاض وجهه بالبِشْر، وأخذ يدَهُ، ودعاه إلى الدخول مرحِّباً محيِّياً، ومنذ ذلك اليوم وهو يقيم بينهم، لا يفارقهم إلا إذا ذهب إلى الأزهر، أو مضى مع إبراهيم لشأنٍ ما.

أفردت عائلة الحاج مصطفى لسليمان غرفة في الطابق الأوَّل، وعاش بينهم كفردٍ منهم، يفرح لفرحهم، ويتألَّم لألمهم. لم يشعر في يومٍ أنَّه يعيش في بيتٍ غير بيته، أو يلقى فيه غير أهله وذويه.

نَبَتَ مع الأيام في قلب سليمان أملٌ ظلَّ ينمو ويترعرع فيه؛ إنه يريد أن يرتبط مع هذه الأسرة برباط الزواج، حتى تبقى وتخلد مع الأيام هذه الصلة التي

استروح في ظلالها ورحابها المودَّة والحبَّ والإخاء، كما لم يستروحها في أيِّ مكان.

* * *



-٣-

حلقة الجوسقي

نورٌ غامرٌ يتدفَّق من نوافذ الجامع الكبير، ليعطي مسحةً قدسية في رحاب الأزهر. حلقات الدرس في أروقة الجامع، والتي استمرت منذ عهد الخلافة الفاطمية، مازالت تتوزع هنا وهناك لتعبِّر عن روح التسامح وقبول مختلف وجهات النظر والمذاهب، وأن لا خلاف بل اختلاف على منهج تفسير الآي الكريم، اتساقاً مع قول النبي العربي صلى الله عليه وسلَّم: «اختلافُ أمتي رحمة».

لم يلتحق سُليمان بحلقته، بل دخل من الباب الرئيس، وشعر بتلك المسحة الربانية الغامرة في رحاب الأزهر، الذي تزهر النفوس وتزدهر به. طاف بالحلقات جميعاً، كأنَّما يستعرضها، ولم ينضمّ إلى حلقة من حلقات الدرس التي انتشرت في أنحاء الجامع وأروقته، في ذلك اليوم الذي جاء تاجر الإسكندرية، كان ينتقل من حلقةٍ إلى حلقة، كأنما يريد أن ينهل من كلِّ مورد، ويأخذ من كلِّ نبع، حتَّى انتهى به المطاف إلى حلقة الشيخ سليمان الجوسقيِّ شيخِ طائفة العميان، فجلس بهدوء في طرف الحلقة. فوجئ بصوت الشيخ مرهف الحسِّ يردِّد:

- من قَدِمَ إلى حلقتنا؟

نهض قائلاً: أنا سليمان بن محمد أمين يا سيدنا الشيخ.

قال الشيخ : هلاّ استأذنت يا سليمان؟

– إنما خشيتُ أن أقطع عليك درسك يا مولانا.

– هل أنت من مصرَ يا سليمان؟

– لا، أنا من بلاد الشام يا سيدي الشيخ.

– من أيِّ بلاد الشام أنت؟

– من حلب.

– اجلس، على الرحب والسّعة، هذا درس تفسير.

جلس سليمان، ومضى الشيخ يقول: وقفنا عندما قدم سليمان عند قوله تعالى:

«**كنتم خير أمَّةٍ أُخرِجتْ للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر**»... فنقول: إن الأمَّةَ هي الجماعة من الناس يجمعها القصد الشريف والغاية النبيلة، والخطاب في كلمة «**كنتم**» إلى هذه الأمَّة التي آمنت، أي صدَّقت بدعوة الحقِّ ورسالة الخير.

ومضى يتابع درسه بصوت جهير عميق، يفيض بالإخلاص، حتَّى أخذ بمجامع قلوب طلابه، وكانوا يصيخون السمع بصمت بليغ كأنَّ على رؤوسهم الطير، ورأى الطلابُ خادم شيخ الجامع يقتحم الحلقة ويقترب من الشيخ، الذي شعر بوقع أقدامه، فقال:

– ماذا دهى الأزهرَ اليوم حتَّى يُقطع درسي مرتين!؟

مال الخادم إلى الشيخ، وأسرَّ في أُذنه بكلماتٍ... فقال الشيخ على الفور بصوت مرتفع:

– أنا لا أفارق درسي حتَّى أفرغ منه.

انحنى الخادم مرَّةً ثانية إلى أذن الشيخ وردَّد كلماتٍ قليلة بهمس، فقال الشيخ بصوته المرتفع: لا شأن لي بهذا. أنا لا أعرف مراد بك. ولا أريد أن أذهب إلى داره لأيٍّ سبب.

قال الخادم بصوتٍ سمعه الطلاَّب: إنَّ الأمرَ خطيرٌ، وقد أرسلَ مراد بك يقول:

- إن حرباً وشيكة الوقوع...

قال الشيخ، كأنما ينهي الحديث:

- لا شيء أخطرُ من ترك الدرس ومفارقة الطلاب... اذهب عنَّا.

واتجه الشيخ الجوسقي، بوجهه نحو الطلاّب وتابع يقول:

- الآية الكريمة تلقي على عاتق أمتنا مهمَّةً كبرى ورسالةً سامية، وهي رسالةُ الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، والسير بالناس على الطريق السوي، والأخذ بيدهم إلى فعل الخير، وترك الشرِّ، وعدم الاعتداءِ على الناسِ في شيء من أموالهم أو أعراضهم أو أنفسهم. ونخلص من قوله تعالى، بمغزىً جليلٍ ومعنىً سامٍ عظيم. إلى أن هذه الأمَّة الوسط في المكان والزمان وفيما تأخذ أو تدع في أمور حياتها، هي أمَّةُ الدعوةِ إلى خير الناس جميعاً، وأمنهم، وصلاح أمورهم، والسلام عليكم ورحمة الله.

* * *

-٤-

بارتلمي وكاشف

ما إن تتسلَّل أشعة الشمس كلَّ صباحٍ، حتَّى تقرع جزءاً من باب المتجر الذي يملكه إبراهيم، من فتحة وكأنها رُسمت بشكل مخصَّص لتنير الجانب الأيمن من باب الدكان جزئياً مع لحظات الشروق، في حين تتوزع محلات أخرى تحتجب الشمس عنها حتى في رابعة النهار.

لم يشاهد أحدٌ الجدران الخارجية لمتجر إبراهيم بمحلَّة الغوريِّة، من دون تلك الثياب والأقمشة التي يسارع عمال المتجر إلى تعليقها قبل أن ينفر الناس إلى أعمالهم. هذا المحل لبيع الأقمشةِ، استقلَّ به إبراهيم عن تجارةِ أبيه الحاج مصطفى البشتيلي، كبير تجَّار بولاق لكي يشق طريقه في عالم التجارة.

رأى إبراهيم حين وصل إلى المتجر في ذلك الصباح، عُمَّال المتجر يقفون أمامه انتظاراً لقدومه، ليفتحوا باب المتجر بحضوره، وحين رأوه شرعوا في رفع القوائم الحديدية المثبَّتة بالباب، وبدؤوا في فتح المتجر وإخراج الأقمشة ذات الألوان، ورفعها على الجدران أمامه. حمل صبي صغير مقعداً خشبياً عليه سجَّادة صغيرة، ووضعه إلى جانب الباب، لكي يجلس عليه صاحب المتجر.

أقبل أحد السقَّائين، وبدأ برشِّ الماء من فم قربته أمام المتجر، وفي داخله، وراحت أشعة الشمس تنفذ إلى الشارع من فرجات مستطيلة ومستديرة في السقف الطويل الذي يغطِّي الشارع الضيِّق. فيما بدأ الناس يقبلون من الحارات والدروب التي تصب في شارع الغوريَّة حتَّى غصَّ بهم.

كانوا رجالاً ونساءً وأطفالاً يسعون إلى أغراضٍ مختلفة.

يمضي طلاَّب العلم إلى الأزهر، ويمضي أصحاب الحرف والعمال في اتجاه باب الوزير حيث مصانع النحاس والصاغة؛ وينعطف البعض إلى باب الخلق حيث مناسج العقَّادين والقمَّاشين، ويجدُّ البناؤون في السير إلى باب الحسينية حيث تُبنى هناك عمائرُ جديدةٌ.

كانوا جميعاً طلاَّب العلم والعمل، يمضون في نشاطٍ وحيويةٍ وإقبالٍ منقطع النظير على الحياة، وكل ما يجعل الحياة أكثر ثراءً وأمناً ورغداً ونوراً.

تردَّد من بعيد صوتٌ يقول:

- يا كريم... يا حليم... يا رزَّاق.

إنه صوت حامل البخور (عم خليل) يهزُّ مبخرته بيد، ويحمل مزهريته باليد الأخرى. ويطلق هنا وهناك بخُّوره وصوته معاً:

- يا كريم... يا حليم... يا رزَّاق يا كريم...

دخل المتجر، وجال فيه حتى امتلأ جوُّه بالدخان الأبيض المعبَّق برائحة العود، وأوراق الورد. وعندما وصل إلى باب المتجر وهو يخرج منه، رشَّ من مزهريته أمامه شيئاً من ماء الزهر، ثمَّ أقبل نحو إبراهيم ومال على أذنه وقال بصوت هامس، لم تخلُ نبراته من معنى:

- صباحك خير يا ابن الأجاويد.

ردَّ إبراهيم: صباحك خير يا (عم خليل).

دسَّ إبراهيم يده في جيبه، وناول العم خليل قطعة نقود، رفعها خليل إلى فمه فوراً وقبلها قائلاً:

- يومك نادٍ بإذن الله.

كانت الغوريِّةُ في ذلك الوقت، ملتقى البضائع التي ترد إلى مصرَ من كلِّ جهات الأرض، لذلك كان سوقها يشهد كلَّ يومٍ أخلاطاً من الناس، من كلِّ البلاد، يلتقي فيه أهل الريف مع أهل الحضر مع أهل البادية، وتسعى النسوة محجبات يحملن أطفالاً رُضْعَاً على أكتافهن، ويتعلَّق بأيديهن صغارٌ آخرون بنشاطٍ ملحوظٍ،

ويتنقَّلن من متجر إلى آخر يقلِّبن البضائع يشترين ما يروق لهن.

بعض باعة الحلوى، ذات الألوان البيضاء والحمراء، يرفعون أصواتهم بالنداء على حلواهم، فتتجه إليهم أنظارُ الأطفال من كل جانب، ويقف السقاة بقربهم عند مفارق الطرق يوزعون الماء على العطاشى بأكواب نحاسية صفراء.

سمع إبراهيم أحد رجاله يقول له، وعلى شفاهه ابتسامة ساخرة: لقد أقبل حبُّ الرمَّان.

نظر إبراهيم فرأى رجلاً أوروبياً يرتدي قبعةً مالت إلى الوراء، وتناثر شعر رأسه الأشعث الأغبر على جبهته تحتها، وقد تهدَّلت سترته، وتفتَّقت أجزاؤها في أكثر من موضع. أطراف أكمام سترته اتسخت من العرق والغبار الممتزجان على حروفها. كان يحمل في يده حقيبةً كبيرةً، أمال حمْلُها جسمَه إلى اليسار، وتقدَّم حتى وقف أمام إبراهيم، واضعاً الحقيبة على الأرض، وجلس بجانبها، وقال بصوت عربي تشوبه لكنة الأوروبيين:

- «صباه كير إبراهيم بك».

قال إبراهيم: صباح الخير يا بارتلمي.

قال الأوروبي: «أنت شوفت بداعة جديدة... بتاعي؟».

فقال إبراهيم مقلِّداً وساخراً من كلامه:

- «لا ما شفتش بضاعة جديدة... بتاعتك»... ماذا تحمل؟

- «كلِّ شيء. أكمشة... زجاج الخَّزف، ماد إن يوروبا هبيبي».

ثمَّ فتح بارتلمي حقيبته وأخذ يُظهر ما فيها قائلاً بلهجة عربية مكسَّرة:

- «هادا هرير من إيتالي ومن فرانس... وهاد من إنكلترا... وكزف صُونِئ أوستريا وإيتالي... كله من صنع نيس وفلورنس وفيِّينا». أي: هذا حرير من إيطاليا ومن فرنسا، وهذا من إنكلترا، وخزف صنع في النمسا وإيطاليا، كله صنع في نيس وفلورنس وفيينا...

وبدأ يُخرجُ قطعاً من الأقمشة والخيوط والزجاج ذي الألوان، ويضعها بين

يدي إبراهيم وعلى حجره، وحركات يديه ورأسه تسابق صوت لسانه. ثمَّ أخرج (شالاً) كبيرا وقال:

- «(شال)، ليس له متيل بالآلام...ماد إن فينيس».

قال إبراهيم: عندي أفضل منه، من صنع دمياط والمحلَّة ودمشق والموصل.

قال بارتلمي بامتعاض: «هاد نادر هبيبي!... نادر»...

- أحْضِر ذاك (الشال) يا عليّ.

وأشار إلى (شالٍ) عُلِّقَ إلى ناحية اليمين. حمله عليّ الأوروبي.

قال إبراهيم: ما رأيك؟

- «جيِّد. شوف هبيبي. أنت لازم تكون إندك أسناف كتير، لتوردي أدواق كتير. هدا سئره حشرة ريال بس».

ضحك إبراهيم وقال مصحِّحاً:

-عشرة... عشرة يا بارتلمي، وليس (حشرة) الحشرة مؤذية مثلك، أما العشرة فهي مفيدة لك ولغيرك. على كل حال، لا أجد من يشتري (شالي) بخمسة!... وتريد بيعي إياه بعشرة!؟...

- «الله يجبر عنك يا بابا»... ارجِعْ البضاعة إلى مكانها يا ولد.

قال جملته الأخيرة، وهو يشيح النظر عن بارتلمي.

شعر الأوروبي بخيبة أمل من نغمة إبراهيم الساخرة، والجازمة في الوقت نفسه، فكَّر قليلاً، ثم قلب سحنته، وتصنَّع التواضع والمسكنة وقال:

- «خلاس هبيبي، ما في شراء؟ ولا من هرير؟!».

قال إبراهيم: لديَّ الكفاية الآن. شكراً. ربما أشتري في المرات المقبلة.

تنهَّد بارتلمي، وراح يلمّ قطع القماش والخزف والزجاج التي تناثرت هنا وهناك، فيعيدها إلى حقيبته الكبيرة. ثمَّ ينحيها جانباً، ويجلس إلى جانب إبراهيم على الدكَّة، وقد رسم على وجهه أمارات الذل والانكسار. مال إلى أذن إبراهيم وقال:

- «أنا أعايز فلوس... ريالات كتير... أعايز كتير أوي... بنتي مريدة».

- ابنتك مريضة؟

- «وي مسيو ... هبيبي» ...

أخرج إبراهيم من صديريته كيساً، وأعطى الرجل بعض النقود.

وضعها بارتلمي في جيب سرواله قائلاً:

- «هادا دين لك، وجميل في أونوكي. سوف أردُّه لك».

- على بَرَكَةِ الله.

تمتم الرجل الأوروبي بعبارات الشكر، ثمَّ نهض ومضى في طريقه، وما إن عتم غائباً في الزحام، حتى تواصلت إلى الأسماع جَلَبَةٌ وصراخُ نساءٍ وأطفالَ يختلط بصهيل خيول تعدو من بعيد.

بدأ الناس يخلون الشارع ويفرّون إلى الحارات والدروب الجانبية، أو يلتصقون بالجدران على جانبي الشارع. فجأة بان أحد فرسان المماليك، يعدو بجوادٍ أبيض تلمع الأحجار الكريمة على عاتقه، ويتلألأ الذهب من فوق سرجه. ثم ظهرت خلفه ثُلَّةٌ من أتباعه الفرسان، يرفعون رماحهم في أيديهم إلى أعلى وهم يعدون بسرعة أفزعت الناس.

تمهّل الركب أمام دكَّان إبراهيم، حيث ينعطف الشارع إلى اليمين قليلاً، وكأنما أتاح ذلك للفارس الذي يعدو في المقدمة وقتاً يتأمَّل فيه ما حوله، ورأى إبراهيم يقف متحفِّزاً بقامته الربع وجسمه الممتلئ وشاربه الطويل المفتول.

استل الفارس سيفه، ولوَّح به أمام إبراهيم الذي بقي جامداً في موقفه لا يتحرَّك، ومدَّ الفارس سيفه بسرعة وتناول (شالاً) حريرياً من بضاعة إبراهيم عُلِّقَ فوق الجدار، ورفعه الفارس كأنه علم.

أسرع إبراهيم وقبض بيده على ناصية الجواد وقال للفارس بتصميم، وعين جامدة:

- دع ما ليس لك...

اقترب أتباع الفارس والتفُّوا حَوْلَه، وبدأ الناس يفيقون مما غَشِيَهُمْ من فزعٍ،

وراحوا يلتفُّون حول الرَّكْبِ من كلِّ جانب.

قال أحد أتباع الفارس لإبراهيم، وهو يلوِّح برمحه:

- دع ناصية الجواد يا هذا... ألا تعرف من تواجه! ومن ذا الذي تقف في وجه جواده؟!...

قال إبراهيم: لا يعنيني من يكون، يجب أن يترك ما ليس له...

أكمل الفارس كلامه لإبراهيم في الوقت الذي كان يقول إبراهيم جملته:

- إنه عبدالله بك كاشف تابعُ (شيخ البلد) وحاكمها مراد بك.

لاحت في عيني إبراهيم التفاتة خفيفة، لكنه لم يدع الخوف يتسرَّب إلى قسماته، حتى لا يلحظها أحد من الواقفين، وأردف: هذا رزقي وأنا أدافع عنه، وإن من يريد الشراء فأساليب الشراء معروفة، لكن ليس بالرمح يمكن شراء الأشياء. وإلا تحول الجميع إلى ذئاب يمزق بعضها لحم بعض.

سرت همهمات بين الناس، وانطلق صوت في الصفوف الخلفية:

- يكفي مصر ما يصيبها من مماليكها، إنهم يعتدون على أرزاقنا وضح النهار.

زمجرت الجماهير وبدأت تردد الشفاه تردِّد عبارة (دع ما ليس لك...) وشيئاً فشيئاً ارتفعت أصواتها لتصبح وكأنها أغنية بلا لحن لكنها تسير وفق إيقاع محدد عندما قال أحدهم:

- ... يا مملوك... دع ما ليس لك... يا مملوك...

عندئذٍ ردَّدتْ الجماهير بصوتٍ واحد وكأنها تعدُّ أرقاماً:

- يا مملوك... يا مملوك... يا مملوك...

اصْفَرَّ وَجْهُ الفارس، وبدأت الخيول تتقدَّم وتتأخَّر، وكأنها ترقصُ رقصةَ الحجَّالة، عندما أحاطت بها الجماهير من كلِّ صوب. كانت أقدام الناس تدبُّ على الأرض، وهم يخبطون أقدامهم بقوة، ومن لديه عصا يقرع بها الأرض وكأنه يتهدَّد بشيء ما، وتتحرك متقدمة في حلقةٍ وكأنها توشك أن تطبق على

مجموعة الفرسان لتدوسها بالأقدام. فجأة سرت عبارة (يا مملوك) لتجتاح الشارع، شملت حتى أولئك الذين ينظرون من الشرفات، وكشاشي الحمام على أسطح المنازل. صارت مدوية أكثر لتشق عنان السماء:

- يا مملوك. يا مملوك. يا مملوك.

عندئذٍ اكتشف كاشف فداحة الأمر، بعد أن نضت الجماهير رداء الخوف الذي يستر الوجوه، فقال كاشف كلمات متعثِّرة:

- إني أداعبك...

ترك (الشال) يسقط بين يدي إبراهيم، ثمَّ تابع قوله: من أنت؟

قال إبراهيم: أتظنُّ أنني أخشى أن أخبرك عن اسمي!؟ أنا إبراهيم مصطفى البشتيلي.

قاطعه عبدالله كاشف بضحكة مدوية، وساد صمتٌ بعدها، قطعه كلام كاشف قائلاً:

- غداً سنكونُ أكثر من أصدقاء، أيُّها الصهر العزيز... هات يدك نتصافح.

نظر إليه إبراهيم شزراً، ثمَّ ابتعد دون أن يمُدَّ لَهُ يداً...

أهوى الفارس بسوطه على رأس الجواد، وشدَّ عنانه بقوَّة فرفع الجوادُ ساقيه إلى أعلى فأفزع الناس، وأخلوا له الطريق قدَّامه، فأتبع سوطه الأوَّل بسوطٍ ثانٍ على مؤخرة الجواد، وأطلق العِنانَ له، فمضى يسابق الريح، تعدو خلفه سائر الجِيَّاد، وصيحاتُ الجماهير الساخطة:

- (يا مملوك... دع ما ليس لك).

خيَّم الصمتُ فجأة على المكان لحظةَ تجمَّع الكبار الذين انبثقوا في مكان الحادث حين رأوا إبراهيم يقف ساهماً، وقد سَرَحَ بنظراته الثابتةِ إلى البعيد خلف الفارس في تأمُّلٍ صامت.

أقبل (عم خليل) بمبخرته، وراح يهزها ويقول: وحِّدوا الله...

تمتمت الشفاه بعبارات التوحيد. ثمَّ تقدَّم حتى توسط الجمع، وقال في

تمهُّلٍ وكأنه يقدحُ زنادَ أفكاره: لقد رأيت هذا الفارس ذات يوم.

تصايح الناس يسألون العم خليل: أين رأيته؟؟؟

قال خليل وقد اكتسى وجهه بطابع الجِد:

– رأيته في استانبول، منذ عشرين عاماً... كانت الطبول تدقُّ من حوله. هل تدرون كيف رأيته؟...

انفرجت أسارير الواقفين عن بسماتٍ صغيرة، وصاح أحدهم: كيف رأيته يا عم خليل؟

قال خليل وطابع الجِد لا يفارق وجهه: كان مربوطاً من وسطه كالقرد.

تعالت أصوات الضحك، وتابع خليل حديثه: وكان النخّاسُ يصيح وهو ممسكٌ بالحبل الذي يربطه:

– من منكم يشتري غلاماً غبيَّاً يشرب ولا يأكل، له أب وليس له أم.

اهتزت أجساد الناس في نشوةٍ وهم يضحكون بأصواتٍ عالية. بينما مضى إبراهيم و(الشال) في يده حتى دخل متجره في خطوات بطيئة. ألقى الشال على مقعد خشبي، ضحكات الناس تدوِّي في الشارع سخريةً من المملوك وأتباعه. ومضت لحظاتٌ فخفَّتْ الأصواتُ شيئاً فشيئاً، حتى سكن الضجيجُ وعاد الشارع إلى سابق عهده يموج بالناس، ويردِّد باعة الحلوى نداءهم، والسقاة وباعة المشروبات يضربون بأكفهم الصاجات النحاسية.

اختلطت هذه الأصوات جميعها بعضها ببعض، وصار الشارع كأنه أوركسترا بلا مايسترو، وأمست حركته كخلية نحل لا تسمع فيه إلا تلك الهمروجة المختلطة.

أقبلت صبيةٌ صغيرة عند الظهر، تحمل الغداء لإبراهيم، وعمَّاله. اجتمعوا حول الصينية الكبيرة لتناول الغداء، وما إن فرغ إبراهيم من طعامه سريعاً، حتى انفردت به الصبية وقالت له وهي تميل إلى أذنه هامسة:

– إن سيدتي فاطمة ترجوك أن تعود إلى البيت الليلة مبكِّراً.

سألها: ألم تخبرك عن السبب؟!

- لم تخبرني عن السبب.

مضى النهار بطيء الخطا بعد هذه الجلبة الصباحية وكأن الغداء خيم بكسله على الناس، وحده إبراهيم بدا قلقاً على غير عادته.

لحظ العمال ذلك، خاصة عندما راح يذرعُ المتجرَ جيئةً وذهاباً... أو يتمشى في الشارع رائحاً غادياً غائر النظرات، عاقداً كفيه خلف ظهره، مطرقاً إلى الأرض.

حين بدأت الشمس تميل إلى الغروب، طلب إبراهيم من رجاله، أن يجمعوا البضاعة، استعداداً لإغلاق المتجر. قال أحد الرجال:

- لماذا نجمع بضاعتنا مبكرين، ولم ينفض السوق بعد!؟

قال إبراهيم: إننا بحاجة إلى قسطٍ أكبر من الراحة اليوم...

أقبل الصبي الصغير بعد لحظة ببغلة بيضاء، امتطاها إبراهيم، ومضى متَّجهاً نحو البيت.

* * *



-٥-

خطبة وداد

مَرَّ إبراهيم ببركة الأزبكية حيث شهد مطلع هذا اليوم مع سليمان، وتخطَّى بابَ الحديد وانعطف قليلاً نحو الشرق، وسار وسط الحقول والبساتين، حتى بلغ بولاق على شاطئ النيل.

مدَّ بصره نحو المغرب فرأى الشفق الأحمر، كأنما ضرَّجَ السماءَ بالدماء، ورأى سحابة زرقاء تظلِّلُ الشفق، وقد وقفت فوقه لا تبغي حراكا.

انتاب إبراهيم شعورٌ دافقٌ من الكآبة، زاد ممَّا ألمَّ به من قلق. تابع سيره حتَّى وصل إلى البيت، وأخذ يطرق الباب بضربات سريعة متلاحقة. فتحت له الباب خادمة عجوزٌ قصيرة القامة، وأفسحت له الطريق وهي تقول له: أختك فاطمة تنتظرك في مدخل بيت الحريم.

عبر إبراهيم مدخل البيت بخطوات قليلة، ومضى يقطع وسط البيت داخلاً من باب الحريم، فرأى أخته الصغرى فقال بلهفة:

- ما وراءك يا فاطمة؟
- أختك وداد، أغلقت عليها بابها، وهي تبكي منذ الصباح.
- أيُّ خطبٍ ألمَّ بها؟
- حدَّثتها أمها هذا الصباح عن زواجٍ لا ترضى عنه.
- لم أعرف أن زوجاً تقدَّم إليها.
- إن أباك يكتم الأمر منذ زمن، لكنه أعلنه اليوم لأمك كي تخبرها به.
- إن الزواجَ لا يُكتم أمره!... لماذا يكتمه!؟
- لأنك لن ترضى. كما أننا لا نرضى عنه جميعاً.

– من هذا الخاطب إذن!؟

قالت فاطمة في نبراتٍ حمّلتها كلَّ ما تطيق من كراهيةٍ واحتقارٍ:

– المملوك عبدالله كاشف... ويقولون: إن القران سيعقد في صمت... كأننا نشهد مأتماً.

ساد الصمتُ لحظةً. لم يصدِّق إبراهيم سمعه. استرجع في صمته كلماتٍ سمعها صباح اليوم من عبدالله كاشف. لم يفهم مغزاها ساعتئذٍ...

«غداً سنكونُ أكثر من أصدقاء، أيُّها الصهر العزيز... هات يدك نتصافح...»...

تردَّد الصوت في سمعه، وكأنه آت من بعيد يحوفه الصدى ويكبر كدوائر أحدثها سقوط حجر في ماء راكد.

لهج لسانه متفلتاً من الصدى، وهو يقول لفاطمة: لا لا... فهذا زواجٌ ينبغي ألا يتمَّ... أين أبي؟

اندفع إلى الخارج. قالت فاطمة، وقد أمسكت بذراعه: انتظر. إنه ليس وحده.

رمقها بنظرة حادة: من معه؟

– شيخ البلد... مُراد بك.

تمهّل إبراهيم قليلاً، وكان قد وصل إلى فِناء البيت، فرفع بصره إلى أعلى حيث القاعةُ الكبرى التي يستقبل فيها أبوه ضيوفه من ذوي النفوذ والجاه، فرأى زجاج نوافذها الأحمر والأخضر يشعُّ بالنور، حتَّى لَيُضاءَ فناءُ البيتِ من كثرة ما أُوقِِدَ به من القناديل!

نحَّى يدَ أخته عن ذراعه برفق، ومضى في خطوات سريعة يصعد درجات السلَّم إلى الطابق الأعلى، وتابع سيره ونفسه تضطرب بانفعالات مختلفة، حتَّى إنه نسي أن يستأذن في الدخول على والده وضيفه. نظر أبوه إليه في دهشة، حين أبصره ماثلاً أمامه بجانب الباب.

ألقى إبراهيم السلام، فردَّ أبوه بفتور، ثمَّ قال له: قبِّل يدَ عمِّك مُراد بك.

شعر إبراهيم بغُصَّة في حلقه. تقدم مضطرب الخطأ، فتعثَّر بمقعد خشبي صغير. مدَّ يدَهُ إلى مُراد بك. تناول كفَّهُ ورفعها إلى فمهِ، ثمَّ تركها وارتدَّ مسرعاً

إلى الخلف، ليقف بجوار الباب، وكان مراد بك وعبدالله كاشف أقوى رجلين يحكمان مصر في ذلك العهد ويستبدَّان بأمورها، بعد أن ضعف نفوذ الأتراك وذَوَتْ هيبتهم.

هيئة مراد تدل على أنه جاوز الخمسين من عمره. طويل القامة. ضامر الجسم. رقيق الوجه. ترك طرفي شاربيه الطويلين يتدليان حول فمه.

نظر إليه إبراهيم وهو يجلس على أريكة عريضة في صدر القاعة، وقد أسند ذراعية وفخذه، إلى متكأٍ وحَشِيَّاتٍ من القطن والريش، وقد مال بجسمه نحو اليمين، واضعاً مِذبِّ النرجيلة بين شفتيه.

كانت عيناه تومضان بنظرات قصيرة ماكرة، ووحشية في الوقت نفسه، ويرتدي سروالاً أسود عليه سترة من القطيفة، تلمع على صدرها وأكمامها خيوط ذهبية. أمَّا عمامته الطويلة، فقد لمعت في وسطها ريشة من الماس، تعكس الأضواء إلى كلِّ الجهات، فتبهر العيون، وكان يمضُّ دخان النرجيلة ببطءٍ ثمَّ يرسله من فمه وهو مطبقٌ جفنيه كأنه في إغفاءة.

قال الحاج مصطفى لولده: أراك جئت مبكراً، على غير عادة!

قال إبراهيم، وقد انكسر السكون الذي غرق فيه: نعم... فقد جئت لأتحدث إليك في أمر.

قال الأب، وقد بدت عليه أمارات عدم الارتياح: أي أمر؟

– هل تأذن يا أبي بأن نتكلَّم على انفراد؟

فقال الأب: قل ما تريد إنَّ مراداً بك منَّا، وعن قريب ستجمعنا وإيَّاه أواصر القربى والدم.

كأنما حركت كلمات الحاج مصطفى في نفس إبراهيم كلَّ الحقد الكامن في نفسه. لم يستطع كتمان عواطفه، فقال في صوت بدا مرتفعاً في سَمْعٍ أبيه:

– سمعتُ أن عبدالله كاشف قد طلب يدَ أختي؟!

رفع مراد بك وجهه قليلاً ونظر إلى إبراهيم نظرات متتابعة، كأنه يريد أن يستشفَّ ما في نفسه، ثم يغبُّ نفساً عميقاً من فم النرجيلة، ويطرق بعد ذلك ببصره إلى الأرض. قال الأب:

– نعم إن مراد بك، قد طلب يدها.

قال مراد بك، بكلماتٍ بطيئةٍ، كأنَّما يريد أن يحمِّلها ثقلاً يجعل لها وزناً كبيراً:

– إن عبدالله بك كاشف، أقرب أتباعي إليَّ... أنا ربَّيته مُذْ كان صبياً صغيراً، وأنا أعتبره ولداً من أولادي، وأعِدُّهُ ليكون شيخاً للبلد، يحمل مسؤولية الحكم من بعدي. ما الذي يدهشك من هذا الأمر يا إبراهيم.

أجاب إبراهيم على الفور: إن الحُرَّةَ لا تتزوج من مملوك.

أصابت كلمات الشاب مراد بك في الصميم، وقد شعر بالإهانة لأنه مملوك أيضاً، فنزع مِذب النرجيلة بعنف من بين شفتيه، وألقاه أمامه، ثمَّ أخذ نفساً عميقاً، وقال بصوت رزين وهو يحاول كتم انفعاله: ولكنكم تتخذون من بناتنا أزواجاً لكم!

قال إبراهيم في تحدٍّ وإصرار: لكننا لا نعطيكم بناتنا.

بدا إبراهيم في موقفه ذلك ممثلاً لروح البلد الذي أنجبه. الروح التي عَرفت على مدى العصور والأجيال كيف تصون مقوُّماتها، وتحتفظ بأصالتها، فعزلت بذلك كلَّ الغزاة والمستبدين الذين حاولوا أن يندمجوا فيها، ويصبحوا جزءاً منها، وتركتهم يذبلون ويذوون كبركة آسنة لا يأتيها الماء من أيِّ سبيل، فجفَّ وغار ماؤها كأن لم تكن شيئا.

نهض مراد بك، وقد احمرَّ وجهه، حتى أصبح كلون الدم، وصاح به:

– إننا حكَّام البلد يا ولد!!... أتظنُّون أنكم أعلى قدراً من حُكَّامكم؟!

قال إبراهيم وقد أدرك حجم الخطر، محاولاً استرداد هدوئه: إننا أصحاب البلد على الرغم من كلِّ شيء.

صاح الحاج مصطفى بوجه ولده: اخرج من قدَّامي.

خرج إبراهيم وهو يشعر أن عبئاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله. غادر البيتَ على غير هدىً. اقتادته قدماه إلى شاطئ بركة الأزبكية، فالتقى بسليمان هناك، وقضيا معا شطراً من الليل، ثمَّ عادا عند منتصفه، فوجدا كلَّ من في البيت قد سكن إلى النوم، وأغلق عليه باب غرفته. كان السكون في تلك الليلة غريباً، كأنه سكون البحر قبيل العاصفة...

* * *

-٦-

زواج السلطة والمال

عُرِفَ الحاج مصطفى البشتيلي، بأنه صاحب تجارةٍ واسعةٍ. سفنه تذهب إلى الوجهين القبلي والبحري، محملةً بالبضائع التي يجلبها من الشام وأوروبة والهند، ثمَّ تعود بالحبوب والأقمشة الحريرية والقطنية، والسكر والتبغ.

كان صاحب مالٍ كثير، الأمر الذي جعل بكوات المماليك واللصوص يطمعون في أمواله وأرزاقه. وهم الذين جعلوا ابتزاز الأموال حرفتهم الأساس، لاكتناز أموالهم.

من جهة ثانية، كان الحاج مصطفى، يدرك مقدار حاجته إلى مساندة الحكَّام الذين انتشر أتباعهم في أنحاء البلاد، لردِّ أي اعتداء على قوافله، وعلى تجارته وماله.

الحاج مصطفى شعر بعد المصادمة بين إبراهيم ومراد بك بعظم ما أقدم عليه ولده. لقد واجه أقوى حاكم في البلاد بما لم يواجهه به إنسان. عندها قال لمراد بك، الذي وقف وقد تهيَّأ للانصراف: عفواً يا مراد بك، تجاوز كلمات هذا الابن العاق. سوف يؤدب بقسوة. إن وداد ابنتي هي ابنتك أيضاً، وسوف أحملها بنفسي إلى بيتك، لتعقد قرانها على عبدالله بك الآن.

قال مراد بك كلماته ببطء شديد، كمن يرمي إلى هدفٍ بعيد: يا حاج مصطفى... أتقرُّ ولدكَ على رأيه فينا.

فردَّ الحاج بسرعة، وقبل أن يكمل مراد جملته: أستغفر الله. إنكم سادة البلاد؛ ولي الشرف في نسبكم يا مراد بك.

قال مراد على مضض، وكأنه يبتلع إهانة، وليس كمن سمع كلمات التفخيم: حسنٌ.

ساد الصمت لحظة، وعاد مراد يقول:

– قد اتفقنا على أن يُعقَد القرانُ الليلة بعد صلاةِ العِشاء، أليس كذلك؟

– بلى. سيتمُّ كلُّ شيء في موعده كما اتفقنا.

مضى مراد يذرع القاعة بخطوات بطيئةٍ متئدةٍ، وقد وقف الحاج مصطفى ينظر إليه من مكانه بجانب الباب. استدار مراد ليواجه الحاج مصطفى مرَّةً أخرى، ويقول:

– إن عبدالله كاشف هو خليفتي، وشيخ البلد بعدي، وأنا أحبُّك وأريد لك الخير عندما أربط بينك وبينه برباط المصاهرة والقرابة. إنَّ رجلاً مثلك ذا مالٍ ينبغي له أن يوثِّقَ صلاتِهِ بحكَّام البلد في كلِّ وقت، ليأمن على ماله من الضياع، وعلى نفسه من أن يعتدي عليه معتدٍ.

ثمَّ صمتَ مرادٌ لحظة، وراح يتأمَّلُ أثرَ كلماته على مصطفى البشتيلي. لقد كانت طبيعة مراد، هي طبيعة الثعلب المراوغ، الذي ينظر إلى الأمام نظرةً، ثمَّ بنظرات كثيرة إلى الوراء، ليتبيَّن موقفه وما يدور حوله. فجأةً، تابع مُراد حديثه: إنَّ عبدالله كاشف ليس غنياً الآن، لكنه بعد سنوات سيقبض بيده على ثروة هذا البلد، وستزدهر تجارتك، وستصبح أكثر التجَّار مالاً وغنىً. يجب حين تزفَّ ابنتك إليه أن تضع في الاعتبار أنَّها تزفُّ إلى حاكم المستقبل.

عندما تزوجت أوَّل مرَّة، لم أكن أحسن حالاً من عبدالله كاشف، لكن زوجتي نفيسة، كانت تحمل من الذهب ما يربو على مئة ألف ريال. ونساء

البكوات المماليك، يتفاخرن بما حمَّلهنَّ آباؤهنَّ من المال، فأرجو ألا تُبْخِسَ قَدْرَ ابنتك بين نساء المماليك.

ردَّ الحاج بسرعة: بالطبع يا مراد بك. أشكر لك نصيحتك. هذا يدل على فرط اهتمامك بنا.

قال مراد: حسنٌ... لقد اتفقنا على كلِّ شيء، وفي وسعي الآن أن أنصرف.

خرج مراد باتجاه قصره في الجيزة. وبعد صلاة العشاء، أقبل عبدالله كاشف في جماعة من أصحابه المماليك، إلى بيت الحاج مصطفى، وبصمتٍ لم يألفه الناس في مثل هذه المناسبات، عقد قرانه على وداد التي لم تستطع أن تنبس ببنت شفة.

دارَ الخدمُ بأكواب الشراب المحلَّى بالسُّكَّر على القِلَّة التي شهدت القران.

وجاء رسول مراد بك بعد ذلك يدعو عبدالله كاشف وأصحابه إلى القصر لأمر خطير، فامتطوا جيادهم ومضوا يعدون إلى الجيزة. جلس الحاج مصطفى بعد خروجهم وحيداً. في الوقت الذي خيَّم على البيت صمتٌ كصمتِ القبور. تناهى إلى سمعه صوت بكاءٍ مكتوم. إنه صوت ابنته وداد.

* * *

-٧-

مراد يعقد مجلس الحرب

غصَّت حديقةُ قصر مراد بك في الجيزة بأتباعه من المماليك، يسعى بعضهم في عجلةٍ إلى هنا وهناك، ويختبر آخرون بنادقهم، أو يجربون سيوفهم في مبارزات تدريبية. كانت الخيولً تصهل خارج الحديقة، وضحكات عابثة تنطلقُ في بعض أركانها، في حين تقف جماعاتٌ مختلفة في دوائرَ يتبادلُ أفرادها قطعاً من البوص طويلةً بين أفواههم، في نهايتها آنية صغيرة من الفخَّار على هيئة الكأس، أُعِدَّتْ لتدخين التبغ.

بعد الغروب أقبل على القصر مشايخ الأزهر يتقدَّمُهُم الشيخ عبدالله الشرقاوي. استقبلهم فارسٌ طويلُ القامةِ، وسار أمامهم في طريقٍ ضيِّقٍ رُصِفَت أرضُهُ بالرخام، تعلوه عريشةٌ خشبيةٌ تدلَّت منها عناقيدُ الحصرم.

سعى الفارسُ أمام المشايخ حتَّى وصلَ إلى بابٍ زجاجيٍّ كبيرٍ يُفضي إلى قاعة الاستقبال الكبرى، وأفسح لهم في الطريق، ثمَّ دعاهم إلى الدخول.

دخل المشايخ قاعةً كبيرةً مستطيلةَ الشكل، فُرِشَتْ أرضُها بسجادٍ وبسط مختلفة الألوان الأشكال، وعُلِّقَتْ على نوافذها ستائرُ من القطيفة الحمراء، وزُيِّنَتْ جُدرَانها بأسلحةٍ وسيوفٍ وغَدَّراتٍ تعدَّدت أنواعُها. في الصدر أريكةٌ كبيرةٌ واسعةٌ لا ترتفعُ كثيراً عن الأرضِ، وراءها ستارةٌ زرقاءُ تغطِّي الجدار بكامله. وبجوار

الجدران صُفَّتْ الأرائكُ الفخمة، وفي وسطِ القاعةِ يتدفَّقُ الماء من نافورةٌ صغيرةٌ على شكل تمساح، ينساب الماء من بين أسنانه العاجية بهدوء ليستقرَّ في حوض رُخاميٍّ، زُيِّنَتْ جوانبه بالفسيفساء. في منتصف الستارةِ الزرقاء التي عُلِّقَتْ في صدرِ المكان، عُلِّقَتْ قِطْعَةٌ من الحرير، كُتِبَ عليها بخيوطٍ ذهبيةٍ دقيقةٍ عبارة:

«كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رهينة».

جلسَ المشايخ لحظةً، تبادلوا فيها بعضَ الأحاديثِ بأصواتٍ خافتةٍ، في حين أخذَ الشيخُ الشرقاوي يحرِّكُ حبَّاتِ مِسْبَحَتِهِ بين أصابعِهِ، وراح يهزُّ رأسَهُ في حركاتٍ رتيبةٍ، وتنفرجُ شفتاه بين لحظةٍ وأخرى مُرَدِّدةً بصوت خفيض بعض الآياتِ والأذكار والأدعيةِ.

أقبل الفارسُ بعدَ لحظةٍ، ودفع الباب لِيُفسحَ الطريق للسيد عمر مكرم نقيب الأشرافِ، والسيد محمد السادات، والسيد أحمد المحروقي كبير التجَّار.

نهض المشايخُ لتحيَّتهم، وكانت مظاهرُ الاهتمام تبدو على وجوههم جميعاً. نظر السيِّد عمر مكرم فلم يجِدْ صاحبَ البيت، فقال في دهشة:

– أين مراد بك؟!!

فلم يظفرْ بجواب. مضى الشيخ الشرقاوي – في هذه الأثناء– وجلس بجانبه، وقال له:

– أفهمت ماذا يَعْني من رسالتِه إليك؟

استمهلَ عمر مكرم الجواب، بيد أن الشيخ أردف مكملاً:

– لقد قال: إنه يُقْبِلُ على حربٍ ويريدُ أن يرانا...

قال عمر مكرم: ذلك ما ذكره في رسالته إليَّ أيضاً...

فجأة، سُمِعَتْ دقَّات طبولٍ في الخارج، وأقدام تطرُقُ الأرضَ على الطريق الرخامي، ثمَّ دُفِعَ بابُ القاعةِ بعنفٍ وظهرَ حارسان يرتديان ملابسَ حمراء فضفاضةً، قبضَ كلٌّ منهما على رمحٍ طويلٍ. أفسحا الطريقَ ووقفَ كلٌّ منهما بجوار أحد جانبي الباب، ودخل رجلٌ ضَخْمُ الجسم، مكْتنزُ الوجْهِ، غائرُ العينين، على رأسه عمامةٌ كبيرةٌ تلمع فيها ريشةٌ من الماس، وعرف القادةُ والزعماءُ فيه شخصَ الوالي التركي، فنهضوا لاستقباله.

قال الوالي عباراتٍ مضطربةً: ماذا يعني مراد بك بهذا؟... كيف يحارب بغير إذنٍ من السلطان!؟... ألم يقل لكُمْ مع من هذه الحرب؟؟!... إن الحرب تحتاج إلى مالٍ كثير، وسيكون ذلك ذريعة يتعلَّلُ بها حتَّى لا يدفعَ نصيبَ السلطان من الخراج. لن تكون حربٌ بغير إذنٍ من السلطان.

ثمَّ التفتَ إلى الناس وسألهم من دون أن ينتظر إجابة: ألستم معي؟... هذا لا يجوز.

لم يكن هذا الحديثُ يعني المشايخَ والقادة، فلم يعيروا الوالي كبيرِ اهتمامٍ، وكانت أمارات الدهشة ترتسمُ على الوجوه لأن الوالي راح بتفكيره في هذا الاتجاه الذي لا يُعْنَى إلا بالخراج والمال... وحين لم يظفرْ بجوابٍ اتَّجه إلى صدر المكان، وصعد درجةً ليجلس على الأريكة الكبيرة وهو يقول: سوف أرى ماذا يعني بهذا... ستكون هذه الحربُ وَبالاً عليَّ... لن تكون هناك حرب.

بعد لحظاتٍ سُمِعَتْ أصواتُ طبولٍ ومزاميرٌ. لم تَمضِ سوى دقائقَ حتى أقبل مراد بك في حشد كبير من أتباعه البكوات المماليك. طاف على الحاضرين مُحَيِّياً، ومصافحاً فَرْدَاً فَرْدَاً، ومضى فجلس في صدرِ المكان بجانب

الوالي، في الوقت الذي توزَّع سائر المماليك على جانبي المجلس، وبدت تحت أحزمتهم خناجر تلمعُ مقابضها بما رُصِّعَت من الجواهر والأحجار الكريمة، ثمَّ أقبل الخدمُ وطافوا على الحاضرين بأقداح القهوة.

مال الوالي إلى أذن مراد بك وأسرَّ إليه بضعَ كلماتٍ لم يسمعها أحد، لكنهم شاهدوا مراد يهزُّ رأسَهُ من دون أن يتكلَّمَ أو يلتفتَ إليه، ثمَّ تركه واتجه إلى الحاضرين قائلاً:

– أيها السادة... المشايخ والتجَّار والأعيان. لقد أرسلت إليكم صباح اليوم أدعوكم إلى هذا الاجتماع لأني مقبِلٌ على حرب.

قال الوالي: إنَّ الحربَ يجبُ ألاَّ تكون سبباً في تأخير نصيبِ السلطان من الخراج.

قاطعه مُراد في حدة: لا تقاطِعني يا باشا فإنَّك لم تأتِ إلى هنا لتناقِشَ أمورَ الخراج. والتفت إلى الحاضرين متابعاً: لقد وصلتني رسالةٌ منذ أيام من السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية، يُبلِّغني فيه أنَّ الفرنسيس قد أقبلوا على الإسكندرية بعمارة كبيرةٍ من السُّفن، وأن جنودهم، بدؤوا ينزلون إلى المدينة ومعهم الأسلحةَ والمدافع. ويقول السيد كريم في رسالته:

– «إنهم جاؤوا لغزو هذه البلاد واستعبادها»...

لقد التمس منِّي حاكم الإسكندرية أيها السادة أن أمُدَّه بالرجال والسلاح حتَّى يستطيعَ ردَّهم على أعقابهم.

بعدئذٍ التفت مُراد إلى (أبي بكر باشا) الوالي العثماني، وثبَّت نظراته على وجهه، وقال بلهجةْ ساخرة:

– نحن نعلمُ من أذِنَ لهؤلاء الفرنسيس بالقدوم إلى هذه البلاد لحربنا.

قال الوالي: ماذا تقصدُ بهذا الكلام يا مُراد...؟

قاطعه مُراد: أقصدُ أنهم لم يأتوا لحربنا، إلاَّ بإذنٍ من السلطان الذي بعثك والياً تجمع له الخراج، لكنَّا سنعرف كيف نردُّ كيدَ أعدائنا جميعاً إلى نحورهم.

ركَّز مراد على كلمة (جميعاً) ليضمنها معانٍ إضافية، وكأنه يصنف العثمانيين مع الأعداء.

فردَّ الوالي: أتعني أنَّنا ندعو إلى غزو البلاد، بجنود الفرنسيس!؟

- نعم يا سيِّدي. هذا ما أعنيه تماماً...

وقف الوالي غاضباً لفوره، وشدقاه يهتزَّان من الغيظِ قائلاَ: أدعوتني لتواجهني بهذا القول الذي أذاعهُ الفرنسيس!؟... أنا لا أقبل هذا الكلام بحقِّ الدولة العليِّةِ.

تبادل القادة والمشايخ النظرات، وبدا لهم أن هؤلاء الذين انتهى إليهم مصير هذا البلد، لا يريدون أن يرتفعوا إلى مستوى الأحداث، التي بدأت تقرع الأبواب عليهم؛ فقال السيد مكرم:

- إنَّنا لم نأتِ هنا لنشهد عِراكاً بينكما. لقد جئنا لنسألكم: ماذا أعددتُّم لدفع الخطر عن هذا البلد؟

أجاب مراد: اطمئن أيُّها السيد النقيب... اطمئن. لقد أعددتُّ العُدَّةَ لكلِّ أمر.

التفتَ مُراد إلى الوالي وقال: تفضَّل بالجلوس يا باشا. حتَّى تعرف ما نفعل، وتبعث به إلى السلطان.

ظلَّ الوالي واقفاً لحظة، ثمَّ ما لبث أن جلس كإنسان لا حولَ له ولا قوَّة، وقد غُلِبَ على أمره.

تابع مراد الكلام: إنَّني أرسلت إلى السيد محمَّد كريم رسولاً أبلغه أنَّنا في الطريق إليه لردِّ الأعداء.

قال عمر مكرم: عجباً... إنِّنا نراك تجلس بيننا، وتقول للرجل: إنك في الطريق إليه!

فأجاب مراد في ثقةٍ واعتدادٍ عظيمين:

– اطمئن أيَّها السيد النقيب، إنَّ سفني وفرساني ورجالي، سوف تنطلق عصر الغد باتجاه الإسكندرية، وحين نلتقي بالفرنسيس، سنلقنهم درساً لن ينسوه، ونعلِّمهم أن هذه البلاد، لا يمكن أن يعتدي أحد على حرمتها، ونحن حُكَّامها.

ضمَّن مراد آخر كلمتين فخراً متناهٍ في الغرور.

التفت عمر مكرم إلى المشايخ وقادة البلاد وقال: أيُّها السادةُ. من الخير أن ندعوَ الناسَ إلى الجهاد والاستعداد للدفاع عن بلدهم وأنفسهم. إنَّ هؤلاء القوم يهزلون في موقفٍ لا يحتمل الهزلَ.

ووجَّه بصره إلى مراد وقال له: لقد وصلتْكَ الرسالةُ منذ أيام، لماذا لم تبلغنا بها فور وصولها!... أليس هذا بلدنا؟!

فرد مراد بحدَّة: ماذا كان بإمكانكم أن تفعلوا؟؟!

قال مكرم: ما يفعله أيُّ شعبٍ يُعتدى عليه. نهبُّ جميعاً للجهاد...

قال مراد بغير مبالاة، وهو يباعد بين نظراته وبين نظرات مكرم التي كانت تحدجه بتحفُّز:

– ما دعُوتكُم لهذا. إن الجهادَ واجبُ مماليكي وأتباعي، وعليكم أنتم واجبٌ واحدٌ هو بذلُ المالِ بسخاء لنفقةِ هذا الجهاد.

قال عمر: أهذا كلُّ ما نُطالبُ به!؟!

قال مراد: نعم... وقد أصدرت أمراً إلى رجالي في كلِّ مكان بأن يجمعوا كلَّ ما يقدرون عليه من المال والدواب والحبوب والسفن، لردِّ أعداء البلاد وطردهم. إنَّنا أدرى بنفقة الحروب، وإنِّي آملُ أن تحثُّوا الناس على البذل.

أطرق عمر إلى الأرض مفكِّراً. فقال الشيخ الفيُّومي: إن الجهاد فرضٌ على كلِّ قادر؛ على الناس كافةً أن يُعِدُّوا عدَّتهم للقتال من أجل حُرُماتهم.

فقال مراد بحِدَّة: لا تُفسدوا عليَّ أمري وتدبيري. إنِّي أعددتُ العدَّة لكلِّ شيء، وسأسحق الفرنسيس تحت قدميَّ هاتين، خلال ساعات من لقائهم. وفِّروا على أنفسكم وعلى الناس عناءَ القتال. إنَّ فرساني وأتباعي سيطوفون في القاهرة طوال الغد ليبثُّوا الطمأنينة في نفوسِ العامة.

ثمَّ نظر إلى عمر وقال محمِّلاً كلامَهُ مغزىً ما:... ونفوس الخاصَّة أيضاً أيُّها السيد النقيب. سوف تطمئن حين تراهم.

قال عمر: أولى بهم ألاَّ يضيِّعوا ساعةً واحدة، وأن يمضوا إلى لقاء أعداء البلاد، ذلك أفضل من أن يختالوا بين الناس في أزقة القاهرة.

قال مراد: سوف ترى فيهم رأياً آخر أيُّها السيِّد، عندما يأتيك النبأ بهزيمة الفرنسيس وقطع دابرهم.

نهض السيد عمر مكرم واقفاً، وتبعه السيد أحمد المحروقي وبعض المشايخ، وقال وهو يسعى إلى الباب: سأدعو الناسَ إلى الجهاد.

توقف لحظةً، فالتفَّ حوله المشايخ والزعماء فخطب فيهم:

– هذه أرضنا وأرض أجدادنا، والميراث الخالد لأبنائنا وأحفادنا، حتَّى يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها. أنقفُ موقفَ المتفرِّج والعدوُّ يغزو أرضنا!... لم يحدث أن تعرَّضتْ أرضُنا لغزوٍ أجنبي ووقف الشعبُ بعيداً عن المعركة... لقد خاض

شعبنا كلَّ معاركه من أجل الحرية والكرامة.

ثمّ اندفع إلى الخارج، فاعترضَ طريقه الشيخ الشرقاوي، وقال: مهلاً أيُّها السيد. من الخير أن نكون جميعاً على وفاق أمام العدو.

أقبل مراد ومعه الوالي إلى حيث وقف السيد عمر مكرم والمشايخ، وقال:

- إنَّ الشيخ الشرقاوي على حق، يجب ألا نختلفَ أيُّها السيد النقيب.

فردَّ عمر مكرم: إنَّنا نطالب بأن يحمل الشعب نصيبه في الكفاح والقتال، وأنت ترى أن يدفع لك الشعب نفقةَ القتال فحسب. إنَّ الشعب سيحمل نصيبه كاملاً في الدفاع عن أرضه. وأضاف الشيخ الشرقاوي مكملاً كلام عمر، موجهاً الحديث إلى مراد:

... ماذا يضيرك في هذا؟!

فقال مراد، ليسحب الأمر من السجال: كما تشاؤون. إنَّ كلَّ ما يعنيني، ألا يتوانى الناس عن دفع نفقة الحرب لمن جعلوا القتال مهنتهم التي يأكلون منها خبزهم، وهي مصدر رزقهم.

قال الشيخ الفيُّومي: سنبذل المالَ والنفسَ من أجل الوطن.

قال مراد، وهو يبسط كفيه أمام وجهه بشكل شاقولي، في إشارة إلى تهدئة النفوس:

- إذن بَطَلَ كلُّ خلافٍ... دعونا نتصافح.

تقدَّم إلى السيد عمر مكرم، فشدَّ على يده، وصافح سائر المشايخ والقادة، وأقبل الوالي مهرولاً نحوهم وقال: سوف أبعث رسولاً إلى السلطان، ليرى رأيه فيما أنتم مقدمون عليه، من أمورٍ جسام. لم يلتفت إليه أحد. مضى السيد عمر مكرم خارجاً، وتبعه المشايخ والقادة، وشقُّوا طريقهم وسط حشدٍ كبيرٍ من

المماليك الذين حملوا بنادقهم وسيوفهم في أيديهم، وأحدثوا من الضجيج والصخب ما طغى على الأحاديث التي تبادلها القادة والعلماء وهم يمضون إلى خارج القصر. نظر مراد إليهم وهم يغادرون قصره، ومن حوله مماليكه وأتباعه، وقال متوعِّداً: عندما نفرغ من الفرنسيس سيكون لي معهم شأنٌ آخر.

* * *



-٨-

الشمعة والفتيل

جَلَسَ الحاج مصطفى البشتيلي، بعد خروج عبدالله كاشف ورفاقه وحيداً. فارقه ولده إبراهيم، ولزمت عائشة زوجه، وابنته الصغرى فاطمة غرفتيهما، وخيَّم على البيت صمتٌ رهيب وسمِعَ ذلك البكاء المكتوم يأتيه من أحبِّ أولاده إلى قلبه، وأقربهم إلى نفسه، وحين آوى إلى فراشه، ظلَّ مُسَهَّداً لا يجد النوم سبيلا إليه.

مضت ساعات وهو يتقلَّب في فراشه، حتى أقبلت عليه زوجه وقد رأت حاله، فقالت له:

– ماذا ألمَّ بكَ؟

استوى جالساً وقال كمَنْ يخاطب نفسه، وليس إجابة على سؤال زوجه:

– لا أدري!!!... إن شعرت هذه الفتاة بالتعاسة بهذا الزواج، سوف أكون أشقى الناس.

قالت عائشة: لماذا تقول ذلك الآن؟!

قال: أيزعمُ الناس يا عائشة أنَّني ضحَّيت بها لكي أصونَ مالي؟

– إنك تتصوَّر أشياء لا وجود لها.

– لماذا كانت تبكي إذن؟

– كلُّ الفتيات هكذا، يبكين وهنَّ ينتقلن إلى بيتٍ غريب.

نظر إليها لحظةً، وتناول دثاراً وضعه على كتفه، وخرج قاصداً حجرة ابنته وداد، فتبعته عائشة. دفع الباب برفقٍ ودخل، فرآها جالسةً في الفراش، وضياء القنديل المعلَّق على الجدار يلقي على وجهها ضوءاً شاحباً. تقدم وقال بحنو: ما بك يا ابنتي؟

نهضت الفتاةُ واقفةً، وأطرقت إلى الأرض بصمت. تقدم الحاج مصطفى إليها. وقف أمامها، ووجهها إلى صدره. قال: لا تبكي يا ابنتي. إن بكاءك يؤرقني ويشقيني.

مسحت وداد دموعها. تابع الأب حديثه:

– ماذا تخشين من هذا الزواج؟! تكلَّمي يا وداد... تكلَّمي ممَّ تخشين!؟

ردَّت الفتاة بصوت لا يكاد يسمع: لا شيء يا أبي. ما خالفت لك أمراً في حياتي، وسأظل كذلك.

– كوني سعيدة إذن بهذا الزواج، فإنَّ ذلك سيسعدني أنا أيضاً.

قالت الأم: بعد أيام قليلة، سوف تراها أسعد النساء.

– إنِّني لن أبخس شأنك، وسوف أحمِّلُكِ من الذهب والجواهر ما يعلي منزلتك وقدرك بين سائر النساء، وسوف تكونين سفير مودَّةٍ وخيرٍ لنا جميعاً، ولن أضنَّ عليك بشيء.

– إنَّ الفتاة لتخجل أن يتحدَّث أحدٌ في أمر الزواج. دعها لي وامض أنت إلى إبراهيم فقد سمعت صوته يدخل البيت ولا يصعد إلينا.

– أعادَ إبراهيم؟

– نعم وأظنُّه مع سليمان في حجرته.

مضى الحاج مصطفى يهبط درجات السلم ببطء، كأن فكرةً طارئةً قد اقتحمت عليه عقله، فكَّر بها، وهو يهبط الدرجات. ولمَّا بلغ الفناء، رأى نوراً ينبعثُ من غرفة سليمان القائمة في صدر مدخل البيت. دفع الباب بهدوء، فوجد ولده إبراهيم جالساً وبجانبه سليمان، تنبعث من عيونهما نظراتٌ مكدودة، وحين أبصراه نهضا. ساد الصمت لحظةً. تقدَّم خطوتين نحو إبراهيم ورفع بصره إليه قائلاً: أنا أكبر منك سنّاً... لقد شيَّبتني الأيام وأحداثُها. خرجت من (بشتيل) منذ أربعين عاماً لا أملك قوت يومي. عملت هنا في بولاق، وعتلت الحبوب على كتفي. شقَقْتُ طريقي بالكدِّ والعمل. أشبع يوماً وأجوع أياماً، ثمَّ رزقني الله كما ترى. تعوَّدنا أن نداري الحكَّام الظالمين لنتَّقي شرَّهم وجبروتهم. تعوَّدنا أن ننمِّق لهم في الكلام، ونقدِّم المال، ونعقد ألسنتهم ونغلَّ أيديهم بالإحسان إليهم.

قال إبراهيم: ينبغي يا أبي ألا يصل الأمر إلى حدٍّ أن...

قاطعه الأب: مهلاً يا إبراهيم. دعني حتى أتمَّ حديثي. كلنا أبناء آدم وحواء يا ولدي، وعبدالله كاشف أخٌ لك، فكلنا أبناء آدم وحواء. دع ما فات من أمره، وانظر إليه في يومه وغده. إنَّنا نرجو أن يكون أهلاً وكفؤاً لأختك. قال إبراهيم: لكنك يا أبي تعلم أنَّ سليمان طلب يدها. فقال الحاج: دع أمر سليمان إليَّ، فهو ولدي مثلك، وإنَّني أستطيع إرضاءه.

* * *

-٩-

سُليمان يلتزم الجوسقي

طلقات نارية في الجو، روَّعت الطيور التي كانت هاجعةً ساكنةً بين الأشجار، فولَّت في ذُعْرٍ إلى السماء محلِّقةً تضرب بأجنحتها بسرعة كأنها تفرُّ من قدرٍ يتعقبها بالموت والفناء. وبدأت النوافذ والشرفات تُفتح ستائرُها وترتفع، وتُطلُّ منها النساء والفتيات، ينظرن إلى الشوارع والأزقة لاستطلاع ما يحدث.

خرج الحاج مصطفى وولده إبراهيم وسليمان، ووقفوا أمام باب البيت، فإذا موكب فرسان المماليك يسير في مقدمهم ضاربو الطبول، ويتقدمهم مراد بك الذي امتطى جواداً أبيضَ ضخمَ الجسم. كان الفرسان يسيرون في صفين منتظمين على جانبي الطريق، يعدو بينهما عبدالله كاشف بفرسه الأشهب، وقامته المديدة مختالاً مزهواً.

عندما وصل مراد بك إلى المكان الذي وقف فيه الحاج مصطفى، توقَّف لحظة، وتمهَّلت سائر الخيول على جانبي الطريق، ثمَّ توقَّف تماماً، وهو ينظر إلى الحاج مصطفى باحترام. لقد قصد من ذلك تحية كبير تجار بولاق وتكريمه بين أهالي الحي. تقدَّم الحاج مصطفى لمصافحة اليد التي امتدَّت لتودِّعهُ. ومدَّ مراد بك يده إلى إبراهيم، فتقدَّم إبراهيم لمصافحته. لقد كان انطلاق المماليك إلى الحرب، وسيرهم لملاقاة الفرنسيين الغزاة، سبباً جديداً في عطف القلوب عليهم. وبدأت الهوَّةُ التي تفصل بينهم وبين الشعب تضيق في هذه اللحظات، وأصبحوا موضعاً للإعجاب والمحبَّة عند الجماهير التي بهر عيونها هذا المنظر.

تابع ركبُ المماليك سيره حتى وصل إلى مرساة بولاق، وبدؤوا ينزلون إلى المراكب لتقلَّهم إلى الشاطئ الغربي لنهر النيل، كي يلحقوا بسائر الفرسان الذين أقبلوا من الجيزة في موكبٍ طويلٍ أثارَ الغبارَ وراءه مسافات طويلة.

في صباح هذا اليوم بدأ الحديث عن الحرب والقتال يتردَّدُ على ألسنة الناس في القاهرة، لكن هذا الحديث لم يؤثِّر على سير الحياة في المدينة. إذ كانت الأسواق مكتظَّةً كعادتها، والناس يمضون إلى حياتهم التي ألفوها كأن لم يحدث شيء، وكأن الحرب لا تطرق عليهم الأبواب، وكأنَّ هذا الشعب العريق قد أعطى الحياة كل قلبه، وانصرف إليها بكل جوارحه، فليس لشيء أن يصرفه عن حبِّ الحياة والعمل لها والأخذ بنصيبيه منها.

كان باعةُ الحلوى ينادون على حلواهم في أسواقِ الغوريِّة، والأطفال يلتفون حولهم و(عم خليل) يمضي كعادته يهز مبخرته في الفضاء فترسل الدخان الأبيض المحمل برائحة العود وأوراق الورد.

شيء واحد كان تغيَّر في حياة هذا العالم الصغير، كان ذلك الشيء هو نداء العم خليل الذي انطلق صوته الجهير العميق يردِّد: - يا قويّ... يا جبَّار... يا حليم...

كان الجامع الأزهر هو المكان الوحيد الذي تأثر بحديث الحرب، أكثر من أيِّ مكان آخر. حلقات الدرس تتحدث عن الجهاد وردِّ العدوان وجزاء من يذهب مجاهداً في سبيل الله، غير أن حلقة واحدة من بين هذه الحلقات مضت فيما خطه لها شيخها من درس، هي حلقة العميان، إذ جلس الشيخ الجوسقيّ يفسِّرُ لطلابه الآية الخامسة والثلاثين من سورة النور، من قوله تعالى:

﴿... اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ

وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ...﴾.

سمِعَ الشيخُ صوتاً من طرف الحلْقة يقاطِعُهُ قائلاً: يا سيِّدنا... ألا تسمع أن سائرَ حلقاتِ الدرس تتحدَّث اليوم عن الجهاد!؟

قال الشيخ على الفور: من لم يشأ أن يحضُرَ درسنا، فليرحل عنَّا غير مأسوفٍ عليه...

سرَتْ همهماتٌ بين الطلاَّب وبدأت ترتفعُ شيئاً فشيئاً حتَّى أصبحتْ أزيزاً وضجيجاً عالياً.

كانت ثورة الطلاب التي عبَّروا عنها بهذه الأصوات شيئاً لم يألفْهُ الشيخ الجوسقي في حياته كلِّها، فنهضَ وقد اصطبغَ وجههُ بلون الدم، وقال مُغْضَباً: لا درسَ لكم عندي.

ابتعد خطواتٍ قليلةً، وتوقَّف كعادته ينتظرُ تلميذَه الذي يصطحبه كلَّ يومٍ إلى دارِهِ دون جدوى.

لم يقبل التلميذُ على الفور، وخيِّل للشيخِ أنه مع غيرِهِ من التلاميذ في الثورة عليه، فمضى يشقُّ طريقَهُ غير آبهٍ لشيء.

كانت الأصوات تتردَّد هنا وهناك تقطعُ عليه سبيلَهُ، صوت يردِّد:

– **«وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ به عَدُوَّ الله وعدُوَّكُم»...**

وآخر يقول بصوت عالٍ وقد اتَّقدت جذوةُ الحماسةِ في صدره:

– **«فَمَن اعْتَدَى علَيْكُم فاعتدوا عليه بِمِثْلِ ما اعْتَدى عليْكُم واتقُوا الله واعلمُوا أنَّ الله مع المُتَّقين».** وصوتٌ يأتي من بعيدٍ كأنَّهُ يخاطبُ أرواحَ الناس

ويتَّجِه إلى قلوبهم يُردِّدُ في خشوعٍ واطمئنان:

– **«ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سبيل الله أمواتاً بل أحْياءٌ عند ربِّهم يُرزقون».**

كانت هذه الأصواتُ تهزُّ قلوب الناس وأجسامهم عندما توقَّف الشيخ الجوسقي عند بابِ الجامع، وقد سمع وقعَ أقدامٍ تقتربُ منه، ومن يقول له: سيدي الشيخ، هل تأذنُ لي بأن أصحبكَ إلى حيثُ تريد؟

قال الشيخ: من أنت؟

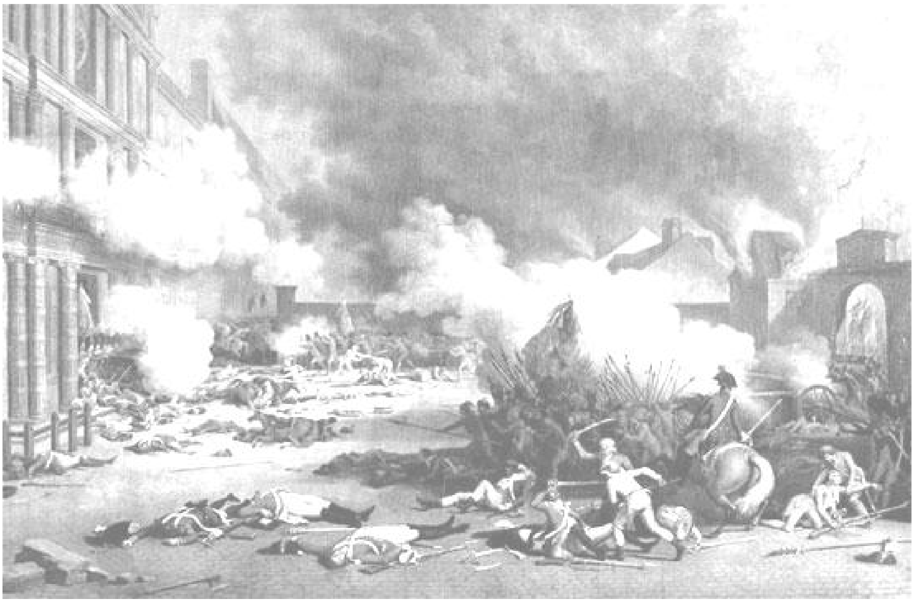
قال: أنا سليمانُ بنُ محمَّد أمين...

ومدَّ ذراعه إليه، فالتفَّت بها يدُ الشيخ، ومضى صامتاً، وقد رفع رأسه إلى أعلى كأنه يتحدَّى الناس جميعاً. بلغ به سيلمان بيته، وحين سلَّمَ عليه مودِّعاً قال الشيخ:

– لقد نقموا عليَّ لأنِّي لا أريد أن أدع العلم وأتحدَّث في شيء غيره. إنَّني لن أغادر داري، حتى يعلموا أن العلم أولى من أيِّ شيء. إلى اللقاء يا ولدي.

مدَّ سليمان يده ليصافح الشيخ ثمَّ مضى عائداً.

* * *



-١٠-

الغدّارة والسيف

مضت أيامٌ قليلة، وسليمان في القاهرة، يقضي شطراً من نهاره بين حلقات الأزهر، مودِّعاً رفاقه وأساتذته، ويقضي الشطر الأكبر من وقته مع إبراهيم في المتجر.

خفَّتْ حدَّةُ الحديث عن الحرب والقتال، بعد أن انقطعت الأنباء بعد رحيل مُراد وفرسانه لملاقاة الفرنسيين. كانت ثقة الناس بهؤلاء الفرسان الذين نفروا للحرب ونذروا حياتهم لها، ثقةً كبيرة، وقد دعَّم هذه الثقة أنهم لم يشهدوا في حياتهم أو حياة أسلافهم حرباً، ولم يسمعوا أن جيشاً أجنبياً استطاع على مدى العصور أن يغزو هذه البلاد، ويستقرَّ على أرضها.

كانت المواجهةُ في حربٍ بين سلاح متطور تسوده الأسلحة النارية المتطورة، في حين كان السيف هو السلاح الرئيس بيد المماليك؛ وفي تلك الأيام التي أعقبت النفرة لمواجهة الفرنسيين، ما انفكَّ شعراء الربابة في الأندية، والمدَّاحون في الشوارع والحارات كانوا يتغنَّون بقصص الأبطال التاريخيين مستحضرين قصة السلطان قطز، الذي هزم التتار في معركة (عين جالوت)، وقصة الظاهر بيبرس الذي ردَّ التتار وهزم الروم، وأسر ملوك الفرنجة، فيبثُّون في قلوب الناس الثقة والطمأنينة، ويثيرون في نفوسهم ألواناً من القوة والحماسة.

مضى أسبوعٌ والقاهرة لا تتلقى أخباراً عن المواجهات، فبدأت الحياة تعود

إلى سيرها الطبيعي، وذهب طلاَّب الشيخ الجوسقيّ إلى بيته يعتذرون إليه عمَّا بَدَرَ منهم، ويدعونه للعودة إلى حلقته ودرسه.

وانصرف الشعراء في الأندية إلى قصص أخرى غير قصة الظاهر بيبرس...

كان سليمان وإبراهيم يجلسان في أحد الأندية المطلَّة على بركة الأزبكية، يستمعان إلى الشاعر يحرك ربابته، ويرسل غناءه ليروي قصةً جديدة. جاءهما صوته مردِّداً في لحنٍ حزينٍ قصةَ (عزيزة) التي جاءها عرب الشرق والغرب يخطبونها، فأبى أبوها أن يزوجها، إلا للرجل الذي يريد، ويحكي قصة البطل (يونس) الذي شُغِفَتْ به، في حين شغله القتال عن هواها، ووهب قلبه وحياته لإنقاذِ خالهِ أبي زيد وأخويه مرعي ويحيى. حرَّكت هذه القصَّة في نفس سليمان هوىً أراد أن يدفنه، ويهيل عليه التراب، فنهض قبل أن يختم الشاعر قصته، ويجمع بخياله شمل القلوب التي فرَّقت بينها الأهواء، ويعقد غار النصر على هامات الأبطال، وحين آوى إلى فراشه، ظلَّ ساعاتٍ قلقاً لا يستقر، ولم يدرِ متى أدركه النوم، حتى سمع طرقات على الباب فنهض والطرق يزداد سرعةً وعنفاً ليرى من الطارق. فتح الباب فطالعه وجهٌ لم يتوقَّع رؤيته...

رأى على ضوء القنديل (عبدالله كاشف) أمامه وخلفه أربعةٌ من أتباعه، بجوارهم جيادهم، تقف بجانب الباب.

قال عبدالله كاشف: أين الحاج مصطفى؟

– إنَّه نائم. ردَّ سليمان عليه.

– فقال عبدالله لرجاله: ادخلوا.

دخل ثلاثةٌ منهم إلى البيت، وبقي الرابع واقفاً مع الجياد، ثم وجَّه حديثه

إلى سليمان وقال:

- اذهب وادعه إلي.

قال سليمان في دهشة: هل أوقظه في مثل هذا الوقت!؟... ماذا تريدون منه؟

فقال عبدالله كاشف: لا شأن لك. قل له: إن عبدالله بك كاشف ينتظرك. أنا صهره.

والتفت إلى رجاله وقال: اجلسوا حتى يحضر.

تحرَّك الرجال في بطء، كانوا أشبه بقطَّاع الطرق، يتنقلون بحذر، يتأملون الأشياء بنظرات وحشية اختلط فيها التحدِّي بعدم المبالاة، في الوقت الذي مضى فيه سليمان إلى فناء البيت ولم يدرِ ماذا يفعل، وكيف يُقْتَحَمُ البيتُ وأهلهُ نيام، وبينما هو واقفٌ يدير الأمر في عقله، سمع صوت الحاج مصطفى الذي اطلَّ برأسه من نافذةٍ في الطابق الأعلى يسأله بصوت خفيض: من ذا الذي طرق بابنا يا سليمان؟

قال سليمان: إنه عبدالله بك كاشف.

- ماذا يريد!؟

- لا أدري يا عمِّي!... إنَّه يدعوك!

كانت زوج الحاج مصطفى تقف خلفه، فسألت:

- ماذا يريد في هذا الوقت؟

- سأذهب لأرى ماذا يريد.

- انتظر لأوقظ إبراهيم ليذهب معك.

كان إبراهيم قد أقبل إلى حجرة أبيه، إذ استيقظَ على صوتِ الطرقات

العنيفةِ التي هزَّتْ البيتَ منذ لحظات، وقال لأبيه:

- استرح أنت يا أبي، وسأذهب لأرى ماذا يريد الآن.

- بل نذهب معاً يا ولدي.

هبطا إلى الفِناء، حيث وقف سليمان ينتظرهما، وسعوا جميعاً إلى مدخل البيت فرأوا عبدالله كاشف واقفاً يتأمَّل -على ضوء القنديل- آيةً نُقشَتْ على قطعة من الرخام، عُلِّقَتْ على الجدار، وقد جلس رجاله في صمت. حين رأى الحاج مصطفى مقبلاً نحوه، تقدَّم بضع خطوات وصافحه، ثمَّ قال: يا حاج مصطفى يجب أن تستعد للرحيل عن هذا البيت بمالِكَ وأبنائِكَ قبل مطلع الفجر.

قال الحاج مصطفى بدهشة وهو ينظر إلى ولده وإلى سليمان: لماذا أرحل عن بيتي!؟

- إن البكوات المماليك الذين رافقوا مراد بك قد عادوا جميعاً الليلة إلى القاهرة، لينقلوا أموالهم ونساءهم إلى الصعيد، وقد جئت لأعاونك على الرحيل.

- ماذا حدث؟؟ ولماذا نرحل!!؟

- إن الفرنسيس يسرعون إلى القاهرة، وهم يسابقون الوقت وينهبون أموال الناس ويقتلونهم. يجب أن تحمَدَ مجيئي إليك، وسعيي إلى إنقاذك والنجاة بمالك وعيالك.

سادَ القومَ صمتٌ مذهل. وتبادل الحاج مصطفى النظرات مع ولده إبراهيم وسليمان الذي وقف بعيداً بجانب باب حجرته كأنَّه لم يصدِّق ما قاله عبدالله كاشف.

هَزَّ هذا الخبر أعماقهم، فعقد ألسنتهم لحظةً، وأنساهم كلَّ ما يتعلَّق بأنفسهم.

تذكروا وطناً تُنْتَهَكُ حُرْمَةُ أراضيه بأقدام غربية غريبة...

قال إبراهيم: وماذا عن مراد بك وفرسانه؟؟ هل هم بخير؟؟

أجاب عبدالله كاشف، بعد لحظة صمت: لقد التقى مراد بك بالفرنسيس عند شبراخيت ولم يكن الموقف هناك ملائماً، لذلك آثر الانسحاب برجاله ليلقاهم مرَّةً أخرى عند مشارف القاهرة. سيكون السير قد أنهكم، وسيرهقهم قتالُ الفلاحين.

قال إبراهيم، كأنه لا يصدِّقُ ما سمعه: تقول: قتالُ الفلاحين!!...

قال عبدالله: نعم... لم نكن نتصوَّر ذلك... لقد خرجوا من قراهم يقاومون الجيش الزاحف من كلِّ مكان.

سكتَ لحظةً ثمَّ أردف قائلاً: إنهم لن يصيبوا منه مقتلاً بطبيعة الحال، ولكنهم سيرهقونه من غير شك، وعندما يصل الفرنسيس إلى القاهرة سيكون مراد بك في انتظارهم ليجهز عليهم بفرسانة.

سأل الحاج مصطفى بدهشة: لماذا نرحل إذن!؟

ردَّ عبدالله: الحيطة لا تضر. مراد بك نفسه، أرسل من يحمل ماله وزوجه إلى الصعيد.

كان إبراهيم ينظر في البعيد كأنه شغل بأمر. لقد شعر بالفخر والعزَّة يملأان صدره:

- إذن فقد خرجَ الفلاحونَ يقاتلونَ الفرنسيين، بعد انسحابِ مُراد بك وفُرسانِه!

امتعض عبدالله وردَّ بلهجةٍ فيها مزيج من المداهنةِ واللؤم: إنَّ مراد بك انسحب لغايةٍ في نفسه، لم يكشف عنها لأحد. إنه لم ينسحب عن

هزيمة لحقت به.

ثمَّ أنهى جملته بعبارة تزلف خوفاً من العسس: إن مراد بك لا يهزم أبداً. سكت لحظةً وأردف قائلا: يجب ألا نضيِّع وقتنا، وعلى النساء، إن كنتم لا تريدون مفارقة البيت، أن يتهيَّأن للرحيل، إنَّ لي بيتاً في (المِنْيا)، وسوف يرافقهنَّ أتباعي حتى يصلن إليه سالمات. من الخير أن تفكِّر يا حاج في مكانٍ أمين تنقل إليه أموالك وجواهر ونفائس هذا البيت. أرجو أن تنتبه يا حاج، أن بيتك سيكون صيداً ثميناً لو وقعت المدينة – لا قدَّر الله– في أيدي الفرنسيس.

قال إبراهيم حين رأى أباه ينظر إليه: أبي سنبقى هنا في بيتنا. لا نفارقه.

قال عبدالله كاشف: أمجنون أنت؟!؟ أتبقى في مدينةٍ ستدور فيها الحربُ بعد أيام؟

– نعم. سنبقى لندافع عنها ونقاوم كما قاوم الفلاحون وحاربوا من أجل قراهم ووطنهم.

– أتظن أننا سنفرُّ ؟... إنَّنا سنبقى هنا لنقاتل الفرنسيس مع مراد بك، لكن لا نريد أن تتعرض النساء لشرٍّ أو أذىً. أتعرف ماذا صنع الفرنسيس بالقرى التي قاتلهم أهلُها؟ إن عشراتٍ منها قد دمرت وأحرقت عن آخرها.

– ذلك أمرٌ نفخرُ به. إنَّ الفلاحين العُزَّل من السلاح، لم يفرُّوا، بل صمدوا وقاوموا الغزاة.

– لكنك لا تتصوَّر ما يصيب النساء والفتيات.

تدخَّل الحاج مصطفى قائلاً: لماذا لا نهاجر إلى (بشتيل)!

فأجابه عبدالله: إن بشتيل في طريق الجيش الفرنسي وسيمرُّ بها قبل

وصوله إلى القاهرة.

قال إبراهيم: أبي. يجب ألا يغادرَ فردٌ منَّا مكانه. وستبقى نساؤنا حيث هنَّ، لنشعر أنَّ وراءنا شرفاً عزيزاً يدعونا إلى التضحية في سبيله بكل شيء.

قال عبدالله: لقد جئت أعرض عليكم عوني وعون رجالي، ولن يضطركم أحدٌ على قبول أمرٍ لا ترضونه، لكن أقول مع ذلك: إن مدينة تتعرض للحرب لا يؤمن أحدٌ فيها على ماله...

لم يدعه إبراهيم يتمُّ كلامَهُ، فقاطعه قائلاً: لا كان هذا المال، إذا جعلنا الخوف عليه، ندع أرضنا ووطننا نهباً للغاصبين.

فأجاب عبدالله: إنك لم تدعني أتمُّ حديثي يا إبراهيم. إنَّ أحداً لن يؤمن على عرضه أن ينتهك إذا دخل الفرنسيس المدينة.

أصاب القومَ الوجومُ عند سماع تلك الكلمات. وساد الصمت، وبدت أمارات الحيرة والتردِّد والخوف تظهر على وجوههم وفي نظراتهم.

كان سليمان قد لزم الصمت طوال هذا الوقت، وإن ظلَّ يصغي بسمعه وقلبه إلى ما دار فيه من جدل، وتقدَّم خطواتٍ بهدوء، حتى وقف بجانب إبراهيم، وتعلَّقت به الأبصار حين همَّ بالحديث، قال: إن الناس لا يفرُّون لينقذوا شرفهم، وليصونوا أعراضهم، ولكن يقاتلون عن هذا الشرف حتى النهاية؛ ووطننا هو الشرف والعرض، وكلُّ شيء فيه مُضَيَّع مُهْدَر حين تغدو أرضه منتهكة.

شعر عبدالله كاشف، الذي أوشك أن يبلغ هدفه منذ قليل، أن حديث الفتى الهادئ المطمئن قد أتى على كل ما قدَّر ودبَّر، فقال بحدَّة: من أنت؟... لست فرداً من العائلة فيما أعتقد!... بل لست من مصر، كما يبدو لي من عينيك الخضراوين.

ابتسم سليمان في دعة، ونظر إلى الأرض لحظة، ثمَّ رفع بصره وهو يتأمَّل عبدالله كاشف:

– نعم أنت على حق، أنا لست من مصر، ولم أولد على أرضها. لقد ولدت في سوريا. لكن هذا وطني أيضاً. وسيَّان أقمت في القاهرة أو حلب، فإنَّ وطني –كما ترى– فسيح وكبير. ونحن على استعداد دائماً للدفاع عنه حتى الموت، في أي مكان يتعرض فيه الوطن للخطر. وأيَّاً كان هذا الخطر.

قال عبدالله كاشف من دون أن يحاول إخفاء سخريته: لعلَّك طالبُ علمٍ، تجيد التشدُّقَ بالألفاظ...

قال سليمان: ربما.

ومضى بعيداً، وجلس على أريكة بجانب الجدار.

أكمل عبدالله متجاهلاً مفاعيل هذا الحور مع سليمان: ماذا قرَّرت يا حاج مصطفى؟

– قرَّرتُ أن أبقى هنا بمالي ونسائي. إن هذا البيت وهنَّ فيه، يمثل شرفي، وشرف القاهرة.

فوقف سليمان، وقال بسرعة: بل يمثل شرف الوطن الكبير كله ياعمي. الوطن الذي يمتدُّ إلى أبعد مما يتصوره بعض الناس... يمتدُّ إلى أيِّ مكان يتكلم فيه الناس بلسان عربي قويم، حيث يشعر المرء أنَّ قلبه يستطيع أن يلتقي بأسرع من لمح البصر بقلوب الناس، وإلى مكان نشعر فيه أنَّنا أهلٌ وإخوة وأحباب، وإن لم تربطنا وشائج القربى أو روابط الدم... لقد عشت هنا، في بيتكم، ثلاثة أعوام، ولم أشعر أن هناك صلةً أقوى من الصلة التي تربطني بكم.

نظر سليمان إلى عبدالله وأكمل كلامه من غير عناية بمن يوجه له الكلام: إنه وطن واحدٌ فسيحٌ وعظيمٌ لأنه هيَّأ لنا أسبابَ هذا الحب، ولأنَّه يستطيع في كل مكان وزمان أن يجمع القلوب على الودِّ والإخاء، مهما بعدت

بيننا الشقَّة واختلف موضع الميلاد.

قال الحاج مصطفى: هو ذاك يا ولدي!

قال عبدالله كاشف على الفور: إذن فلا أقلَّ من أن تدعني أرحل بزوجتي.

أدار سليمان ظهره لهم وابتعد.

سادَ الصمتُ لحظةً، ونظرَ الحاجُ مصطفى إلى ولَدِهِ، وتابعَ عبدالله كاشف كلامَهُ قائلاً في صوتٍ خفيضٍ امتزجتْ فيه الدعابةُ بالتهديد: لا تدعوني أقاتلُ لكي أنجو بها. إنَّني على استعداد لكي أفعل كلَّ شيء لأحفظ حياتها، وأصون شرفها. ولن يلومني أحدٌ لو بذلت حياتي في سبيل ذلك... إن جواداً أصيلاً ينتظرها في الخارج، ليمضيَ بها، وسيحرسها أتباعٌ أوفياء على استعدادٍ مثلي للموت لكي يحققوا لها الأمن والطمأنينة.

قال إبراهيم: إن أختي...

لم يَدَعْهُ عبدالله كاشف يتمُّ حديثه، فقال: إنَّ أختك تخُصُّني الآن أكثر ممَّا تخصُّكم. إنَّها تمثل أعزَّ ما أملك... الشرف.

قال إبراهيم: إنها لن تخرجَ من بيتِها على هذه الصورةِ في مثل هذا الموقف.

قال عبدالله: أنتظرُ حتَّى الصباح.

فردَّ الحاج مصطفى: نعم. فللنتظر حتى الصباح، ينبغي ألا تخرج هكذا، ولم تهيَّأ بعدُ لهذا الأمر...

قال عبدالله كاشف: كما تشاء. إنَّني أنزل عند إرادتك يا حاج مصطفى.

ونظر إلى رجاله وقال: هلمُّوا بنا يا رجال.

وبينما كان يسعى إلى الخارج، وضع يده على كتف الحاج مصطفى وقال: إنَّنا نخشى أن تكون البيوت الكبيرة نَهباً للفرنسيس... لا تحتفظ في بيتك بشيء غالٍ أو نفيس... إذا خِفتَ على شيء، فمن الخير أن تتركه إلى ابنتك، ليكونَ معها بمأمن. إنَّني أشعرُ بمسؤوليتي إذ أصبحتُ فرداً منكم.

أنهى عبدالله كلامه المقتضب الذي ضمنه مزيجاً من التحذير والتهديد، ومضى خارجاً، وامتطى ورجاله خيولهم، وأسرعوا بها نحو الجيزة.

* * *

-١١-

الجماهير ترفع بيرقها

كما تعوَّدت أن تستفيق كلَّ يوم، استيقظت القاهرةُ بشكل اعتيادي، لم تكن قد قدَّرت بعد حجم الخطر الداهم والمحيق بها. سعى الناس إلى ما ألفوا من شؤون حياتهم وأعمالهم بنشاطٍ وحيوية. فاجأهم مرأى فرسان المماليك وبكواتهم يظهرون في الشوارع، في حين تدور معارك مع الفرنسيين على طول الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة. كانوا قد اختفوا منها في الأيام الماضية عندما رحل بهم مراد بك لملاقاة الجيش الفرنسي بقيادة الجنرال نابليون بونابرته. بعد قليلٍ شوهدت جماعات كبيرة من الناس تقف أمام أبواب المساجد والمتاجر، وعند مفترقات الطرق. لقد بدأت أنباء هزيمة مراد بك ومماليكه تصل إلى المدينة تباعاً، وصارت تتردَّد على الشفاه.

كان نابليون بونابرته جهز حملة كبيرة مؤلفة من ٣٦ ألف جندي على أسطول ضخم ضم ٤٠٠ سفينة، انطلقت من ميناء طولون في ١٩ أيار ١٧٩٨م. وصل الأسطول إلى ميناء **(أبي قير)** غرب الإسكندرية في أول تموز ١٧٩٨. أنزل قواته على عجل موجهاً نداءً إلى الشعب المصري، بأنه جاء للدفاع عن مصر ضد المماليك أعداء مصر وأعداء السلطان العثماني.

استجابت كلُّ جماعةٍ في المدينة لهذه الأخبار بانفعالها الخاص. ادَّعى المماليك وأتباعهم أن مراداً لا يهزم، وأنَّ كلَّ ما حدث أنه آثر اختيار

مكان أكثر ملائمةً له، وألا ينجرَّ إلى ساحتهم، بل سيجرهم إلى ساحته لخوض المعركة الفاصلة، وإنه اختار الضفَّة الغربية من النيل أمام القاهرة ليلاقي الفرنسيين عليها، ويقضي عليهم القضاء المبرم، ويجعلهم عبرةً لمن يعتبر.

أظهر آخرون – أصابهم المماليك بأذىٍ وشرٍّ سابقاً – شماتةً بهم، فراحوا يتحدَّثون عن غرور مراد وأتباعه، وعن جورهم وظلمهم، وما أحدثوه في حياة البلاد من فوضى، فكانت أيامهم كلها سعياً إلى ابتزاز المال بشتى الوسائل؛ بيد أن الكثير من الناس، كان انتابهم شعور غامض، وشعروا وكأنهم استفاقوا من كابوس مزعج، كمثل شخصٍ يعاني من الفزع الذي رآه في حلمه، ولمَّا يستردَّ وعيه بعد، كما أنه مازال في شكٍّ من يقظته وصَحوِه. ألف الناس حياة السلم، حين نأى بهم العثمانيون، ومن بعدهم المماليك عن الجندية، وحالوا بينهم وبين السلاح، واحتكروا لأنفسهم ولأتباعهم، حقَّ الدفاع عن هذه البلاد. وكان عامَّة الناس، يتعرَّضون لظلم قاسٍ، حتى شاع اليأس والاستسلام في النفوس. وبينما كان كثيرون في حالٍ من الاضطراب، حول الموقف الذي سيتخذونه في هذه المرحلة الحرجة، بدأت تظهر قيادةٌ جديدةٌ في أفق البلاد. قيادة مؤمنة لم يلوثها مالٌ أو يستذلُّها جاهٌ أو منصب، تعرف واجبها عن علمٍ وإيمان، وتؤمن بحقها وحقِّ الوطن. كانت تلك القيادة الجديدة هي قيادة أساتذة الأزهر وطلابه، ومنذ صكَّت أنباء الهزيمة آذان الناس وهزَّت قلوبهم، بدأ الناس ببصيرتهم النافذة، ونظرتهم السليمة، يلتفُّون حول أساتذة الأزهر وطلاَّب العلم، يسمعون لهم، ويتحدثون إليهم، واتجهت عواطف الجماهير وأفكارهم اتجاهات جديدة.

الجماهير التي ظلَّت بعيدةً عن معترك الحياة العامَّة وشؤون الحكم، والتي

كانت تتخبَّط بين كراهية الحاكمين، والشماتة بهم، وبين العطف عليهم، والرثاء لحالهم، بدأت تدرك أن عليها تبعاتٍ جسيمة، وأن واجب الجهاد في سبيل الوطن، هو واجب كلِّ فرد، لا تختص به طائفةٌ دون طائفة، فالوطن ملكٌ لكلِّ أبنائه، وميراثٌ مشتركٌ لهم جميعاً.

في غضون الأيام القليلة التي أعقبت وصول المماليك إلى القاهرة، بعد هزيمتهم عند شبراخيت ظلَّت الجماهير تتجمَّع كلَّ يومٍ كأنَّها على موعد في الجامع الأزهر، لتستمع إلى علمائه وطلاَّبه الذين لا شغل لهم إلا التحدُّث عن شرفاء الجهاد وواجب الدفاع عن الوطن.

واظب بعض فرسان المماليك على القدوم باتجاه هذه الجموع، وأخذوا يقفون عند أطرافها وقد بهرهم هذا المنظر واضطربوا له. كان اجتماع الناس على هذا النحو الرائع، والتفافهم حول هذه القيادة المستنيرة الجديدة، حدثاً جديداً وعظيماً، ملأ نفوسَ عامةِ الناس بالعزَّة والفخار. كانوا هم بفطرتهم السليمة، قد اكتشفوا هذه القيادة، والتفوا حولها، فقويت بهم، واعتزُّوا بها.

شعر الناس للمرة الأولى منذ مئات السنين أن رِباطاً قويَّاً بدأ يشدُّهم بعضهم إلى بعض في وحدةٍ مقدَّسة. شعروا أنهم قوة هائلة في ظلال هذه الوحدة العظيمة؛ وأدركوا في الوقت نفسه ضآلة شأن الحاكمين الذين استبدوا بهم في الماضي حين كانوا متفرقين متباعدين.

في اليوم السادس من صفر، رفع الطلاب في صحن الجامع الأزهر علماً أسود كبيراً كُتِبَتْ عليه بعض آيات القرآن. وبدأت جموع الشعب تلتف حولها. وأقبل إليه شيخ الجامع الأزهر وعلماؤه، وقبيل موعد صلاة الظهر، وصل إلى الجامع كلٌّ من السيد عمر مكرم، والسيد محمد السادات، والسيد أحمد

المحروقي، والأصوات تردِّد بإيمانٍ وقوةٍ عظيمين:

- الله أكبر. الله أكبر.

* * *

-١٢-

الجوسقي يعلي راية الجهاد

هناك في ركنٍ بعيد جلس الشيخ الجوسقي يتحدَّث إلى عدد صغيرٍ من طلابه، آثروا حبَّاً منهم لأستاذهم أن يتضامنوا معه في موقفه من ترك أمور الدنيا إلى من شغلهم أمرُ الدنيا، حسبما يقول لهم.

كانت الأصوات تدوِّي وتتردَّدُ في جنبات الجامع الكبير، فتهتزُّ القلوبُ والأجسام. رأى الطلاَّبُ الذين وهبوا العلم كلَّ قلوبهم الشيخ يوسف المصيلحي مقبلاً نحوهم، وهو شيخٌ أحبُّوا فيه روح الدعابة وابتسامته الدائمة التي لم تكن تفارق وجهه المضيء.

دنا الشيخ المصيلحي منهم، ثمَّ جلس بهدوء بجانب الشيخ الجوسقي. شعر به الأخير يجلس، فسأل: من أنت.

ردَّ الشيخ المصيلحي وهو يبتسم معابثاً: يوسف الصِدِّيق.

ضحك الطلاَّب في الوقت الذي قطَّبَ الشيخ الجوسقي جبينه، وزمَّ مابين حاجبيه، وقال: لماذا جئتَ إليّ!؟

- لآخذَ بيدِكَ إلى حيثُ تأخذ مكانَك بين العلماءِ والقادة.

- أترضى لي أن أدعَ العلمَ إلى شيء غيره، وأنت تعلم أنَّني لا أصلح لشيء آخرَ يا مصيلحي!

ثمَّ صمتَ لحظةً وقال بمرارة: ماذا بوسعِ شيخٍ ضرير أن يصنعَ في هذا الجهادِ الذي تدعونَ الناسَ إليه!؟

قال الشيخُ مصيلحي: لا أحد منّا يصلحُ لهذا الأمرِ يا شيخ سليمان، أكثرَ ممَّا تَصْلحُ له أنت.

- إنَّني لا أستطيع أن أقتلَ بعوضةً!...

- ولكن هذا الشعبَ التفَّ حولَنا، ودفعَ بنا إلى الأمام، لنشقَّ لَهُ الطريق. إنَّ إرادة هؤلاء الناس هي التي تدعونا، وهي التي تحدِّدُ لكلٍّ منَّا المكانَ الذي يصلحُ له.

وبينما كانا يتداولان بهذا الحديث، جاءت إليهما نداءات تردِّد:

- نريد الجوسقي... الجوسقي... نريد الجوسقي...

كان الشيخ الجوسقي، من أحبِّ أساتذة الأزهر إلى الطلاَّب. عرفوا فيه الجرأة في الحق. لا تأخذه في الجهر به لومةُ لائم. كان مُخلصاً لعلمه، وفيَّاً له. لم يكن له زوج أو ولد، فينصرف لحظةً من لحظات الليل أو النهار، عن علمه وطلابه، وكانت حلقته تكتظُّ بالطلاَّب، وكان علمه الغزير، وحديثه الطَّيِّع، وصوته العميق الممتد يأخذ بمجامعِ القلوب، وكانت آراؤُهُ تُروى في مجالاتِ المناقشةِ والجدل، فَتَبطلُ أمامَها كلُّ الحجج.

حين شعرَ طلاَّب الأزهر، أن مكانَ أستاذِهم المحبوب قد خلا بين الأساتذة، رفعوا عقيرتهم يدعونه ليتبوَّأ مكانه.

ظلَّ الشيخُ يُصْغي إلى هذه الأصواتِ التي تزخَرُ بالعاطفةِ وهي تردِّد:

- «الجوسقي... الجوسقي... الجوسقي..».

فجاشتْ نفسُهُ بانفعالاتٍ شتَّى، ورأى الشيخ المصيلحي هذا الرجلَ الذي جاوز الخمسين من عُمُرِه، والذي لم تَلِنْ قناتُه لحاكمٍ أو لصاحب سلطان، ولم يتذلَّل من أجل رجاءٍ، أو لغاية.

رأى عينيه اللتين أطبقتا على الظلام، تفيضان بالدموع... ثم رآه ينهضُ وهو يقول: خُذْ بيدي...

سارا معا والهُتَافاتُ تتردَّدُ... وأفسح لهما الطلابُ والناسُ طريقاً حتى بلغا السارية التي رفع عليها العلمُ، وتناول الشيخ المصيلحيُّ كفَّهُ ووضعها على السارية. رفع الشيخ الجوسقيُّ قامتَهُ إلى أعلى، وأشرف بوجهه على الناس كأنه يطلُّع عليهم وينظر إلى وجوههم، وقال بصوت هادئٍ أخَّاذٍ: أيُّها الأخوة، لقد كنتُ دائماً أربأُ بنفسي عن الدعوةِ إلى أمرٍ لا أجدُ في نفسي قدرةً عليه. إنَّ على الذي يدعو الناس إلى سبيلٍ أنْ يشُقَّ أمامهم الطريق، وكنت أراكم تتحدَّثون عن الجهاد والبذل، فأشعرُ بقصوري عن اللحاق بكم، وأنتم لم تعهدُوني مُتَخَلِّفاً في أمرٍ... لقد كنتُ بقدرِ شوقي إلى السَّعي معكم أشعرُ بعجزي عن المُضيِّ معكم، وكنت أشعر في أعماقي بالأسى لأني أراكم تتدافعُون إلى بابٍ من أبوابِ الجنَّةِ ولا أجدُ في نفسي قُدرةً على مُشاركَتكُم فيما أنتم مُقبلون عليه من أمرٍ وخير... والآن وقد سمعتُكُمْ تَحْرِصُونَ على إشراكي فيما ينتظرُكم من شرفٍ وكرامة، أُقول: إنِّي معكم بإذن الله، ولا أقول لكم كما قالت اليهود لموسى: «اذهب أنت وربُّك فقاتلا، إنَّا ها هنا قاعدون». ولكن أقول لكم ما قالت الأنصار لرسول رب العالمين:

– «والله لو استعرضتَّ بنا هذا البحرَ فخضتَّهُ لَخُضْناهُ معك»...

ارتفعت هنا الأصواتُ من كل جانبٍ تردِّد: «الله أكبر... الله أكبر...».

تابع الشيخ كلامه، فَسادَ الصمتُ واشرأبَّتِ الأعناقُ: إنَّكم تعلمون أنْ ليس لي جلادة على الأمر، وقد دعوتُكُمْ إلى هذا الأمر، أنْ أقفَ خلفَ الصفوف، أو أقبعَ في عُقْرِ داري، فهل بينكم فتىً شهمٌ يأخذُ بيدي لأسيرَ في المقدِّمة، فأتلقَّى بصدري ما عسى أن يُصيبَكُم.

تصايح الشُبَّان في سائرِ الجهات: نحن فداء الشيخ... نحن معك يا شيخنا...

وأسرعت يدٌ إلى ذراع الشيخ، وقال صاحبها: سأقِفُ بجانبك وأمضي معك أيُّها الشيخُ إلى حيثُ تأمر، وحيث تريد...

سأله الشيخ: من أنت؟

قال: أنا سليمان بن محمَّد أمين، ألم تحفظ صوتي بعد يا شيخ!

- سمعت بأنَّك تستعدُّ للرحيل إلى بلدِكَ بالشام...؟

- أليست هذه بلدي أيضا؟!

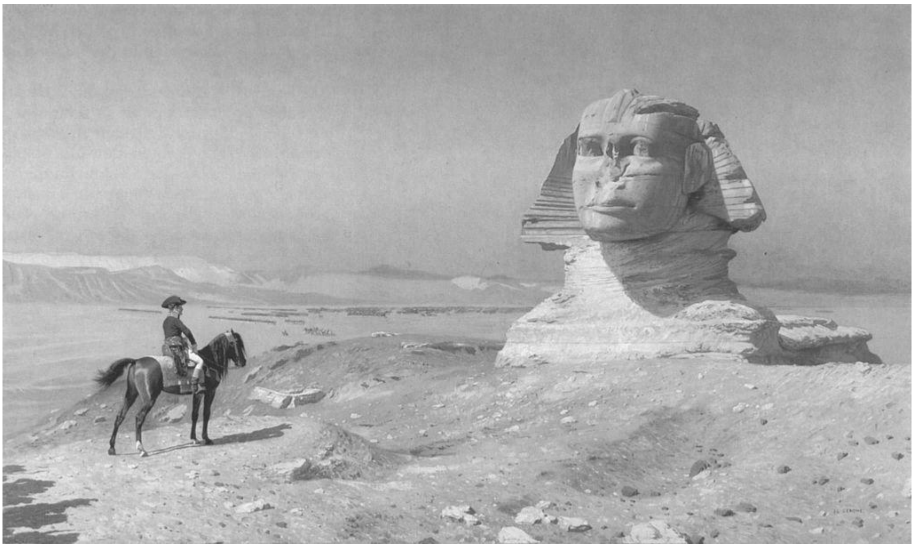
- بلى إنَّها كذلك...

- هل ترى أن أترُكَ مكاناً أرى فيه باباً مفتوحاً من أبوابِ الجنَّة، وأذهب إلى مكانٍ بعيدٍ عنه!؟ هل ترى يا شيخ أن أترك أهلي هنا، وهم في محنة لأنجو بنفسي بعيداً!...

- بارك الله بعلو همتك يا سليمان. أنت فخر شباب الأمة الملتزم بوجدانها. المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، أو كالجسد إذا أصابه شيء تداعت له كافة الأعضاء...

ومنذ تلك اللحظة لم يفارق سُليمان أستاذه الجوسقي.

* * *



-١٣-

العلماء يشقُّون عصا الطاعة

سَرَى في الناسِ ذلكَ اليومَ، شعورٌ جديدٌ ملأهم بالنشوةِ والسعادة. كانوا لا يريدون أن يتفرقوا بعد أن تحسَّسوا جمال اللحظة الخالدة في حياتهم، اللحظة التي تلاقت فيها كلُّ القلوب حيث وقف أصحابُ المذاهبِ معاً في مواجهة ما يتهدَّد الأمّة ومصيرها.

وقف التجَّارُ وأَصحابُ الحِرَف المختلفة صفًّاً واحداً وتناسى الكلُّ الخلافات بينهم، وصنعوا بأيديهم قيادتهم من بين أبناءِ شعبهم العريق، وليس من المماليك أو المحتلين العثمانيين الذين لا سلطة لهم إلا سلطة جباية الأموال من الكادحين.

سمع الناسُ فجأةً صوت دَكَلَةَ وقعِ قوائمِ جوادٍ يعدو من بعيدٍ، وما لبثَ الصوتُ يقترب أكثر فأكثر حتى لاح فارسٌ من المماليك. اتجهت الأبصار إليه من كل مكان.

توقف الفارس بجواده عند باب الأزهر، وبدا الفارسُ كأنَّه يسألُ عن شخصٍ ما.

اتجهت بعض الأصابع القريبة من الفارس تشير إلى المكان الذي وقف فيه السيد عمر مكرم والشيخ عبدالله الشرقاوي وغيرهما من زعماء البلاد، فأسرع

الفارس يشقُّ الصفوفَ نحوهم، ومال إلى أُذُنِ الشيخ الشرقاوي وأسَرَّ إليه بكلماتٍ. اتجه الشيخ الشرقاوي إلى القادة الذين وقفوا بجانبه وقال بصوت مسموع:

– إنَّ مراد بك يدعو العلماء والقادة لمقابلته في بيته...

وسَمع حنفي (الحدَّاد) الذي يمرُّ طلاَّبُ الأزهر بدكَّانه كلَّ صباح أمام الجامع الأزهر الحديث الذي دار بين الفارس والشيخ الشرقاوي، فقال بصوتٍ عالٍ:

– فليأت مراد بك إلى هنا ليقابل العلماء في جامعهم... لماذا يذهبون هم إليه!؟

تعالت الأصوات التي طغى عليها شعورٌ العزَّةِ والكرامة، كما لم يحدث في أيِّ وقتٍ، تردِّدُ:

– نعم فليأتِ إلى هنا ...

قال الشيخ الشرقاوي:

– اطلب منه أن يقبل إلى هنا، فسننتظره جميعاً في الجامع.

نظر الفارسُ إلى الشيخ الشرقاوي والجماهير من حوله، فشعر بالروح الجديدة التي ولدت، وبدا كأنه يريد أن يقول شيئاً، إذ افترَّت شفتاه عن ألفاظٍ غير مسموعةٍ، ولكن نظرات الجماهير التي علقت بوجهه جعلت الألفاظ تموت على شفتيه، ثمَّ لم يلبث أن قال:

– سأخبره. سأخبره.

وقبيل العصر بدأ الناس ينصرفون، بعد أن تواعدوا على اللقاء عند (بولاق) في صباحِ الغد ليعدِّوا عدَّتهم للدفاعِ عن مدينتِهِم.

اتجه بعضُ سكَّانِ القاهرة إلى منازِلِهِم، وسعى آخرون إلى المنتديات المنتشرة على شاطئ بركةِ الأزبكيةِ أو بجوار الأزهر.

كان حديث الليلة الذي تردَّد على كلِّ لسان، هو حديث الجهاد والقوى الجديدة التي انبثقت من صميم الشعب العريق، وتاريخ العزَّة والكرامة التي شقَّها لنفسه بوحدته وتضامنه.

لم يفكروا في الغد، وفي أي شيء يحتمل أن يأتي به، ماداموا قد استردوا ثقتهم بأنفسهم، وفرضوا إرادتهم وساروا وراء قيادة منهم، أدركوا أنه يستوي لديهم – بعد ذلك – أن تدمي الأشواكُ أقدامَهم، أو تحفَّ بهم الورود.

* * *

-١٤-

أبو الهول ونابليون، وجهاً لوجه

بدت الشوارع في اليوم التالي كأنهار في حالة الفيضان، واستقبلت القاهرة يوماً مشهوداً في تاريخها. أُغلقت أبواب المتاجر، وتعطَّلت سائر الأعمال. خرج الناس من منازلهم وتدفَّقوا من كلِّ ناحية، ميمِّمين شطر الجامع الأزهر، وبدت الشوارع التي تصبُّ أمامه كأنها أنهارٌ فاضت بالناس كتدفق موجٍ مُتلاطم.

ارتفعت أصواتٌ تدعو للقتال، وأخرى توكِّلُ أمرَها إلى الله، وفئة ثالثة توكل أمر الدفاع إلى المماليك والعثمانيين. وعلى الرغم من ارتفاع حدَّة الجدل، انتبهت النسوة من خلال المشربيات المطلَّة على الفسحة أمام الجامع، إلى أنَّ صوت الناس بدأ يموج كأنه الزمزمة التي تسبق الصهيل.

قبيل الظهر، سار الناسُ في صفوف متراصَّة صوبَ بولاق بحماسة أزاحت عن كاهلهم أوامر المماليك، ونضت عن قلوبهم أجنحة الخوف.

كان المتأمِّل في حال هؤلاء الناس يشهد أمراً عجباً، لقد خرجوا للحربِ والقتال استجابة للواجبِ، تلك الاستجابةِ التي بهرت عيونَ الحكَّام، في حين لم يكن أكثرهم يحمل سلاحاً يُعتدُّ به في حربٍ تخوضها الجيوشُ.

لقد كان اجتماعُهم والتقاءُ قلوبِهم على هذا الأمر، بعد أن عاشوا قروناً متفرقين متباعدين، يمنحهم الشعورَ بالقوةِ، ويدعُ المرءَ منهم يسيرُ مع الجماعةِ التي منحته هذه القوة، غير مقدِّر ما تطلبه الحرب من عدَّة وسلاحٍ.

فور وصلوهم إلى بولاق، طفقوا يتوزعون على المواقع، ويعدُّون السفن

التي ستنقلهم إلى الشاطئ الغربي لنهر النيل، وظلوا في مواقعهم التي اختاروها، حتى بدأت الشمس تميل نحو الغروب، ثمَّ تختفي مودِّعةً هذا اليوم الخالد.

جاء رسول من مراد أخبرهم أن الجيشَ الفرنسيَ لن يصلَ إلى مشارفِ القاهرةِ قبل يومين، فبدؤوا ينصرفون إلى بيوتهم، على أن يعودوا في الغدِ إلى مواقعهم التي عرفوها، وتركوا وراءهم جماعاتٍ لتتولى الحراسة، ولتكون عيناً تنتظر مَقْدَم العدوِّ لتبلِّغ الناس.

مضت ساعاتٌ بعد انصرافِ أهلِ القاهرةِ والليلُ ساكنٌ هادئ، والقمرُ يرسلُ ضوءَهُ إلى الأرض، ثمَّ هبَّت بعد حين ريحٌ خفيفة، هزَّت الأشجار والنخيل في قلب الوادي.

في هذه الأثناء وصل الجيش الفرنسي إلى خطٍّ يمتد بين قريتي (أم دينار) و(بشتيل)، عند ذلك أصدر (نابليون) أمراً إلى القوَّاد بالتوقف. ثمَّ أصدر أوامره بأن يخلد الجند إلى الهدوء ليأخذوا قسطاً من الراحة بعد العناء الشديد الذي تحملُّوه في زحفهم الطويل من الإسكندرية إلى مشارف القاهرة.

ما إن سمع الجنود أمرَ القائدِ العام، حتَّى انهارت أجسادهم متساقطة إلى الأرض، ثمَّ لم يلبثوا أن استسلموا لنومٍ عميقٍ.

تحت شجرةٍ كبيرة من أشجار الجمَّيز، جلس الجنرال نابليون على مقعدٍ صغيرٍ، ووقف حوله خمسةٌ من كبارِ قُوَّاده يرسمون صورةً للمعركة التي سيخوضون غمارها يوم غدٍ.

أُنهيَ النقاشُ سريعاً بين الضباط، ثمَّ أذن نابليون لقواده بالذهاب إلى وحداتهم، ليأخذوا نصيباً من الراحة أيضاً.

جلس الجنرال بعد ذلك يفكِّرُ. كان في يَقَظةٍ تامَّة، لم يفكر في الراحة أو في النوم، بل فكَّر في كيفية انتزاع النصر. ومع أن نابليون قد خاض معارك

كثيرةَ في أوروبة لم يخُذل في واحدةٍ منها. وعلى الرغم من أن سهول إيطاليا والنمسا شهدت أروع انتصاراته، بدت معركة الغد المرتقبة شيئاً رهيباً في نظره. لقد جاء إلى هذه البلاد وفي عقله أحلامٌ عريضة. أراد أن يقيم مجداً لنفسه في بلادِ المجد، وأن يرفع دعائم دولة كبرى في الشرق، تخضع لفرنسا وتدين بالولاء لها. هو يريد من هذا المكان الوسط، أن يحرك الدنيا ويتحكم في مصير العالم.

وقف الجنرال، وسار بضع خطوات نحو الغرب، فرأى الأهرامات ماثلة أمامه، وتخيل التاريخ قابعاً في ظلالها، ينظر إليه.

تساءل نابليون: هل يستطيع أن يسجل غدا انتصاراً جديداً له، فوق هذه الأرض العريقة، وأن يضيف اسمه إلى سجل الخالدين الذين تردَّدت أسماؤهم في سمائها.

كانت الأهرام بعظمتها التي لا تبارى، وصمودها الرائع تبعث إلى نفسه مشاعر مختلفة، ولم يدر ماذا أحسَّ في أعماقه حين هوى بعنقه الذي اشرأبَّ به منذ لحظةٍ، وأطرق في صمتٍ.

هل شعر أنَّ كل ما حوله عظيمٌ ممتدٌّ إلى غير حدٍّ بحيث لا تبدو عظمته شيئاً مذكورا بالقياس إلى عظمة ما حوله؟

هل شعرَ أنَّ سعةَ المكانِ وامتداد الزمان، على هذه الأرض، يجعلان من العسير غايةَ العُسر على كائن مهما بلغت قوته أن يملأ فراغاً فيهما؟

لم يدرِ أحدٌ ماذا اضطرب في أعماق نابليون حين أطرق إلى الأرض، ثم مضى في خطوات بطيئة على الوادي الأخضر، وعادت به الذكريات إلى الأيام القليلة الماضية، حيث شهد هذا الشعب الذي تصوره يغطُّ في سباتٍ عميقٍ، والذي قيل له: إن الظلم والفقر قد حطما كبرياءه، وإنه لم يحمل سلاحاً منذ قرون، شهد هذا الشعب يخرج إليه بالجلاليب الزرقاء، يقاتله عند كل قرية،

ويقاوم من أجل أرضه شبراً شبراً.

خرج الفلاحون يصدون قواته بعصيِّهم، وإذ أعوزتهم البنادق يرمون جيشه بالطوب، وبالحصى إذا افتقدوا العصا. قاتلوا قتالاً مريراً عند كل قرية، ومن خلف كل شجرة، وكادوا يغرقون أسطوله عند شبراخيت لولا انسحاب مراد بفرسانه الذي أتاح لجيشه الفرصة لمطاردة الألوف من الفلاحين الذين تجمعوا على شاطئ النيل يضربون أسطوله فيغرقون قطعتين منه.

إنه لم يفقد جندياً واحداً عند الحرب مع مراد عند شبراخيت، ولكنه فقد المئات عند مشارف دمنهور في معركة مع أهلها.

عاد نابليون إلى مقعده الذي تركه منذ لحظات، فانحطَّ عليه وألقى برأسه إلى الخلف مستنداً إلى جذع شجرة ضخمة، وأغمض عينيه لحظة، وعاد يفكر ويقدِّر ويتحدث بصمتٍ إلى خواطره... سوف ينتصر على المماليك، ما في ذلك ريب، لكن ما السبيل إلى حكم هذا الشعب والوصول إلى قلبه. لقد بدا له شعباً عنيداً. وظلَّت المشكلة تلحُّ عليه وتؤرِّقُه، ثمَّ لم يلبث أن نهض ثانيةً وراح يذرع المكان جيئة وذهاباً في خطوات سريعة. وشعر أن الأمور تتكشَّف أمامه فرفع بصره نحو الشرق، فرأى طلائع الفجر تبدو عند نهاية الأفق، وقد بدأت السماء تشرقُ بنورٍ ضعيف واهنٍ، رأت من خلاله المآذن العالية تقف في السماء بكبرياء، كأنها تتحداه، وصاح بصوتٍ بدا كالصراخِ: أستاذ فانتور. أستاذ فانتور.

أسرع أقرب حراسه إليه يدعو له الأستاذ فانتور، فأقبل على مهل رجلٌ قصيرُ القامةِ، أبيض شعر الرأس، يميل جسمه إلى البدانة. وصل إلى المكان الذي وقف فيه القائد العام. حيَّاهُ، ووقف صامتاً، ينتظر أن يبدأ نابليون الكلام

ليخبره عن الأمر الذي استدعاه بشأنه، لكن نابليون ظلَّ مطرقاً إلى الأرض، كأنه نسي السبب الذي جعله ينادي العالِمْ الذي قضى أربعين عاماً في هذا الشرق، واتخذه مستشاراً له في أموره، ثمَّ رفع نابليون رأسه وقال وهو يشير بإصبعه نحو المآذن: انظر ...

وضحك ضحكة قصيرة. قال الأستاذ فانتور: إن في القاهرة ألف مئذنة من هذه المآذن.

قال نابليون، وهو يدوِّر بذراعه من الشمال إلى اليمين: غداً ستكون كلها في قبضة يدي.

ونقل نابليون بصره من المآذن إلى الأهرام بسرعة، وبدت على ملامح وجهه وفي نظراته فرحةٌ كفرحةِ الأطفال فقال: هذا رائع... هذه أرضٌ بكر خُلِقَتْ ليبذر مثلي فيها بذور مده، فردَّد لسانه: إنَّ مجدي الذي سينمو فوق هذه الأرض لن يسمو عليه أيُّ مجد. هنا قلبُ العالم، وفي وسعِ من يقبض على القلب أن يحرِّك الدنيا بأسرها. سوف أنتصر، وسوف يكون انتصاري شيئاً رائعاً.

ثمَّ نظر نابليون إلى الأستاذ فانتور وأردف قائلاً: أتشُك في أنَّني سأنتصر غداً انتصاراً حاسماً يفتحُ أبوابَ المجد.

– لستُ أشكُّ في انتصارِكَ على أيِّ جيش.

قال نابليون وقد أدرك بذكائه أنَّ الأستاذَ العالِمَ وضع هذا الكلامَ مقدِّمةً لكلامٍ آخر:

– وبعد؟.

– سوفَ تواجِهُ بعد النصر ورثةَ حضارتين من أعرقِ الحضارات التي بهرتِ العالمَ، وأثَّرتْ فيه، حضارة الفراعنة، وحضارة العرب.

قال نابليون وهو يضرب جبهتَهُ بكفِّه: تذكَّرت هذه هي المشكلة التي دعوتك لأجلها.

عاد الأستاذ فانتور يتابع حديثه: سوف تشهدُ شعباً عجيباً يحبُّ الحياة، ويعمل بدأبٍ وجلَدٍ عظيمين من أجلها. إنَّ الحياة قد نمت واستمرت وازدهرت على هذه الأرض، كما لم تنمُ وتزدهر في أيِّ مكان، لذلك ترى كلَّ فردٍ من هذا الشعب مهما صَغُرَ شأنه يشعر بالأصالة والكبرياء، ولا يعترف بسمو شعبٍ أو جنس بأنه يتفوَّقُ عليه. لم يستطع الفرس ولا الرومان ولا الإغريق أن يبدِّلوا من أسلوب حياته وعاداته وتقاليده عندما أتيحت لهم فرصةُ الظفر عليه.

كان نابليون يصغي إلى العالِم الفرنسي، ويهزُّ رأسَه ويقول كتلميذٍ صغيرٍ بين لحظة وأخرى: نعم ... نعم ...

وتابع الأستاذ فانتور حديثه فقال: لأنَّه ظلَّ يعتقد أنَّ التراثَ الإنساني الذي انتهى إليه، هو خيرُ تراثٍ يعتزُّ به إنسان، وعندما خرج الفرس والإغريق والرومان من هذه البلاد، بعد أن أحاطهم شعبها بسياج من الكراهية، واعتزلهم بكبرياء، لم يتركوا في حياة الناس أثراً يمكن أن يدلَّ عليهم، وإن كانوا قد تأثَّروا بأسلوب حياة هذا الشعب وحضارته عندما عادوا إلى بلادهم.

سكت الأستاذ فانتور لحظةً، ونظراتُ نابليون معلَّقة بوجهه، ثم أردف يقول:

- إنك لتعجبُ بعد ذلك، حين تعلم، أنَّ هذا الشعب الذي رفض حضارة الفُرس والإغريق والرومان، والتي كانت في أوجِ عظمتها، وفي قمة التطوِّر الحضاري، قد أفسح صدره في ترحاب كبير، وفتح قلبه على مصراعيه في فرحة عارمة لاستقبال العرب الذين خرجوا من قلب الصحراء بدينٍ جديدٍ وبحضارةٍ وليدةٍ، وحدثت المعجزةُ التي حيَّرتْ علماء الأجناس والمؤرخين حين رأوا هذا

الشعب الذي اعتزل الشعوبَ التي غزت أرضه في الماضي، واحتفظ بأصالته وأكَّد ذاته وصانها من كلِّ عبث خلال قرونٍ طويلة، قد ارتضى مختاراً أن يمتزج ويذوب في الجنس العربي، فتكلَّم لغته، وجعل أسلوبه في الحياة والعيش أسلوبه، واحتضن حضارته الوليدة، حتى أصبحت حضارته... ثمَّ دافع عنها بعد ذلك على مدى العصور والأيام.

قال نابليون بدهشة: وكيف تفسِّر ذلك يا أستاذ فانتور!؟

قال فانتور بعد لحظةِ صمت: إنَّه يصعب على المرء أن يلتمسَ تعليلاً لهذا التحوّل الغريب في حياة شعب هذه البلاد. إلا إذا ارتضينا الرأيَ الذي يقول به علماءُ الأجناس: إنَّ جميع شعوب هذه المنطقة من العالم ترجع إلى أصلٍ واحد يجعلها تتآلف بعضها مع بعض بأسرع ممَّا تتآلف غيرها من الشعوب؛ فإذا قلَّبتَ التاريخ بعد قيام الدولة العربية، فلن تجد شعوباً عاشت في وحدة متصلة شاملة، كما عاشت شعوب هذه المنطقة التي شغلت حيِّزاً كبيراً من مُصَوَّرِ العالَم.

اقترب نابليون من الأستاذ فانتور، وربَّت بيده على كتفه وقال: لقد كنتُ على صوابٍ عندما وجَّهتُ الحكومةَ الفرنسية إلى غزوِ هذه البلاد. إنَّ فرنسا ستملك هذا الحيِّزَ الكبير من مُصَوَّرِ العالَم.

ثمَّ سكت لحظة وقال: أستاذ فانتور. إنَّ قائداً مثلي، وقف أمامه إمبراطور النمسا، وأمراء إيطاليا في خشوع ومذلَّة لن يجدَ غضاضةً إذا تملَّق شعباً كهذا الشعب الذي حدَّثتني عنه. اكتب نداءً جديداً إليه، على لساني وَبُثَّهُ كلَّ ما ذكرت من أمجاده وعظمته، وقل له: إنَّني لم آتِ لاستعباده أو للقضاء على حضارته، وعلى تقاليده، ولكن جئتُ لأطرد المماليك والعثمانيين الدخلاء على

هذا الشعبِ العريق.

قال الأستاذ فانتور وهو يحني رأسه للقائد الشاب: سأفعل يا سيدي القائد.

ومضى إلى حيث يعدُّ نداءَ القائدِ العام، إلى شعبِ هذه البلاد.

بعد لحظاتٍ ضمَّ نابليون سترته الطويلة وزرَّرها في عجلةٍ، واعتدل في وقفته، ثمَّ أصدرَ أمره في إعلان النفير، فبدأ جنود الجيش ينهضون ويتجمعون في صفوف متراصَّة تنتظرُ أمره بالسير إلى القاهرة.

اجتمع قادةُ الجيش حول الجنرال مرَّةً أخرى حين كانت الشمس تطلع على الوادي من ناحية الشرق وترسل أشعَّتها إليه. كانت قمم الأهرام تفيض ضياءً لأنها أوَّل من تلقىَّ ضوء الشمس، فبدت وسط المناظر التي غرقت في الضباب، كمشاعل من النور تتحدَّى كلَّ ما حولها من قوى الظلام.

كان قادة نابليون وجنوده وقوفاً يتأملون الأهرام التي تقف على حدود هذا الوادي الأخضر كحارسٍ قويِّ المِراس، والضباب ينحسر شيئاً فشيئاً، والنور ينحدر على سفوح الأهرام متئداً بثقةٍ ليغمر كلَّ شيء حوله.

أُخذ الفرنسيون بجلالِ المشهد وروعته، فتقدَّم نابليون خطوتين في اتجاه الأهرام واستدار على عقبيه ليواجه الأهرام والضباط والجنود في وقتٍ واحد، ثمَّ رفع يده مشيراً إلى الأهرام، وقال بلهجةٍ خطابية، وصوتٍ حاول أن يبثَّهُ كلَّ ما تمتلئُ به نفسه من حماسٍ وقوَّة:

– أيُّها الجنود والضباط، سيروا إلى الأمام، واعلموا أنَّ أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام.

بدأتِ القواتُ تتحرَّكُ ببطءٍ باتجاهِ الضفَّةِ الغربيةِ لنهرِ النيلِ مقابل القاهرة.

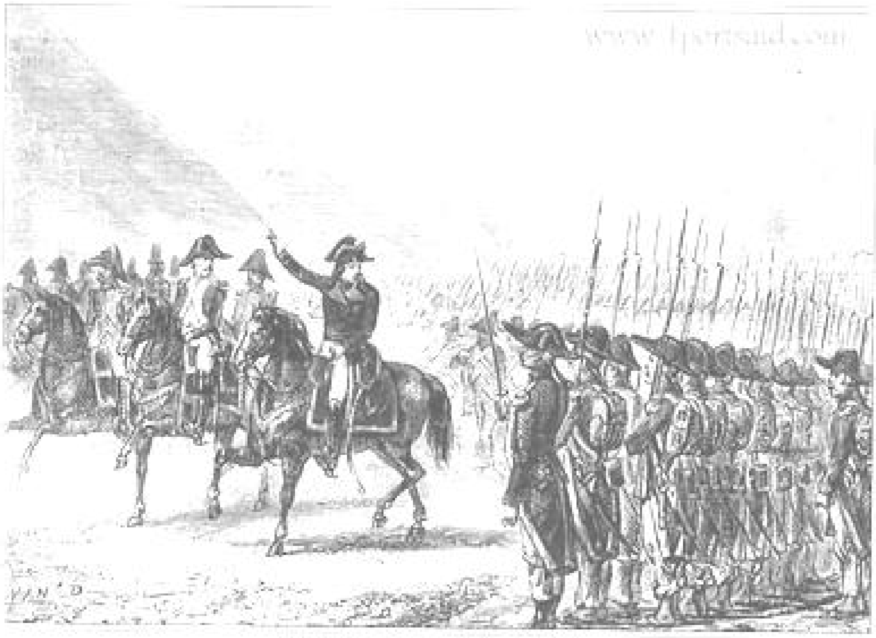
فجأةً، رُوِّعَ نابليون والمقربون منه عندما سمعوا صوت طائرٍ يضرب

بجناحيه أغصان شجرة الجمَّيز بعنفٍ وقوةٍ، ثمَّ يحلِّقُ عالياً، ويدور حول المكان وهو يصدرُ أصواتاً غريبةً، ويضرب بجناحيه بسرعة، ثمَّ يهوي من بين مخالبه ثعبانٌ أُثْخِنَ بالجراح، استقرَّ أمام نابليون على الأرض، فأسرع بعض الضباط ببنادقهم يريدون قتله، فصاح نابليون بهم:

- دعوه... لا تقتلوه.

ابتعد الضبَّاطُ، ومضى الثعبانُ وجراحُهُ تنزفُ الدماءَ حتَّى اختفى بينَ الأعشابِ الطويلةِ التي تحفُّ بالطريق، ولا يدري أحدٌ ما دارَ في خلدِ نابليون في تلك اللحظة، بعد أن رأى هذا الثعبان يسقطُ أمامَهُ. مضى الجيشُ قُدُماً إلى الأمام، ونابليون يسيرُ ببطءٍ وقد ارتسمَ على وجهِهِ الوجومُ والكآبة.

* * *



Napoléon aux Pyramides en 1798

- ١٥ -

العين والمخرز

عينا نابليون، جافاها النوم في تلك الليلة التي سبقت معركة إمبابة. انتابه مزيج من الشعور بالقلق، وبأن التاريخ النابليوني سيبدأ مع أوّل المواجهات مع عاصمة الخلافة الفاطمية (القاهرة) التي لم تُقهر من قبل، والتي كانت سفن الإفرنج لا تستطيع التحرُّك بين مرفأ مدينة أوروبية، وميناء مدينة أوروبية أخرى من دون إذن القاهرة – الفاطمية، لكن علماء الحملة الفرنسية الذين درسوا أوضاع مصر جيداً، أكدّوا له أن القاهرة اليوم هي غير القاهرة الفاطمية التي دوّخت الممالك والجيوش، وهزَّت عروش العالم في العصر الوسيط.

وفي حين كان القائد الفرنسي الذي اجتاح أوروبة بانتصارات مجلِّية يرزح تحت كاهل اجتراح نصرٍ جديد، جعل البكوات المماليك القاهرةَ مسرحاً لأحداثٍ غريبة لا تتسق وتطورات الأحداث، فقد انشغلَ أكثرهم بنقل ما تحويه قصورهم من أموالٍ وتحف ونفائس إلى خارج المدينة، وعَلِمَ العلماءُ والقادةُ عند الفجر، أنَّ خلافاً نَشِبَ بين الحاكمين الكبيرين للبلاد إبراهيم ومراد، فبعثوا بطلبهما للحضور إلى الأزهر، وأمضى الشيوخ والزعماء شطراً كبيراً من الليل يحاولون التوفيق بينهما حفاظاً على وحدة الجيش الذي سيتولّى الدفاع عن المدينة.

شهدت حجرة الشيخ الشرقاوي في تلك الليلة، أغرب خلافٍ بين هذين الحاكمين، والبلاد مهدَّدةٌ بأعظم خطرٍ شهدته في تاريخها.

قال مراد: إن جنودي لن يحاربوا جنباً إلى جنب، مع جنود إبراهيم بك.

إنه يستطيع أن يختار لجنوده، موقعاً بعيداً عن جنودي.

فقال السيد عمر مكرم: يجب أن تكون للجيش قيادة واحدة.

فقال مراد: لن أسمح لجنودي أن يطيعوا أمراً لم أصدره أنا.

فقال إبراهيم: أتظنُّ أنَّ أتباعي دون أتباعك ولاءً لسيِّدهم؟! إنهم لن يلتفتوا إلى أمرٍ من أحدٍ غيري.

وقال الشيخ الشرقاوي: ادفنوا الأحقاد لتكونوا يداً واحدةً لإنقاذ البلاد، ودفع الخطر عنها.

فردَّ مراد: أنا وحدي أحمل مسؤولية إنقاذ البلد.

علَّقَ إبراهيم بسخرية: لقد حملتَ هذه المسؤولية عند شبراخيت، وكانت النتيجة ما نرى الآن ما يتهدَّد حاضرة البلاد لأوَّل مرةٍ في تاريخها، من هذا الجيش الأجنبي.

قال مراد: أنت آخر من يتحدَّث عن النتائج، لقد حكمتَ هذه البلاد عشرين سنةً، فانظر نتيجة حكمك!... أترى أمامك قلعةً واحدة تستطيع أن تدافع منها عن البلاد؟! أترى فيها مدفعاً واحداً يصلح لردِّ المغيرين؟! هل رمَّمْتَ الأسوار التي تهدَّمتْ؟! وأخيراً وليس آخراً، كم عدد أتباعك الذين جمعتهم للحرب؟

قال إبراهيم: إنَّ ورائي ألفاً وخمسمئة فارس.

ضحك مراد بسخرية وقال: أتظنُّ أنَّ ألفاً وخمسمئة يستطيعون الدفاع عن بلادٍ كهذه البلاد طولاً وعرضاً، وتحمُّل مسؤولية الدفاع عن الشام والحرمين الشريفين!؟

والتفت إلى الحضور متابعاً: أيُّها السادة لا تضيِّعوا وقتكم في هذه

الأمور. إنِّي لن أتعاون مع إبراهيم بك مهما كانت الأسباب والنتائج، ولو أصبح النصر مُعَلَّقاً بسيوف أتباعه، ما أردتُ هذا النصر، ولَفَضَّلْتُ عليه الفِرار والهزيمة.

قال إبراهيم: إنِّي أعرف ما ترمي إليه. إنك تريد أن تتفرَّد بحكم البلاد، وتنسب لنفسك فخرَ إنقاذها، لكنِّي سأكون لك بالمرصاد.

نهض مراد واقفاً وقال لأتباعه: هلمُّوا بنا...

ونظر إلى إبراهيم وقال: سأرى ماذا بوسعك أن تفعل.

ثمَّ خرج ومن ورائه أتباعه، وتبعه بعد قليل بأتباعه.

جلس مشايخ الأزهر وقادة البلاد ورؤساء الطوائف في ذهولٍ ممَّا سمعوا ورأوا من شأن هذين الرجلين. أدركوا أن القوات – التي تملك وحدها القدرة على القتال وتملك عُدَّة الحرب – قد انقسمت على نفسها في أحرج وقت، وبدا أنَّ كلَّ فريقٍ يبيِّتُ الغدرَ للفريق الآخر، على حساب مصلحة البلاد ومستقبلها.

ساد الصمت لحظاتٍ إلى أن قال السيد عمر مكرم: لم يعد بوسعنا أن نعتمد على هؤلاء القوم في الدفاع عن بلادنا، إنَّ على أهل البلاد، أن يهبُّوا للدفاع عن وطنهم.

قال الشيخ الشرقاوي: ماذا يستطيع شعبٌ أعزل أن يصنع أمام هذه الجيوش الزاحفة عليه كالجراد. أخشى أن تُسْفَكَ الدماء بلا طائل.

قال عمر: إنَّ الدماء التي تُسفك في الدفاع عن الوطن لا يمكن أن تذهب هدراً.

قال الشرقاوي: من الخير أن نبعث إلى هذا الجيش من يكشف نواياه، ويعرف طريقه.

فقال الشيخ الجوسقي الذي كان يجلس في ركنٍ بعيد، وبجانبه سليمان: أرأيتم شاةً تُسَلِّمَ عنقها للجزار مِنْ دون مقاومة!

ثمَّ مدَّ ذراعه إلى سليمان وقال: هيَّا بنا يا سليمان.

وحين كان هذا الكلام يدور في حجرة شيخ الجامع الأزهر، كان الشعب بفطرته السليمة، وما يكمن في أعماقه من عزَّةٍ وكبرياء، قد عرَفَ طريقه، وسار فيه، إذ احتشد عشراتُ الآلاف بعد صلاة الفجر على شاطئِ النيل، أمام بولاق، وجمعوا كلَّ ما استطاعوا جمعه من سلاح، ومن لم يجد سلاحاً، حمل عصا في يده، ومن لم يجد أي سلاح، خرج يشارك بروحه في الدفاع عن الوطن.

كان من ينظر إلى هذه الكتل المتراصَّة يُخَيَّلُ إليه أنَّ القاهرة قد خرجت عن بِكْرَةِ أبيها، وشاركت بعضُ النسوة الرجالَ في سعيهم إلى الجهاد، فخرجن ووقفن خلف الصفوف.

بدأت زعامات جديدة تبرز بين الجماهير من صميم الشعب، كان مفاجئاً أن يبدو الشعب صلب العود، إلى هذه الدرجة، في مواجهة هذه الشدائد.

وبينما كان الحاج مصطفى البشتيلي يمشي مع ولده إبراهيم بين الجماهير، سمع حنفي الحدَّاد الذي طبعت آثارُ عمله علاماتٍ على وجهه، يتكلَّمُ بغيظ، والدموع تكاد تطفر من عينيه:

– يا لهم من أوغادٍ، لم يرتضوا الثمن الذي قدَّمته إليهم.

قال آخر: ما العمل، إنَّ الرجال يطلبون سلاحاً.

قال الحداد: إنَّهم يريدون ثمناً للبندقية الواحدة، عشرين ريالاً. إنَّهم لصوص. كانوا يبيعونها حتى الأمس بريالين!

سمع الحاج مصطفى الحديث، ورأى انفعال الغضب والغيظ، يسري على وجوه الجماهير.

نظر إلى الرجال والشبان والصبية المتحفزين الذين تضطرب نفوسهم، وتهتزُّ نبرات أصواتهم، وعلى وجوههم عزمٌ، وفي نفوسهم تصميمٌ. تقدَّم إلى

الحدَّاد وقال:

- من أي مكان تطلبون البنادق؟

قال الحداد: من المماليك والعثمانيين.

قال الحاج: أعطوهم ما يريدون من مال.

فقال وهو ينظر إلى الحاج مصطفى بدهشة: إنَّ ما جمعناه لا يكفي لشراء عشر بنادق.

قال الحاج مصطفى: سأقدِّم لكم كلَّ ما تريدون من مال.

نادي ولده إبراهيم قال له: اذهب معهم يا إبراهيم، واحمل معك من المال ما يكفي لشراء كلِّ ما يعرض المماليك والعثمانيون من بنادق، ولا تقبض يدك، ولو أتيت على كل مالنا.

هلَّلَ الناسُ وفاض البِشْرُ على وجوههم، وصاح حنفي الحدَّاد: اللهُ أكبر. اللهُ أكبر...

ثمَّ أردف: لديهم بارودٌ يكفي لنسف المدينة.

قال الحاج مصطفى: اشتروا كلَّ شيء منهم ماداموا يبيعونه. إنَّ مالي كله رهن إشارتكم.

تصايح الناس من كلِّ جانب: اللهُ أكبر. الله أكبر.

ومضى الحدَّادُ في المقدِّمة، وبجانبه إبراهيم، ومن خلفهما جماهير كثيرة ليشتروا السلاح، ويحملوه إلى الشعب الذي لم يرد له حكَّامُه الدخلاء أن يحمل السلاح منذ مئات السنين. هؤلاء الحكام الذين يسعون اليوم لبيع السلاح، والفرار بحياتهم من وجه العدو الذي جاء يغزو البلاد، تاركين مصير مصر نهباً للمعتدين.

مضى بعضُ الوقت، حتى أقبل رجالٌ يحملون البنادق في أيديهم، ويرفعونها إلى أعلى ملوحين بها في فرح وسعادة، ويحمل آخرون على أكتافهم

أكياساً مليئةَ بالبارود والذخيرة، فامتلأت قلوب الناس ثقة بالنصر وبأنفسهم.

لم تهدأ بولاق منذ صلَّى الناسُ الفجرَ، وفتح الحاج مصطفى البشتيلي باب بيته على مصراعيه للناس يضعون فيه ذخيرتهم وأسلحتهم، ويحملون منه الطعام للمدافعين... صار البيت الذي كان بالأمس لأفرادٍ قلائل، بيتاً لكلِّ الناس، وزالت الفروق التي كانت تفصل بين الناس، وكان المرء يأخذ مكانه على قدر حبِّه لوطنه وتفانيه في الدفاع عنه والبذل في سبيله.

تفضح قسمات وجوه الناس مكنونات صدورهم، إذ تعكس فرحةٍ كبرى لأنهم التقوا على أرضٍ واحدة، واتجهوا جميعاً بأبصارهم وقلوبهم إلى أشرف غاية. وقف الحاج مصطفى ينظر إلى الناس، فشعر بسعادة كبرى.

كانوا يسعون إليه يريدون رأيه، ويستشيرونه فيما يعرض لهم من أمور. وفي أحيانٍ كثيرة كان الرجل الطيب يحسُّ بالدموع تملأ عينيه، من فرط ما يجيش في صدره من انفعالات. تذكَّر في موقفه ذاك ابنته وداد التي ساقها منذ يومين إلى بيت عبدالله كاشف، فودَّ لو لم يفعل ذلك.

تمنى لو كانت في بيته الآن تشهد الناس يلتفُّون حوله ويحيطونه بالحبِّ والتقدير.

سمع الحاج مصطفى الناسَ يهلِّلون ويكبرون وقد اتجهت أبصارهم نحو المدينة، فالتفتَ إلى حيث ينظرون فرأى سليمان والشيخ الجوسقيّ قادمين بسرعة، ووراءهما حشدٌ كبيرٌ من طلاَّب الأزهر، كانوا من كل البلاد، ومن كلِّ الأجناس. وعلت الأصوات الساخطة تردِّدُ مرَّةً أخرى:

- اللهُ أكبر... اللهُ أكبر...

وعند مطلع النهار، هبَّتْ ريحٌ خفيفة، ورأى الناس على بُعْد غباراً يزحفُ من الشمال، فدفعته الريح نحوهم، فأدركوا أنَّ الجيش الفرنسي قد اقترب، فمضوا يتدافعون في حماسٍ إلى السُفن، وينطلقون بها إلى الشاطئ الغربي للنيل،

وصياحهم وتكبيرهم يرتفع إلى عنان السماء.

كان هناك خطرٌ داهم يتهدَّدُ هؤلاء الناس. إنهم يزحفون في فورةٍ عاطفية على جيشٍ حديثٍ سطَّرت صفحات كتابه انتصارات كبيرة على أقوى جيوش أوروبة، فحطَّم عروشاً، وهزَّ دعائم إمبراطوريات عريقة؛ فعلام كان فرحُ هؤلاء الناس وهم يستقبلون هذا الخطر ويزحفون عليه!؟!

كان هناك شعورٌ جديدٌ يجيش في صدورهم، شعورٌ مبهمٌ غامض، يمكنُ ردُّهُ إلى تلك الروح الجديدة التي بُعثت فجعلت أفراد الشعب يقفون على أرضٍ واحدة، يشعرون أنها أرضهم جميعاً، وأنَّهم يقبضون بأيديهم الآن على مصيرهم. يستوي لديهم – بعد ذلك – ما تأتي به الأقدار. لا يفكرون على أيِّ وجهٍ ينتهي مصيرهم مادام الأمر بيدهم.

كانت تلك الروح هي التي بُعِثَتْ في أعماق الشعب بعد أن رأوا العثمانيين والمماليك الذين حكموا البلاد خلال قرونٍ طويلة، وقبضوا على مصيرها بيدهم، قد ولَّوا الأدبار، وباعوا السلاح – في نذالةٍ – للشعب الأعزل، والذي حرموه منه.

بعد أن رأى الشعب المماليك من وراء العثمانيين، واستمتعوا بخيراتها حقباً طويلة، يفكِّرون في أموالهم أكثر مما يفكِّرون في مصير هذا البلد الذي آواهم وأسبغ عليهم النعمةَ والجاه.

الآن انتهى مصيرُ الدفاع عن مصر إلى الشعب الأعزل، الذي أحبَّ السلام وانصرف إلى الحياة بكلِّ طاقاته المادية والروحية، والذي بني في ظلال السلام والمحبة أروع حضارة على وجه الأرض.

وفي فرحةٍ عارمةٍ لبعث تلك الروح بدأ أهالي القاهرة يهبطون من المراكب إلى البرِّ الغربي أمام إمبابة، فتجمَّع منهم ما يقرب من عشرة آلاف رجل، وأقبل عليهم القرويون من الجهات المجاورة فانضموا إليهم، ووقفوا

ليردُّوا الجيش الزاحف على بلدهم، وهناك من الناحية الأخرى أمام الجيزة، وقف مراد بك بفرسانه ومماليكه، وتأمَّل الغبار الذي أثاره جيش نابليون في زحفه.

تقدَّم منه عبدالله كاشف وقال: أرى أن نتقدَّم لنقفَ تجاه بولاق، لأنها في رأيي النقطة التي يستطيع الجيش الفرنسي أن يثب منها إلى القاهرة. سنجدُ الأهالي هناك، يحمون ظهورنا، ويعاونوننا في الإجهاز على العدو.

نظر إليه مراد نظرةَ طويلة، ثمَّ هزَّ رأسه كأنَّه يسخرُ من رأيه، ولم يجب بشيء. ثم راح يتفقَّد جنوده.

سارَ نابليون حتى وقفَ بجيشِهِ بعيداً من ناحية الغرب، متاخماً للصحراء، وكشف بمنظاره المكبِّر مواقعَ المدافعين عن المدينة.

كان أهالي القاهرة أمامه إلى اليسار، وراءهم النيل، في حين كان مراد يقف إلى اليمين وخلفه الوادي الضيق المتجه إلى الصعيد.

أدرك نابليون الموقف على حقيقته، ثمَّ أصدرَ أوامرَه إلى جنود المدفعية لضرب مواقع المماليك، وعند الضحى، بدأت الريح الخفيفة التي هبت أوَّل النهار، تشتدُّ وتعنف، فاهتز النخيل في قلب الوادي؛ ومضت لحظات ثمَّ ثارت عاصفة هوجاء من ناحية الصحراء محملة بالرمال والغبار.

كانت مدافع الفرنسيين تقصف باتجاهات مختلفة، غير أنها ركَّزت جُلَّ نيرانها باتجاه المماليك الواقفين أمام الجيزة، واختلط اللهب المنطلق من فوهات المدافع بالغبار، فبدا المشهد وكأنَّ جهنَّم قد فغرت فاهها في بحرٍ من الظلام.

رأى أهل القاهرة والفلاحون الذين وقفوا تجاه إمبابة أنَّ الجيش الفرنسي قد تخطاهم، واتجه بكلِّ قواته صوب الجيزة، ليضرب مُراداً وفرسانه، فسارعوا إلى تعقُّبِهِ والهجومِ عليه.

اتخذ الجيش الفرنسي حيالهم خطَّةَ الدفاع، ليردَّهُم عن مؤخرته.

قبيل العصر، بدأ خط دفاع الفرنسيين أمام القاهريين يتصدَّع وينهار، فهجمت طليعة منهم على مدافع الفرنسيين من الخلف وانتزعوا أربعة مدافع من بين أيدي الجنود. وبدأ الأهالي والفلاحون الذين امتطوا الجياد، يعيدون الكرَّة بالانقضاض على الفرنسيين وانتزاع مدافعهم من بين أيديهم، ثمَّ حوَّلوا المدافع التي كانت تطلق النار عليهم منذ ساعات، لتضرب الفرنسيين.

اهتزَّت مؤخرة الجيش الفرنسي، وولَّى أفرادها الأدبار هاربين. كان الوقت يمضي مسرعاً، وحجب الغبار الذي أثارته (الرياح) و(المدافع) و(الخيول) الرؤية أمام الناس، فلم يتبيَّنوا أين هم من المكان والزمان.

كان الناس في نشوة من النصر الذي أحرزوه على مؤخرة الجيش التي بدأت تتقهقرُ أمامهم، فاندفعوا يتعقَّبونها وهم يكبِّرون ويهلِّلون.

كان إبراهيم بك الوالي العثماني يقف بفرسانه على البرِّ الشرقي، وحين رأى تقدُّمَ أهالي القاهرة والقرى، وتراجع الفرنسيين أمامهم، أمر رجاله الذين رابطوا على الضفة الشرقية للنيل، منذ بدأت المعركة بركوب السُفن وعبور النهر، لإدراك هذا النصر، حتى يُنْسَبَ إليه، وينال هو ورجاله شرف الحصول عليه.

رأى المصريون الشفق الأحمر يلمع وراء الأهرام، وسط الغبار، كأنَّ النهار يختنق فيه، فأدركوا أن الشمس قد مالت إلى الغروب، وفجأة سمعوا دويَّاً هزَّ الأرض تحت أقدامهم، ومن خلال هذا الدويّ انطلقت النيران في تتابعٍ وشِدَّةٍ من فُوِّهات المدافع التي اصطفت في خطٍّ طويلٍ أمامهم، وبدأ الناس يتراجعون باتجاه النهر ليبتعدوا عن مرمى المدافع، وانتابهم ذعرٌ مفاجئ، لقد أدركوا أنَّ الجيش الفرنسي قد انقلب بكل قواته نحوهم، ووقفت جماعات منهم تريدُ صدَّ هذه النيران ببنادقها، وبسالتها، فحصدتهم المدافع وسقطوا مضرجين بدمائهم لأجلِ

وطنهم العظيم.

أدركت قوات إبراهيم بك التي أرسلها الوالي لينال بها شرف النصر، كيف تطوَّر الموقف، عندما وضعت أقدامها على الشاطئ، فانقلبت على أعقابها مذعورةً، وحُمِّلتْ السفن بأكثر ممَّا تحتمل وتطيق من الرجال والخيل...

بدأ الظلام الزاحف بسرعةٍ يكتسحُ بقايا النورِ الذي خلَّفتهُ الشمس وراءها، وحُصِرَ المصريون بين النهر والمدافع التي كانت تزحف نحوهم بنيرانها وقصفها من كل جانب...

وقف نابليون يرقب المعركة غير المتكافئة، وعلى فمه ابتسامة. لقد أدرك منذ بداية المعركة مغزى اختيار مراد للمكان الذي وقف فيه بقواته أمام الجيزة، وعرف أنه اختاره ليؤمِّن لنفسه ولأتباعه سبيل الفرار إلى الصعيد إذا وقعت الواقعة. أدرك بفطنته أنَّ مراداً قدَّر الهزيمة مِنْ دون أن يعمل للنصر؛ لذلك مال بكل قواته عليه، وأشعره بقوة نيرانه حتى يمهِّد له السبيل إلى الفرار والنجاة، كما قدَّر، وحدث ما توقَّعهُ نابليون، فلم يكد مراد يرى عنف هجوم الجيش الفرنسي حتى أمر رجاله بالانسحاب والفرار باتجاه الصعيد.

بعد أن اطمأنَّ نابليون إلى هروب خصمه العنيد وفراره، انثنى بكامل قواته إلى القاهريين والقرويين الذين بدؤوا يزحزحون رجاله عن مواقعهم، فحصرهم بين نيران المدافع والنهر، وسمعه رجاله، يرفع صوته ويصدر أمره لكلِّ من يراه من الضباط والجنود، قائلاً:

- اضربوا بقوة ... وعنف.

استمرت المدافع تصبُّ نيرانها على الناس، فسقط منهم من سقط، وألقى بعضهم بنفسه في النهر يصارع الأمواج ويسبح لينجو بحياته، ووقفت قِلَّةٌ تطلق نيران بنادقها من وراء الأشجار، وتقاوم ببسالة قوات جيش بأسره...

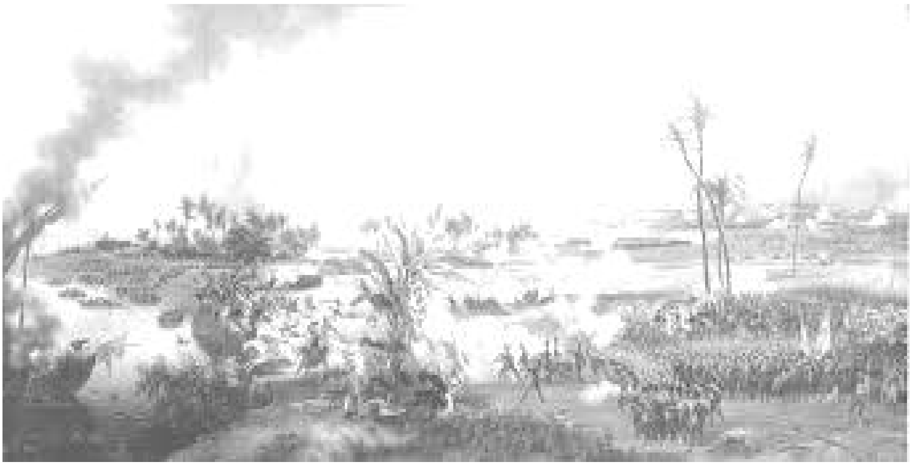
بعد ساعة أصدر نابليون أوامره بوقف إطلاق النار...

كان أكثر أهل القاهرة قد عبروا النهر سباحة وانضموا إلى رفاقهم الذين رابطوا على البرِّ الشرقي تجاه بولاق، وفي الوقت الذي ساق إبراهيم بك فيه رجاله هارباً من القاهرة صوب الشرق، تاه القرويون بين مطرقة الجيش الزاحف نحوهم من الغرب، وسندان النهر الذي كان يجرفهم جثثاً أو سابحين إلى القرى الواقعة شمال القاهرة.

أصدر نابليون أمره إلى قوات أخرى من جيشه لم تشترك في المعركة بعبور النهر تجاه الروضة بعد أن أفسح لهم هروبُ قواتِ مراد الطريقَ لدخولِ القاهرة.

فوجئ الأطفالُ والنساءُ الذين لزموا منازلهم، بالجنودِ الغرباءِ بزيِّهم الغريب، ولغتهم الأعجمية، يقتحمون شوارع القاهرة، ويحتلُّون قصر إبراهيم تجاه الروضة، ثمَّ يمضون لاحتلال بقيَّةِ قصورِ المماليك حول الأزبكية.

* * *



-١٦-

القاهرة المقهورة

أَدْرَكَ القاهريون، وأهلُ القرى الذين وقفوا أمامَ بولاق، حقيقةَ الموقف. علموا أن الجيشَ الفرنسيَّ قد دخلَ المدينةَ من الموقعِ الذي كانَ مراد يرابطُ فيه بجنودِهِ أمامَ الجيزة. كان بعضُهُمْ ينظرُ إلى بعضِهِمْ الآخر في حالٍ من الذهول، غير مصدقين، ما يترامى إليهم بين لحظة وأخرى من أنباء. لم يصدِّقوا أن مراداً الذي كان يباهي بقدرته وقدرة رجاله قد انهزم ومعه سبعة آلاف فارس من المماليك.

فجأة بُهِتَ الجميعُ، وكأنَّما هبطت على الناسِ صاعقةٌ هدَّتْ قواهم، وزلزلت كيانَهُم، فأصبحوا في ذهولٍ لا يدرونَ ماذا يقولونَ، وماذا يصنعون... انحطَّ كثيرٌ منهم على الأرض وقد تصدَّعت أقدامهم من هول الصدمة. جلس آخرون يذرفون الدموع في صمت، للمرَّة الأولى يشعرون بأنه هول الصدمة أكبر من مرارة الألم ...

لقد كانت الفاجعةُ أكبرَ من أن تحتملها هذه النفوسُ الصافية البسيطةُ. لقد أُخِذوا على حين غِرَّة، وهم الذين تركوا نساءَهُم وأولادَهُم ونذروا أرواحَهُم للدفاعِ عن هذه المدينةِ التي لم تطأها أقدامُ الغزاةِ منذ قرون بعيدة، لكنها بقيت فريسة لفساد العثمانيين الذين رزحوا فوقها باسم الدين قروناً من الجهل والتعسُّفِ والطيش وجباية الأموال بلا سبب وبلا طائل، لم يعملوا على تنميةِ البلاد، ولا عملوا على بناء جيش يدافع عنها، بل تركوها نهباً لفرسانٍ أغرابٍ، انتقلوا من

العبوديةِ إلى السيادةِ، فقط لأن أهل البلاد، تم تهميشهم عن الحياة السياسية والعسكرية، منذ وقت طويل، هؤلاء العبيد المماليك – الأسياد ليس فيهم من طباع الإنسانية، سوى خلافة الطبع والتعسف والجور والتسلط والسرقة والاغتصاب وأساليب الإذلال، لدرجة أن الناس كانوا يتحاشونهم متجاهلين وجودهم في أجمل قصور القاهرة وأرقى أحيائها.

في هذه اللحظات اكتشف الجميع هول الفاجعة، بأن هذا الحكم الثنائي الغاشم، والذي كان يوحي في الفترة الماضية بأنه قوي محكم البنيان، إن كان النظام العثماني، أم صنيعته نظام المماليك، ما هو إلاّ هرم من ورق تهاوى مع أول رشة من مطر القذائف النارية الحديثة التي أطلقتها المدافع الفرنسية.

انتحى كل من المقاتلين زاوية أو ركنا ينشج بمرارة استباحة البلاد من جيش ثالث غربي لهجته غريبة. سحنته غريبة. ملابسة أكثر غرابة. أسلحته فتَّاكة ...

كان بعضهم ينظر إلى بعضٍ في ذهول غير مصدِّقين أنَّ مراداً الذي ظلَّ يباهي بقوته، وبقدرة رجاله الفائقة في سحق الغزاة، قد انهزم مع أول طلقة وجهت لمماليكه العبيد على هيئة سبعة آلاف فارس، والذين تكشَّف أنَّ لا همَّ لهم في الدنيا إلاَّ صون أموالهم ونسائهم، فهربوا بعيداً إلى الصعيد تاركين مصر من القاهرة إلى الدلتا إلى الإسكندرية مستباحة لجيش «الفرنسيس».

مضى الناس يبحثون عن أملٍ أو منفذٍ. فجأةً شاهد بعضهم الحاج مصطفى البشتيلي قادماً من بيته، فالتفُّوا حوله. كان الرجل قد جاوز الستين من عمره، تمالك نفسه هنيهة، ثم انفجر بالنحيب بحرقة، ورفع صوته بالبكاء كطفل وهو يقول:

– لا حول ولا قوَّة إلا بالله ...

صاح حنفي الحدَّاد:

- يا حاج... يا حاج... تكلَّم. قل ماذا نصنع؟

رفع الحاج مصطفى بصره إلى الحدَّاد الذي بلَّلت الدموعُ وجهه:

- لا أدري يا حنفي ماذا نصنع!... لا أدري يا ولدي. ليس للقاهرة الآن جيش يحميها. انهزم مراد بمماليكه، وهرب الوالي إبراهيم بجنوده العثمانيين الذين لا يهمهم أمر البلاد في شيء سوى الجباية. وبقينا وحدنا، لا حول ولا قوَّة إلا بالله ...

قال الحدَّاد:

- هل نصبح أذلاَّء لهؤلاء الغرباء؟

لم يظفر بجواب، فصاح بعصبية صارخاً مستنهضاً همم الناس:

- لا. لن نكون أذلاَّء لأحد.

سار الحاج مصطفى في بطء ثقيل، كأنه يحمل مأساة القاهرة كلها.

قال حجاج الخضري:

- تعال بنا يا حنفي نمضي إلى المدينة.

كان الشيخ الجوسقيّ يقف إلى جانب سليمان، وقد اعتمد على ذراعه، قائلاً:

- لماذا ساد الصمتُ يا سليمان؟

قال سليمان:

- إن الناس بدؤوا بالانصراف.

قال الشيخ:

- إلى أين يمضون؟

قال سليمان:

- لا أحد يدري إلى أين يا سيدي الشيخ.

قال الجوسقي:

- امضِ بي حتى أكون بينهم.

مضى سليمان مسرعاً بالشيخ حتى توسط الجمع. صاح الجوسقي حين شعر بخطوات الناس من حوله:

- أيها الناس... أيها الناس...

بدأ الناس يتمهلون ويتوقفون ويتجهون نحوهم بأبصارهم المكدودة، ووجوههم التي طغى عليها الحزن والكآبة، ثمَّ ينظرون إلى الشيخ بصمتٍ.

تطلَّعَ الشيخ إليها وقال:

- أيُّها الناس استمعوا إليّ... إنَّنا لم نُهْزَمْ. إنَّ الجيشَ يستطيعُ أن يَهْزِمَ جيشاً مثله، لكن أقوى الجيوش عتيَّاً، لا تستطيع أن تنال من شعب متماسك.

إن فاجعة اليوم قد هزَّتنا وزلزلت الأرض تحت أقدامنا، ولكننا سنقف غداً أصلب عوداً وأقوى عزيمة لنواجه هذا الجيش الدخيل، بكلِّ ما نملك من قوَّةٍ وإصرارٍ وإيمان. إن المعارك بين الجيوشِ تنتهي سريعاً، لكن المعاركَ بين الجيوشِ والشعوبِ تستمرُّ وتطول، حتى تتجمَّع للشعوبِ كلُّ أسبابِ النصر، لأنَّ النصرَ دائماً معقودٌ في هذهِ المعاركِ للشعبِ المكافح. إننا سننتصر، وأريد - قبل أن تتفرقوا- أن تفكِّروا في هذا الأمرِ وتَعُونَهُ. إن المعركةَ بيننا وبين هذا الجيش لم تبدأ، وسننتصرُ بإذنِ الله.

لم يكد الشيخ ينهي كلمته حتى رأى الناسُ السماء قد امتلأت بوهج أحمر، ثمَّ تصاعدت ألسنةُ اللهب عالية تزحف نحو القاهرة، من ناحية الغرب؛ وبدأت الريحُ تعصف من حولهم، والظلام يسدُّ أمامهم كلَّ المنافذ.

صاح أحد الواقفين:

- إنهم يحرقون القاهرة.

قال آخر في ذُعر:

- لقد تركنا أبناءنا ونساءنا منذ فجر اليوم.

انتاب الناسَ فزعٌ عظيم. وبدؤوا يعدون بأقصى ما يستطيعون من قوة صوب المدينة لينقذوا أبناءهم ونساءهم من خطر الحريق.

وقف الشيخ الجوسقي وبجانبه سليمان، وحولهم فرادى من الناس، وقد تعلقت أبصارهم بالشيخ وتلميذه، وكانت أنفاس مكدودة تتردَّد في صدورهم، امتلأت بالحقد والمرارة.

قال الشيخ لسليمان بهمس:

- أبقي أحدٌ بجانبنا؟

قال سليمان:

- نعم بقي بعضهم.

فقال الشيخ بصوت مرتفع، يخاطب الذين وقفوا حوله:

- أليس لكم أبناء ونساء فَتَسعون لإنقاذهم؟

قال الحداد:

- إننا لا نخشى على نسائنا وأبنائنا من الحريق، ولكن نخشى عليهم من الفرنسيين. ومن أجل هذا وقفنا بجانبك لنرى ماذا نصنع.

قال الجوسقي:

- بوركت، من معك؟

قال حنفي:

- معي حجَّاج الخضري، ومصطفى أبو شمعة، ومحمود الفص، وداود

الصايغ، وسيِّد العقاد، وإبراهيم البشتيلي.

قال الشيخ، وهو يشدُّ على ذراع سليمان:

– ومعي سليمان.

– اقترب الجميع حتى أحاطوا بالشيخ، فشعر وهو في مكانه بأنفاسهم تتردَّدُ من حوله، وأحس بصدورهم تفور وتزأر مما تضطرب به من انفعالات. لم يكن الشيخ يُقَدِّرُ أنَّه سيقف هذا الموقف، ولا يدري أيَّ دافع دفعه لكي يرفع يده ليقول لهم، بصوت يهتزُّ من فرط التأثُّر والانفعال:

– أيُّها الإخوة، فلنتعاهد على الجهاد.

قالوا بصوت واحد: نعم.. نعم...

قال: فلنقسم ألا يلهينا ولدٌ أو مالٌ أو عملٌ عن جهادنا.

قالوا: نقسم على هذا ونتعاهد.

قال: فلنجمع الأيدي على هذا العهد والقسم.

اقتربوا جميعا ومدُّوا أيديهم. كانوا ثمانية أفراد. التفَّتْ أيديهم في جنح الظلام والريح تعصف من حولهم، ومياه النيل تصطخب أمامهم، وألسنة اللهب من بعيد تطول وتقصر، تنثني إلى الشمال، ثمَّ ترتد لتميل إلى اليمين، كأنها تبحث عن شيءٍ تلتهمه.

وبصوت هادئ وسط هذه الطبيعة المضطربة، قال الشيخ: إن الله يشهد.

ارتفعت الأيدي بعضها عن بعض وساد صمتٌ عميق، حتى قال إبراهيم البشتيلي:

– تعالوا إلى بيتنا نجلس ونتحدَّث، ونتدَّبرُ أمرنا.

ساروا في إثره كأنهم بنيان مرصوص، تشدُّهم بعضهم إلى بعض وحدةٌ

قوية، تجعل شعورهم ينبع من مصدرٍ واحد، وسلوكهم يمضي في اتجاه واحد. لقد جمع بينهم أعظم هدفٍ يجمع قلوب الناس ويوحد بينها. كانوا على الرغم مما يحيط بهم من ثورة الطبيعة، واضطراب حال الناس، يشعرون بالغبطة والسعادة، ذلك أنهم –الآن– قد عقدوا عزمهم على العمل من أجل الوطن، وكانوا على ثقةٍ تامَّة من النصر، لأنهم كانوا يمثلون شعبا، ولا يمكن لأعتى الجيوش أن تنال من شعب– هكذا كان يشعر كل فرد منهم– كانوا في سعيهم يمثلون نوراً ينبعثُ من خلال الظلمات، وأملاً يشقُّ طريقه في حلكة اليأس، وبرداً وسلاماً في جحيم اللهب والنار.

عندما اقتربوا من بيت البشتيلي، رأى إبراهيم شخصاً يقف على مقربة من الباب، فصاح به: من هناك؟

فلم يسمع جواباً، فردَّد النداء، فلم يظفر برد. قال وهو يندفع إلى المكان الذي وقف فيه ذلك الشخص: يجب أن أنظر من هذا...

قال الشيخ: امض أنت بنا إلى البيت، وليرى سليمان وحجاج من هذا.

كانت عبارة الشيخ إيذاناً بمولد شعورين جديدين، أولهما: الشعور بالخطر الذي بدأ يهدِّدهم. والآخر: الشعور بحاجتهم إلى مساندة بعضهم لبعض.

مضى الشيخ ومن معه، وسعوا في طريقهم وسار سليمان وحجاج ببطء وحذر حتى أصبحا على قيد خطوات من الشخص. قال سليمان: من هناك؟

وسمعا صوتاً لا يكاد يسمع، يقول بإعياء: أنا وداد يا سليمان.

قال بدهشة: وداد أختي!!؟... لماذا تقفين هنا والبيت مفتوح أمامك؟!

التقت العينان فجأة، وأبصر شعاعاً غريباً في بؤبؤي عينيها على الرغم من هالة الحزن التي تغرقهما، شعر باضطراب قلبه الذي بدأ يخفق كعصفور يرف بعنف. لم يعرف حقيقة شعوره قبل الآن جلياً كما هو: إنه الحب.

قالت بصوت خفيض: إني أخشى لقاء أبي.

فقال: لماذا تخشينه.

ردَّت بصوتٍ يختنق بالبكاء: لا أستطيع أن أصبح زوجاً لرجلٍ كهذا الرجل.

قال سليمان: أحسنت صنعاً إذ عدت. لا تقولي شيئاً بعد هذا، تعالي معي.

أخذ بيدها في رفق، فقالت وهي تتشبَّثُ بمكانها لا تريد أن تبرحه:

– إنك لا تدري ماذا صنعت؟... لقد أضعتُ مال أبي، وهجرت زوجي.

قال سليمان: لا يهم ما صنعتِ ، يجب أن تدخلي البيت أولاً. تعالي إلى البيت.

سارت بخطوات بطيئة كشخص يعاني ضعفاً ويشكو ألماً، وتعثَّرت بسيرها، وكادت تسقط لولا أن أدركها سليمان بيده، فاستوت واقفةً، وسارت تستند إلى ذراعه. مضت وسليمان بإعياء شديد، والخضري يواكبهما. كانت أنفاسها تتردَّد بصوتٍ مسموع كأنها تجرُّ وراءها أحمالاً ثقيلة لا قِبَلَ لها بها.

* * *

-١٧-

أملاك المماليك

بعد عودة كاشف من (شبراخيت)، سعى إلى الحاج البشتيلي، يطلبُ زوجَهُ ليَرْحَلَ بها إلى (المِنيا). استمهلَهُ الحاجُ إلى الصباح. أنباءُ هزيمةِ المماليك بقيادةِ مراد بك عند شبراخيت لم تتكشف للناس بعدُ. عند العصر كان كاشف أرسل جماعة من أتباعه مع هودجٍ على جملٍ، فيه بعض الجواري، ليحملن زوجه إليه، فخرجت وداد من البيت مرضاةً لأبيها، وأرسل أبوها الخدم وراءها يحملون نفائس ما آثرها به، كما زفَّها بمصاغٍ وجواهرَ لا تُقَّدرُ بثمن.

كان الحاج مصطفى يشعر أنه اضطُرَّ ابنته إلى زواجٍ لم ترضَ عنه، فأراد أن يخفِّفَ عن نفسه وعنها بالإسراف في تحميلها بالذهب والجواهر. وكانت أمها رافقتها في هودجها، حتى بلغت بيت عبدالله كاشف، عند بركة الفيل، وحين وصلت إلى البيت لم يكن كاشف فيه.

بعد الغروب أقبل عبدالله بصحبة مراد، ودخلا معاً حجرةَ الاستقبال، وأغلقا الباب. سمع مراد ضجَّة في البيت، فسأل: ماذا هناك؟ فأوضح عبدالله أن ابنة البشتيلي وصلت إلى البيت.

سكت مراد لحظةً مُفكِّراً، وقال: حسن. مال بجنبه إلى حشيَّةٍ على الأريكة الكبيرة في صدر المكان. أسند رأسه على ذراعه. اختفى من عينيه البريق الذي تعوَّد أن يطلقه على الناس، وبدأ كذئب يلهث، وقد أُثخنَ بالجراح. قال لعبدالله

الواقف أمامه: اجلس يا عبدالله بك.

دُهِشَ عبدالله كاشف من لهجة مراد، إذ لم يحدث قبل الآن أن خاطبه بمثل هذه اللهجة الرقيقة، فتناول مقعداً صغيراً، وجلس على بعد خطوات من مكان مراد، الذي قال له: لقد جئت إلى بيتك لأني أراك أخلص أتباعي إليّ، ولأنك أقربهم جميعاً إلى قلبي... سوف تصبح شريكي في حكم هذه البلاد، بعد أن أتخلَّص من إبراهيم بك. لقد أردت أن أُطلعك على خطتي، لتكون على بيِّنةٍ من أمري مادمت ستشاركني مصيري ومستقبلي من اليوم. إننا قد نواجه غداً بوصول جيش الفرنسيس إلى أبواب القاهرة، وإذا لم أحصل على نصرٍ سريع بأقلِّ تضحية، فسوف أنسحبُ بجيشي إلى الصعيد، فلست مستعدَّاً للتضحية بفرساني، وهم كلُّ قوتي وسندي، من أجل الدفاع عن القاهرة. وعندما نستقرُّ في الصعيد فسيكون بوسعنا أن نحارب الفرنسيس عشر سنوات حتى نطردهم من هذه البلاد، ونعود إلى حكمها معاً. أنا لا أريد أن أخوض معركةً كبيرة مع الفرنسيس الآن أو في المستقبل.

قال عبدالله بدهشة: لماذا لا تريد أن تخوض معركة كبيرة معهم، ولديك هذه القوة الكبيرة !؟

قال مراد وهو ينظر بعيداً: إن سفك الدماء بغزارة، قد يمنعنا من التقارب والتفاهم معهم في المستقبل. ربما يبدو أن لا قدرة لنا على هزيمتهم، فيكون الصعيد ثمنا للصلح، ولا ضيرَ في أن نمنحهم شيئاً من خراجه وغلاله... وسوف تكون شريكي في كلِّ شيء.

سكت مراد لحظة وهو ينظر إلى عبدالله كاشف ليرى أثر كلماته

على قسماته، فقال عبدالله كاشف بألفاظٍ متعثِّرة: كنتُ أفكر في الرحيل بزوجي إلى المنيا.

قال مراد: لا تتحدث عن امرأتك، مقدمها شؤم. ما تحتاجه ليس امرأتك، ولكن ذهبها ومالها، وأرجو أن يكون البشتيلي عوضَّك من ماله عمَّا أصابنا من شؤم ابنته... لقد قرَّرتُ أن أترك أنا أيضا زوجي نفيسة، ولكن لن أترك معها مالاً أو ذهباً. إن المال عُدَّتنا كي نستمر في مقاومتنا للفرنسيس حتى نضطرَّهم إلى الصلح، وقبول شروطنا بالبقاء في الصعيد. إن الفلاحين يمتنعون عن الالتزام بأداء الضرائب، ونحن لا نريد أن نخوض معركة معهم الآن.

تأنى مراد لحظة، ثم غرز نظره في عينيّ كاشف: وعدني البشتيلي أن يزفَّ ابنته إليك، بذهبٍ وأموالٍ لم تزفَّ بها أيُّ فتاةٍ قبلها.

قال عبدالله: هل يعني أن أتركها هنا؟!؟

قال مراد : من غير شك. ماذا يفعل الرجل بامرأته وهو يحارب!؟ إن الحرب ستطول، وما يجب أن يشغل بالك، هو مالها وذهبها... **(تمهل قليلاً قبل أن يكمل)**: إنَّ أياماً عصيبةً تنتظرنا. وتستطيع أن تجد امرأة في أيِّ خطوة تخطوها. لقد أعددّتُ قافلةً لترحل بأموالنا معاً إلى الصعيد يحرسها رجال أشداء، فاجمع مالك واختم عليه، بصناديق محكمة، لينقل إلى هناك.

هزَّ عبدالله كاشف رأسه، ولم يجب بشيء، فقال مراد: سأنهض الآن، وأرجو أن تلحق بي في الجيزة بعد أن تطمئن على كلِّ شيء، فإنَّ علينا أنَّ نعدَّ العدَّة لما يأتي به الغد.

نهض مراد، وخرج، ثمَّ ركب صهوة جوداه، ومن خلفه سعى حارسان حتى

بلغ بيته في الجيزة، ولقيه من يقول له: إن شيخ البلد إبراهيم بك، ينتظر في الداخل.

قال مراد بتبرُّم وضيق: ماذا جاء يفعل هنا!؟

* * *

-١٨-

كاشف يستولي على زوجه

خلا عبدالله كاشف لحظةً إلى نفسِهِ بعد خروجِ مراد، ثمَّ نهضَ وأخذ يذرع القاعة ببطء، ونظراته إلى الأرض... بعد لحظة توقف ورفع بصره نحو باب صغير إلى اليمين يؤدي إلى بيت الحريم.

مضى بخطوات مسرعة إلى باب الزوجة. وقف أمامه برهةً، ثمّ بدأ يطرق الباب طرقاتٍ خفيفة، وبعد فترة غير قصيرة فتح الباب وخطا إلى الداخل. كانت وداد تجلس على مقعد، وقد ارتدت ثيابها، وعلى وجهها نقابٌ أبيض شفاف، لا يكشف جمالها، وإن كان لا يخفي ملامحها وتقاطيعها. وكانت أمها تقف إلى جانب الباب، وحين رأت عبدالله كاشف يقبل أرادت أن تنصرف، فنهضت وداد واقفة، وقالت لها بخوف: لا تفارقيني يا أمي.

تقدَّمت خطوتين لتقفَ بجوارها، ونظرت الأم بدهشة، ثم نقلت بصرها إلى عبدالله الذي ضحك ضحكة ماكرة، وقال بسخرية: لا تفارقيها يا أمها.

ثمَّ سكت لحظة وقال: لا تخافي يا حماتي الوديعة، سأنصرف بعد لحظة، لأن عملاً كثيراً ينتظرنا في الغد، وينبغي أن نعدَّ له العدَّة الليلة.

شعرت وداد عندئذٍ بالطمأنينة، وتقدَّم عبدالله كاشف، ورفع النقاب عن وجهها، وحين نظرت إلى وجهه جفلت، وارتدت إلى الخلف، حتى التصقت بأمها، فقد رأت في نظراته شيئاً أفزعها.

كان ينظر إلى صدرها الذي غطَّته الحلي الذهبية بشراهة، وكان يهزُّ رأسه، ونظراته تتنقل من موضعٍ إلى موضع وراء حليها وجواهرها، وأبصرته يمدُّ يدهُ ويمسك قرطاً علقته في أذنها تلمع فيه ماسة كبيرة ويقول: هذا رائع!... إن نفيسة المرُادية لا تلبس مثله! كم ثمنه؟!

لم تردّ الفتاة، لكنها شعرت في أعماقها بخوفٍ عظيم. لقد بدا هذا الرجل في نظرها كوحش ضارٍ أثاره الجوع، يتقدَّم إلى ذبيحة أُلقيتْ أمامه...

قال عبدالله كاشف: سأخرج الآن... بعد أن اطمأن قلبي لوجودك في بيتي. إن مراد بك ينتظرني في الجيزة. مسكينةٌ أنت يا عروسي الجميلة. لم تكد قدماك تطأان البيت حتى دُعي زوجك إلى الحرب والقتال. لا تحزني. سوف أعود منتصراً؛ إنَّ أياماً كثيرةً مليئة بالسعادة تنتظرنا.

سكت لحظة، ثمَّ أردف: لا أدري متى أعود الليلة، ومن أجل هذا فأنا أرحب ببقاء أمك معك... هذه الليلة فقط.

سألته الأم: هل الحرب تقترب منَّا؟؟

قال عبدالله: لا تجزعي يا أمي... فإننا نعرف كيف نردُّ عنكن الأخطار.

ثمَّ توجَّه إلى وداد التي سكنت بجانب أمها، وقال: أمازلت خائفة مني؟ أنا سأجازف بحياتي لأرد عنك خوفا أعظم. إن الفرنسيس لا يرحمون طفلاً أو امرأة.

قالت الأم: نصركم الله عليهم يا ولدي.

فردَّ عبدالله متباهياً باستعراض سخيف: اطمئني... فلم يسبق للمماليك أن هزموا في معركة... ثمَّ نظر إلى وداد وعلى شفتيه ابتسامة عريضة، وفي عينيه نظرات شرهة وماكرة، وقال مؤكِّداً على كلامه:

– أراك على خير، أما أنت يا أمي العزيزة فإني أرحب بك في هذه الليلة فقط.

وضحك عالياً بمجون وكأنه ينفِّس عن حقدٍ دفين.

تنفَّست الفتاة الصُعداءَ حين رأته يخرج ويغلق الباب وراءه، وألقت بنفسها على صدر أمها، وجسمها يرتجف. قالت الأم: ماذا دهاك يا ابنتي!؟

أجابت وداد بلا تردُّد: لا أحبه. إنني خائفة يا أمي. لا أستطيع أن أعيش معه.

– لا تقولي هذا، حتى لا يمتلئ قلب أبيك حسرة وتعاسة، وتشمِّتي فينا الحُسَّاد. ألم تري كيف كان الناسُ يهلِّلونَ لزوجكِ يوم مضى للقاء أعداء البلاد؟

– لكني لا أستطيعُ أن أتصوَّر نفسي زوجاً له، إنَّه يفزعني بنظراته ووجهه.

– غداً ترينه أفضل الناس وأجملهم.

– لا... هذا لن يكون.

– وداد كوني عاقلة كما عهدتكُ. دعي هذه الأوهام وقومي إلى فراشك.

– لا تفارقيني... أتوسَّلُ إليك، كوني دائماً بجانبي.

– حسن. قومي إلى النوم، فأنا لن أفارقك.

أمضت الفتاةُ ليلتها مُسَهَّدةً أرقةً. وفي اللحظات القليلة التي غفت فيها عيناها، نهضت أكثر من مرة فزعةً كأنَّها تفرُّ من حلمٍ رهيب.

في الصباح، أقبل أبوها، فقبَّلها وترك لها كيساً مليئاً بالنقود الذهبية، ثمَّ قال لها وهو ينصرف:

– أنَّ من حقِّكِ أن تفخري لأن زوجك كما علمت سيقود فرسان المماليك في المعركة وشيكة الوقوع. ادعِ له بالنصر.

بعد هنيهةٍ مضى الحاج مصطفى إلى بولاق، وعند الظهر، انصرفت أمها بعد أن وعدتها بأنها ستعود مع قدوم المساء. وظلَّتْ نوازعُ مختلفة تتجاذب الفتاة. شعرت من جهة أنها تكره هذا الرجل، ومن جهة أخرى رأت أحباباً لها، يدعونها كي تتقبل

من انتهى إليه أمرها، ومنهم أبوها الذي تخشاه وتُجِلُّه وأمها التي تحبُّها من كلِّ قلبها... وهذا وطنها قد خرج زوجها ليدافع عنه.

حين خلَتْ إلى نفسها، شعرت أن قلبها أصبح نهباً للحيرة، وكانت الجواري يَسعَينَ إليها عند كل إشارة، يحققن لها كلَّ ما تحب، والخدم يملؤون عليها البيت... غربت الشمس ولم تحضر أمها، فأغلقت الباب عليها، وجلست تفكِّر فيما عسى أن تلقى به زوجها إذا أقبل عليها، وبينما كانت في حيرة بين هذه النوازع المختلفة، سمعتْ طرقات زوجها على الباب. تردَّدت طويلاً قبل أن تفتح له، ثمَّ نهضت متثاقلةً، وفتحت الباب... دُهِشَتْ من رؤية خادمين يقفان خلفه يحملان صندوقاً أمرهما عبدالله كاشف بأن يضعاه وينصرفا، وامتثل الخادمان للأمر.

أغلق الباب، ووقف ينظر إليها لحظةً، ثمَّ تقدَّم نحوها خطوةً وقال:

– إنَّ الفرنسيس يقتربون من القاهرة، وقد يبلغونها بين لحظة وأخرى، إنَّ علينا أنْ نعدَّ عدَّتنا للرحيل إلى المنيا. وأول ما ينبغي علينا عمله، هو نقل ما لدينا من مال وذهب وحلي.

أدركت الفتاة عندها لماذا أحضر عبدالله هذا الصندوق، إلى حجرتها، بينما استدرك هو قائلاً: من دون المال، لا نستطيع أن نعيش. ضعي كل ما معك من مال، وكل ما تخشين عليه هنا في هذا الصندوق، وسوف أضمُّ مالي إلى مالك، وسأرسله إلى المنيا.

قالت وهي تتأمَّل وجهه: أجئتَ لهذا؟

قال: نعم... لا يمكن أن ننسى في غمرة الأحداث مستقبلنا وأموالنا.

– وماذا من أمري؟

– سنتحدَّثُ عن هذا فيما بعد.

ومدَّ يده محاولاً نزع ما تحمله من مصاغ، فنحَّتْ يده بعيداً وقالت:

- هذا مال أبي، ولا حقَّ لك فيه.

قال: صه... يا فاجرة.

- فوجئت الفتاة به يصفعها على وجهها بقسوةٍ ووحشيةٍ، فارتدَّت إلى الجدار، والتصقت به وهي تضع يدها على وجهها، وقالت وهي ترتجف من نظرته:

- لن أمكِّنَكَ من أخذِ مالِ أبي. أنا أعرف أنك لم تردني إلا لهذا المال.

قال: سأعلِّمُكِ من الآن كيف تطيعين زوجك.

وأخرج سوطاً من بين ثيابه، وأهوى به على وجهها، وكلِّ أجزاء جسدها، والفتاة تتجلَّد ولم تصرخ أو تتأوه... وحين رآها تترنَّح وتسقطُ أمامه، كفَّ عن ضربها. وبخسَّةٍ بدأ يجرِّدها مما تحمل من حلي، ويضعه في الصندوق بهدوء واطمئنان، كأنَّه يمارس عملاً عادياً ألفهُ واعتادهُ، ونهض يفتش المكان، ويقلِّب الوسائد والفراش، فوجد الكيس الذي قدَّمه أبوها إليها، ونظر في داخله... برقت عيناه ببريق عين اللص حين يقع على كنز لم يتوقَّع رؤيته، ثمَّ وضعه في الصندوق، وحمله بين يديه ومضى، وأغلق الباب وراءه.

أفاقت وداد بعد ساعة، وراحت تدور نظراتها في المكان، وتتحسَّس بيدها مواضع من وجهها وجسدها. لقد شعرت أن آلاماً مبرحة تمزقه. كانت كأنما استيقظت من حلمٍ مفزع... وظلَّتْ في ذهولٍ لحظات لا تدرك من أمر نفسها شيئاً. اكتشفت أن أصابعها التي مرت على وجهها، قد تلطخَّت بالدماء. وضعت يدها على صدرها، لم تجد حليَّها. تذكرت كلَّ شيء فنهضت وهي تستند بيدها على الجدار، ونظرت إلى الخارج من خلال النافذة، فرأت الظلام قد خيَّم على الدنيا. شعرت أنَّها تكاد تختنق كأنما تتنفس هواءً مسموماً، فأسرعت بالخروج، ومضت تهبط درجات السلم، وتقطع الفِناءَ بخطوات سريعةً، ثمَّ تفتح الباب وتخرج إلى الشارع تعدو، كأنها تفرُّ من وباء.

وصلت إلى شاطئ النيل، وتمهّلتْ، وأدركت أنها تسعى حافيةَ القدمين، وأن ثيابها قد تمزَّقتْ في أكثر من موضع، فأسرعت تعدو نحو بيت أبيها في بولاق.

كان الموج يضطرب في النهر، كأنَّ ثورةً كبرى قد تأجَّجتْ في أعماقه، والريحُ تصفرُ...

رأت نوراً أحمر تعكسه مياه النهر، فالتفتت إلى الوراء، فرأت ألسنة اللهب تمتدُّ في إثرها وكأنها تتعقبها، فراحت تركض بذعر أكثر فأكثر... ثمَّ تمهّلت لحظة، كأنما خيل إليها أن الموج الصاخب يحمل أشباحاً، وسمعت الريح تصفرُ فسارعت إلى الاختباء وراء شجرةٍ كبيرةٍ على الطريق، وتشبَّثت بها، وكأنها تمانع اقتلاع الريح لها من الأرض، وظلَّت تتقلَّبُ في هذا الهول والفزع، حتى وصلت إلى البيت، فأسندت نفسها إلى جداره، وشعرت أن آلامها قد انتهت، وأنها أدركت الأمن.

كانت أنفاسها المتقطعة تئزُّ في صدرها الذي يعلو ويهبط، وحين ناداها أخوها إبراهيم أوَّل مرة لم تستطع أن تردَّ عليه من فرط الإعياء. ولم يكد سليمان يخطو معها داخل البيت حتى سقطت على الأرض مغشياً عليها.

فوجئ الحاج مصطفى بسليمان يدخل إليه حاملاً وداد على ذراعيه.

* * *

-١٩-

ظلال الهزيمة

سعى الناس مذعورين إلى المدينةِ لإنقاذِ أولادهم وأزواجهم، من خطرِ الحريق الذي شاهدوا لهبه من موقفهم عند بولاق، لكنهم عند بلوغ المنازل لم يجدوا شيئاً، وكانت ألسنةُ النيران مازالت تلوح لهم من بعيدٍ، وأدركوا الحقيقة حين نَقَلَ إليهم القادمون من الجيزة ما أقدم عليه مراد عند انسحابه، في أنَّه أشعل النار في السفن والمخازن، وشَغَل الحريق والخوف منه الناس لحظاتٍ عن وجود الفرنسيين بمدينتهم.

مضى الليل بطيئاً، بعد أن شعروا بالاطمئنان على أولادهم ونسائهم، واستيقظ سكان القاهرة والفلاحون الذين لازموها تلك الليلة كعادتهم قبيل الفجر، وسعوا إلى المساجد، وعندما فرغوا من الصلاة لم يفارقوا مساجدهم، كانوا يشعرون بالأمن لتقاربهم ولوحدتهم التي انبثقت عن ذلك الشعور بالخطر الداهم.

كانوا يتحدثون في اتجاهات شتَّى، ويتكهَّنون بما عسى أن يأتي به القدرُ، كان بعضهم يسرف في التشاؤم حتى إنه ليدَّعي أن الفرنسيين سينتهزون أوَّل فرصةٍ ليحرقوا المدينة ويقتلوا أهلها عن بكرة أبيهم... زعم آخر أنهم سوف يهدمون المساجد، وقال ثالث: سيقتلون الرجال، ويتَّخذون الأطفال رقيقاً وخدماً، والنساء سبايا... وردَّد رابع في ذعر:

- لا يمكن أن يكون هذا، إنَّ هذا فظيع.

فردَّ عليه الأول:

- فلأيِّ شأنٍ قدموا إلى بلدنا إذا لم يأتوا لهذا وأمثالهَ؟

سعى الناس إلى حجرة شيخِ الجامع الأزهر، كانوا يبحثون عن نبأ يردُّ عنهم الفزع والاضطرابَ والخوف الذي استولى عليهم بعد أن أشعروا بوجود هذا الجيش الغريب في بلدهم وبين ظهرانيهم...

نظر الشيخ الشرقاويُّ في عيون الناس، وفي وجوههم، وشعر في أعماقه بالعطف عليهم والرثاء لحالهم.

كانوا حتى الأمس يعيشون في أمنٍ، وكانت نظراتُهم الآمنةُ الوديعةُ تلتقي مع غيرها من النظراتِ في محبَّةٍ وسلام. كانت الوجوه التي طغى عليها الحزن والكآبة تواجهه من كلِّ جانب فيرى عيوناً قرَّحها الألمُ ونظراتٍ زائغةٍ لا تستقر.

ودَّ الرجلُ لو استطاع أن يَفْدِي هؤلاء الناس بحياته وبكلِّ ما يملك... نظر إليهم وقال:

- أيُّها الناس. سوف أذهبُ الآن لمقابلة قائد هذا الجيش...

ومن أقصى القاعةِ جاءه صوتٌ عميق: إنَّك لن تذهب إليه يا شيخ شرقاوي...

التفت الناس إلى مصدر الصوت، فرأوا الشيخ الجوسقي يقف بين جماعةٍ من الناس والعلماء، وأردف قائلاً:

- إنك الآنَ عنوانُ أمَّةٍ ورمزُ شعب، ليس من واجبك أن تسعى مذعوراً إلى عدوٍّ غزا بلدك واقتحم أرضك.

قال الشيخ المهديُّ الذي كان يجلسُ بجانب الشيخ الشرقاوي:

- إنَّك لا ترى وجوه الناس يا شيخ، فاتق الله.

فقال الجوسقي بصوت هادئ:

– بل أراها بقلبي يا مهدي، فاسكتْ أنت، فما أردتُّ بخطابي شخصّك.

وساد الصمتُ لحظةً، وبدأت همهمةٌ تسري بين الناس، وقال الشيخ الشرقاوي:

– أنت على حق يا شيخ جوسقي ليس لي أن أذهب...

وعاد الهرج والمَرْجُ بين الناس فعادوا إلى سابقِ حيرتهم واضطرابهم وبدؤوا يتحدثون عن الهجرة والرحيل عن المدينة وانصرفوا إلى بيوتهم، وقد تفرَّقت بهم الأسبابُ والمذاهب، بعضهم يرى البقاء في المدينة، وآخرون أزمعوا على الهجرة إلى حين... وقررت طائفةٌ أن تلازم بيوتها ولا تخرج منها حتى تدفع عن أولادها ونسائها أيَّ خطر.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يدخل القاهرة جيش غريب بدينه وبلغته وبعاداته، وغريب عن تقاليد المجتمع العربي.

صحيح أن العثمانيين احتلوها، لكنهم فعلوا ذلك باسم الإسلام ورزحوا على صدرها منذ مئتين وإحدى وثمانين سنة.

* * *

-٢٠-

وفد الأزهر المصغَّر

وصل التوتر بين الشيخين إلى أقصى مداه، وحين اختلى الشيخ المهديُّ بشيخ الجامع الأزهر، عاد يقول له: ليس لك أن تنزِلَ على رأي الجوسقي. إنَّ الناس يواجهون مصيراً مجهولاً تضطرب له نفوسُهم.

قال الشيخ الشرقاوي: ليس لمثلي أن يذهب.

فقال المهدي: إذا كنت تربأ بنفسك عن هذا الموقف، فأرسل رجلين من رجالك لمقابلة قائد هذا الجيش لتعرف ماذا يُرَادُ بنا وبقومنا.

سكت الشيخ الشرقاوي لحظةً، ثمَّ نظر إلى المهدي، لقد عرفه أريباً ذكيَّاً، كما عرفه نهَّازاً للفرص، ثمَّ لم يلبث أن قال له: أتذهب أنت؟

قال المهدي: هل أذهبُ وحدي؟... لا أريد أن يزعم زاعم أنني الوحيد الذي سعيت إليهم.

قال الشرقاوي: من تختارُ للذهاب معك؟

قال: اختر أنت من العلماء شيخاً فاضلاً يُجِلُّه الناس، ولا يظنوُّن به الظنون...

قال شيخ الجامع: إذن تذهب أنت والفيُّومي...

بعث المهدي إلى الشيخ الفيُّومي من يدعوه إلى مقابلةِ الشيخ الشرقاوي... وحين قدِمَ أطلعه شيخُ الجامع على جَليَّةِ الأمر. سكت الشيخ الفيُّومي لحظةً وهو مُطْرِقٌ، وسمع المهدي يقول: هذا واجبنا نحن العلماء، ينبغي ألا نتخلَّى عنه... إنَّ

السيد عمر مكرم قد رحل إل الشامِ والسيد السادات أغلق عليه باب داره... إنَّنا لا نستطيعُ أن نغلق علينا جامِعَنا ونصدُّ الناسَ عنه، ولا طاقة لنا على رؤيتهم مذعورين فلا نفعلُ شيئاً يردُّ إليهم أمنهم واطمئنانَهم.

فقال الفيُّومي: حسنٌ سنذهبُ معاً يا شيخ مهدي.

وقبل أن يخرج الشيخان، شاهدا بارتلمي التاجر الأوروبيَّ الذي كان يسعى كلَّ يومٍ في أسواق القاهرة يستأذن في الدخول على شيخ الجامع. لم يدركا سبباً لحضوره، فتركاه ومضيا للقاء نابليون بونابرته.

وفي ذات الوقت الذي كان الشيخان يسعيان فيه، كان نابليون يقف في القاعة الكبرى في قصر مراد بالجيزة، القاعة التي شهدت منذ أسبوعين اجتماع مراد والعلماء، وينظر من نافذته إلى النيل والنخيل. كان يمضي أحيانا في القاعة ساعات يذرعها بخُطُوات بطيئة متئدة، وأخرى سريعة مضطربة، وقد وضع يدا في جيب سرواله والأخرى على صُدرته، في حين وقف بجانب الباب القائدُ الذي دخل القاهرةَ على رأسِ رجاله أمس. الريحُ تعصفُ في الخارج، وتحطِّمُ بعض أغصان الأشجار فتسقط أمامه على أرض الحديقة أو تهوي في النهر لتغوصَ فيه ويطويها في أعماقه.

وقف نابليون أمام ديبوي وقال فجأةً: لماذا تكلفوني مشقَّةَ الانتظار!؟... أنا لم أُخلق لهذا النوع من العمل أو السلوك، لقد أخضعتُ إيطاليا في أيام، وسجد أمامي شعبُ الإمبراطورية النمساوية مَهيضا ذليلاً عندما سقتُ أمامي خمسين ومئة ألف أسير من أبنائه. لم أُخْلق لهذا... أنا الذي أُمسكُ بيميني زمامَ التاريخ، وأشير بأصبعي لتُرسَمَ حدودُ العالم كما أريدُه...

قال ديبوي: إنَّ الأستاذ فانتور...

قاطعه نابليون بحدَّة: فانتور... فانتور... ألا يكفي أنني بعثتُ إلى هذا الشعب نداءً أتمَلَّقهُ فيه، وأُعلي من شأنه وقدره كما لم أفعل مع أيِّ شعبٍ

آخر!؟... لم يبق إلاَّ أن أنتظِرَ تفضُّل المشايخ بالحضور، وقد كان في وسعي أن أبعثَ لآتي بهم مكبلين بالقيود.

لم يتكلَّم ديبوي بشيءٍ، فلم يكن بوسع أحد من قُوَّاد نابليون أن يبدي رأياً إذا رأى هو رأياً غيره.

مضى نابليون ثانيةً يذرع الحجرة بخطواته السريعة، ثمَّ وقف أمام نافذة كبيرة، وصرخ: إنَّ هذا النهر يجري منذ آلاف السنين. هل استطاع أحدٌ أو شيءٌ أن يعترض سبيله؟

قال ديبوي: لا أعتقد.

قال نابليون في كبرياء: أنا أيضاً لن تستطيع قوةٌ أن تقفَ في وجهي.

قال ديبوي: إنَّنا نمضي معك بقلوبنا...

فردَّ نابليون: لماذا لم يحضروا!؟ سيكون مشهداً رائعاً. سأقفُ هنا على هذه الأريكة، وسوف يقفون صفَّاً واحداً أمامي على أرض الغرفة... أين فانتور؟... فانتور... فانتور...

ثم تابع كلامه يقول: إن فانتور سيقف أمامهم ليتحدَّث باسمي إليهم، هذا يوم سيذكره التاريخ... سوف ألتقي بقيادة هذا الشعب العربي هنا. إنَّ العالم القديم مُمَثَّلاً بهؤلاء المشايخ والقادة، يلتقي بالعالم الجديد مُمَثَّلاً في شخصي... أنا ابنُ هذا العالم البكر، العالم الجديد هو فرنسا لأني سألقي بإنجلترا إلى الجحيم ذات يوم، ثمَّ أُتبعُها بروسيا والنمسا ...

أقبل فانتور، فقال نابليون في لهجةٍ لم تخلُ من تأنيب: أين كنتَ يا سيدي الأستاذ؟

قال فانتور: كنتُ أنتظرُ المشايخَ أمام الباب، حتى سمعت صوتك يدعوني فأقبلت...

- فانتور. أنت تُسْرفُ في التملُّق لهؤلاء الناس.

قال فانتور بصوتٍ هادئ خفيض: إنَّك تعلم يا سيدي أن هؤلاء القوم...

قاطعه في ضيق: عرفت أنَّهم يمثِّلون حضارتين من أعرق الحضارات، لكن أنا نفسي صاحب حضارةٍ جديدة، وعنوان لحياةٍ تولد. لماذا لم يحضروا حتى الآن!؟... هل تعتقد أن بارتلمي قد ضلَّ الطريق؟

قال فانتور: لا أعتقد يا سيدي، إنَّه خبيرٌ بهذا البلد وأهله.

قال نابليون لديبوي: اتخذ من هذا الرجل مساعداً لك يا ديبوي... لقد نقل إليَّ أمس أنباءً خطيرة. ستنتفع بها في حُكم هذه المدينة. لقد تحدَّث عن الناس الذين نستطيع أن نعتمد عليهم. لقد تكلَّم طويلاً عن الشيخ المهديِّ، فأحفظ هذا الاسم.

ثمَّ وجه الحديث إلى فانتور: ماذا كنتَ أقولُ يا أستاذ فانتور؟

كان نابليون يطرق موضوعات مختلفة، وكان يرهق المستمع إليه من كثرة تنقله بين شتى الأحاديث. نظر إلى فانتور وعاد يقول: ماذا كنتُ أقول لك؟

قال فانتور: كنتَ تتحدَّثُ عن الحضارة الجديدة، والحياة التي تولد...

تابع نابليون مقاطعاً فانتور: نعم نعم... أنا عنوان كلِّ ذلك. هل حدث أن وطأت أقدامٌ غريبة هذه الأرض؟

قال فانتور: نعم أيام الحروب الصليبية... وأيضا عندما دخل العثمانيون..

قال نابليون وهو يضحك في سخرية: لقد كانوا حمقى. ومن أجل ذلك هربوا وأُسروا وعادوا مدحورين...

قال فانتور: تقصد العثمانيين؟

تابع قائلاً بخُيلاء: العثمانيون خارج التاريخ. قوم جهلاء، أنا أتحدث عن الصليبيين الذين عادوا مدحورين وقد مرَّغوا شرفنا بالتراب... اسمع، سنعالج الأمر بحكمة، ومن أجل هذا أريدُ أن تكون بجانبي دائماً يا أستاذ فانتور، أنت مُمَثِّلُ الحكمة في العالم الجديد...

وبينما يتابع نابليون حديثه، فُتح الباب ودخل حارس، تبعه الشيخ المهديُّ. أسرع نابليون ليقف على الأريكة، ليشرف من فوقها على العلماء والقادة وهم يدخلون أفواجاً ليصطفُّوا أمامه، ونظر إلى الباب فشاهد الشيخ المهدي يدخل، ويتبعه الشيخ الفيُّومي، ثم رأى الحارس يغلق الباب.

نظر نابليون بدهشة إلى الحارس وصاح به: لماذا أغلقت الباب!؟ دع سائر العلماء والمشايخ يدخلون.

قال الحارس بصوت مرتفع: سيدي لم يحضر غيرُ هذين الشيخين.

نقل نابليون بصره إلى القائد ديبوي، ثمَّ إلى الأستاذ فانتور، وبعد ذلك راح يتأمَّل الشيخين الذين وقفا أمامه.

فقدت الترتيبات التي أعدها معناها مع هذا الوفد الضئيل، وبدا في موقفه المرتفع في القاعة الفسيحة مضحكاً، مع هذا الحضور القليل، بدا وكأنَّه ممثل هزلي، فهبط إلى الأرض وتقدَّم نحوهما خطواتٍ قليلةٍ ثمَّ توقف... كان صدرُهُ يغلي من الغيظ، وساد صمتٌ للحظاتٍ طويلة.

شعر الجميع أن نابليون يتهيَّأ للانفجار، فسارع فانتور لإنقاذ الموقف قائلاً: لعلَّ الشيخ الشرقاوي مريضٌ؟

قال الفيُّومي: لا. إنَّه ليس مريضاً.

قال فانتور: لماذا لم يُلِبِّ دعوةَ السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية!؟

قال المهدي: لقد بعثنا لنمهِّدَ لهذا اللقاء لأنه متعب، وعندما يقْدُم سيحضر معه جميع العلماء والمشايخ...

تحدث فانتور إلى نابليون باللغة الفرنسية، فهزَّ القائد رأسه في صلف وكبرياء.

قال الفيومي: نريد أن نعرف ماذا تريدون من مجيئكم إلى بلادنا؟

قال فانتور: لقد جئنا لنقطع دابر المماليك، ونمنع عُدْوان العثمانيين، ونرد أمرَ هذه البلاد إلى أهلها الذين أقام أجدادهم هذه الحضارة العظيمة، وعلَّموا العالم على مدى العصور والأيام أنواعاً من المعارف ازدهرت بها الحياة. وحسبكم فخراً أنَّ الدنيا كلَّها قد تعلمتْ من أجدادكم القراءة والكتابة. إن شعوباً كثيرةً قد عاشت على خيرات بلادكم من قديم الزمن.

قال المهدي: إنَّ الناس يريدون أن يطمئِنوا على دينهم وعاداتهم وأموالهم...

قال فانتور: بلغْهُم على لسان القائد العام، أنَّ أحداً من جنودِه لن يتعرَّض لشيءٍ من هذا الذي ذكرت. وسوف يُقْتَل أيُّ جنديٍّ يعتدي على حرمةٍ من حُرُماتكم.

نظر المهديُّ إلى الشيخ الفيُّومي نظرةً وعلى فمه ابتسامةٌ راضية، لكنَّ الفيُّومي لم يلبث أن سأل:

- تقولون إنَّكم جئتم لتمنعوا عُدْوان العثمانيين؟... ودخولكم أرضَ هذه البلاد هو أكبر عدوان، فكيف توفقون بين قولكم وعملكم؟!!

نظر نابليون إلى فانتور، يستعجله الترجمة، بعد أن سمع لهجة الشيخ، فتحدَّث إليه فانتور بالفرنسية، ودار بينهما حديث قصير انتهى بقول فانتور للشيخ: دع الحكم علينا للأيام. إنَّنا سننشئ ديواناً من أهل الرأي والعلماء، فيحكمون البلاد كما تقضي بذلك شريعتكم ودينكم. إنَّ تعاون سائر العلماء والقادة مع الجيش هو خيرُ ضمانٍ لنشر العدل، ورفع الظلم، ومنع العدوان. وسوف ينتظرُ القائد العام شيخَ الجامع الأزهر وسائرَ العلماء غداً في مثل هذا الوقت ليقلِّدهم رئاسة الديوان ومناصبه.

انصرف الشيخان، وعند المساء شاهد الناس بارتلمي يدخُل بيت الشيخ المهدي.

* * *

-٢١-

المهدي يهدي

في اليوم التالي، خلت الشوارع من الناس، وأُغلقت المتاجر، وبدت المدينة ساكنة كأنها مدينة أشباح، وليس بها أي ملمح من ملامح الحياة. توقف كلُّ شيء عن العمل، حتى رفوف الطير توقفت عن الطيران، كما تماوتت رقصات أغصان الأشجار مع صمت زقزقة العصافير.

الأزهر هو المكان الوحيد الذي فتح أبوابه لاستقبال الطلاَّب، والناس. وشهدت حجرة الشيخ الشرقاوي أوَّل صراعٍ حول الطُعْم الخبيث الذي ألقاه الفرنسيون ليتزاحم عليه الناس ويختلفوا ويتفرقوا شيعاً وأحزاباً، بعد أن جمعهم الجهاد في تلك الوحدة المقدَّسة.

رأى فريق على رأسه المهديُّ أن يذهب الشيخُ الشرقاوي إلى لقاء نابليون، لتكون له رئاسة الديوان، حتى لا يسبقه إليها الشيخ السادات الذي يعلم الجميع ميوله الانتهازية، أو قد يذهب غيره من عامَّة الناس. رأى آخرون من العلماء، ألاَّ يضعَ شيخُ الجامع يده في يد المحتلين، حتى لا يستسلمَ الشعب بخضوع زعمائه، ويصبح وجود هؤلاء الغرباء أمراً مشرَّعاً، وبالتالي يصبح أمراً محتوماً.

استمر الخلاف وتشبَّثَ كلٌّ برأيه، وحين مال الشيخ الشرقاوي إلى الأخذ برأي المهديِّ، نهض الشيخ الجوسقي قائلاً:

- كيف ترضى أيها الشيخ أن يهون أمرُ الأزهر وشأن علمائه! فيسعى كبير شيوخه إلى من غزا أرض الوطن، وقتل أهله وسفك الدماء.

قال المهدي:

– إنَّ شيخ هذا الجامع لن يسعى إلى قائد هذا الجيش، قبل أن يسعى هو إليه في بيته.

– قال الشيخ متشكِّكاً، وفي الوقت نفسه لامزاً من قناة المهدي واتصالاته:

– وكيف علمت أن قائد الجيش قد قبل بهذا السعي؟

– سوف نعرض هذا الرأي، فإذا قبله، فحُبَّاً وكرامة. نمدُّ أيدينا إليه، وإن أبى واستكبر فلن تمتدَّ إليه يدٌ، مهما بذل من وعدٍ أو أنذر بوعيد.

– لا والذي خلقنا، وجعل لكلٍّ منَّا أجلاً مكتوباً، يا مهديّ لن تمتدَّ إليه أيدينا حتى يرحل بجنوده عنَّا وعن أرضنا.

– أتريد أن توردَ الناس موارد الهلاك؟... ماذا يستطيع أن يفعل شعبٌ أعزل أمام جيش لم يُغلب ولم يهزم في موقعةٍ قط!؟

– لا تنس يا مهدي أنَّ هذه هي القاهرة، وليست المقهورة...

– القاهرة عندما تملك زمام أمرها، ولا تكون محكومة من الغرباء يا شيخ جوسقي، مصر الآن مشتتة وغير قادرة على مواجهة المماليك الذين فروا كالجراد من دقات طبول الجيوش الفرنسية.

– اتق الله يا شيخ مهديّ، ولا تحطِّم روح الشعب الذي لم يخض معركة مع أقوى العُتاة، إلاَّ وكتب الله له النصر.

لم ينته الحاضرون إلى رأيٍ يرتضيه الجميع، فتفرَّقوا على أن يتابعوا مناقشة الأمر في الغد.

في المساء شاهد أهل القاهرة نابليون يسير في موكبٍ كبير، يحيط به قُوَّادُه، ويسير خلفه الجنود قاصدين بيت الشيخين (الشرقاوي) و(السادات) لزيارتهما والتقرُّب إليهما.

* * *

-٢٢-

خسارة البشتيلي المزدوجة

تذكَّر الحاج مصطفى البشتيلي، وهو يجلس ذات يوم في بيته، أحداث الأيام القليلة الماضية، وابنته وداد ترقد مريضةً في حجرتها، وزوجها بعيدٌ لا يعرف أحدٌ مصيره، وقد ذهب بكل ما حمله أبوها إليها بمال وحليٍّ.

أسهم الحاج مصطفى في الدفاع عن القاهرة. دفع من ماله، ليشتري الرجالُ البنادقَ والبارود والسلاح بكل أنواعه... وعندما قلَّب حساب الأرباح والخسائر، شعر بأنَّه غُبِن في الأمرين، كما لم يُغْبن في حياته.

لقد ذهبتْ قوةُ المماليك، وتبدَّد سلطانهم، وخسر ماله، واهتزَّ كيانُ ابنته، فلزمت فراشها حيث لا يرجى لها شفاء، وفي الأمر الثاني: رأى الفرنسيين قد استقرَّ بهم المقام، وهدأت ثورة الناس، كأنَّهم نسوا ما ذَهب من أرواح، وما سُفك من دماء، وما أُنفق من مال!

كانت آثار المعركة مازالت في بيته متمثلة بهذا البارود والسلاح الذي خبَّأه بعد أن انتهت المعركة بنتيجتها المعروفة.

وفيما كان يجلس سمع طرقاً على الباب، واستقبل زائراً لم يتوقَّع رؤيته في بيته. كان الزائر هو بارتلمي، وحين أُغلقَ البابُ عليهما قال الحاج مصطفى:

- ماذا جاء بك إلينا يا بارتلمي؟

– أنت تعرف يا حاج مصطفى أنني أحبُّك، وأحب ولدك. لقد كنت دائماً موضع رعايتكما في الأوقات العصيبة. لكني الآن غير مسرور، لأن إبراهيم يسير مع قوم ليسوا موضع الرضا من أحد، وهم يتحدثون كثيراً ويوجِّهون النقد إلى الجنود الفرنسيين، وإلى المشايخ الذين تألَّف منهم الديوان. أيظنُّ إبراهيم أن الشيخ الجوسقي الأعمى، وسُليمان الحلبي وغيرهما من صغار العلماء يستطيعون أن يغيِّروا ما رسمه القائد العام! وما أقرَّهُ كبار المشايخ!!؟

دُهِش الحاج مصطفى من زج بارتلمي بنفسه في هذه الأمور، كما شعر بالدهشة لاستقامة لسان بارتلمي على نحو غير معهود. تغلب على دهشته وسأله:

– وما شأنك أنت وهذا!!؟

قال بارتلمي بما يشبه المباهاة:

– لقد عُيِّنتُ مساعداً للقائد ديبوي حاكم القاهرة، وقد جئتُ لأخبركَ بهذا لأنني أقدِّرُ معروفك وفضلك السابق عليّ. إن الشيخ الشرقاوي رئيس الديوان، قد أصدر بياناً إلى الناس، يُعلن فيه الأمان، ويدعو الناس إلى الهدوء والسكينة، والعودة إلى متاجرهم وسائر أعمالهم. وولدك ومن يسير في ركابِ الشيخ الجوسقي يدعون الناس إلى خلاف ذلك.

– وماذا تريد مني يا بارتلمي؟!

– أن تطلب من ولدك أن يكفَّ عمَّا يدعو الناس إليه، وأن يبتعد عن هذه الجماعة... إنِّي أخشى أن يأمر القائد العام باعتقالهم. إنَّهم يجتمعون في بيتٍ بالجمالية، يؤمُّه الناس، وكل ما يحدث بينهم يُنقل إليّ. إنَّ لي أتباعاً في كلِّ مكان.

ساد الصمت لحظةً، والحاج مصطفى ينظر إلى هذا الأوروبي الذي سارع عندما رأى الجيوش الفرنسية تغزو البلاد، إلى بيع نفسه لهم، ناسياً أن مصر أسبغت عليه ظلَّها وعاش سنوات مع أولاده يأكلون من خيراتها. ألحَّ عليه سؤال، لم يشأ أن يكتمه في نفسه، فسأل الأوروبي:

– لماذا اخترت هذا السبيل؟!... أتظنُّ أن الفرنسيين سيظلُّون على هذه الأرض إلى الأبد؟!

قال بارتلمي بثقة:

– لا يمكن أن يخرجوا منها أبداً. إنَّ قوَّتهم تهدُّ الجبال.

فقال الحاج مصطفى:

– ولكن هذه البلاد قد آوتك دهراً، وكان أهلها كرماء معك، فلماذا ترسل عيونك وراءهم، وهم يقاومون عدوَّهم وعدوَّ وطنهم.

نهض بارتلمي، وكشَّر عن أنيابه قائلاً بكبرياء وخيلاء:

– يا حاج مصطفى أنا سأنسى هذا الكلام. وأحذرك من ترديده في أيِّ مكان. إنَّ بعض الأهالي في الإسكندرية قد قُطعتْ رؤوسهم لأسبابٍ أقل من مثل كلامك هذا...

قاطعه الحاج مصطفى صائحا به:

– أيَّها الوغد القذر... أتظنُ أنَّك تخيفني بهذا الكلام!؟

وظلَّ بارتلمي يردِّد: إني ... إني...

لكن الحاج مصطفى مضى يهدر بغضب:

– اخرج من بيتي أيُّها الكلب، يا ناكر الجميل. اخرج.

سارع بارتلمي إلى الخروج وهو يهدد ويتوعد، في حين دفع الحاج مصطفى الباب وراءه بعنف، وبعد لحظات أقبل إبراهيم وسليمان، فقصَّ عليهما الحاج مصطفى ما جرى مع بارتلمي، وما ذكره في كلامه، قال إبراهيم: لا تخشى شيئاً يا أبي، إنَّنا لسنا وحدنا الذين يقاومون الفرنسيين، ويدبِّرون الأمور لطردهم. إنَّ الناس جميعاً في المعركة، لا يسمو فردٌ على فردٍ في النضال والجهاد، ولن يؤخر انضواء بعض القادة تحت جناح الغاصب من مصيره المحتوم، وطرده من أرض الوطن.

شعر الحاج مصطفى حين سمع ابنه يلفظ عباراته بحماس واندفاع، بشيءٍ غامض، فقد شعر قلب الأب في صدره بالاضطراب والفزع، في حين شعر على جانب آخر بالفخر من ابنه.

كان إبراهيم ولده الوحيد الذي يحمل اسمه، ويبقى ذكره في الدنيا، وكان هذا الابن هو دعامة أسرته من بعده، والشجرة التي تستظلُّ في فيئها أخواته وأمه.

لم يجب الحاج بشيء، وطوى ما يضطرب في قلبه من مشاعر وأحاسيس إلى وقتٍ آخر، ثمَّ نقل بصره إلى سليمان... كان وديعاً كعهده به، رقيقاً لا يكادُ يشعر الناس بوجوده، وقال له: وأنت يا ولدي ، ألم يحن الوقتُ لتعود إلى بلدك وأهلك؟

- ألستُ بين أهلي وفي بلدي يا عمي!؟

- بلى ...

- عسير على المرء يا عمي أن يفارق أهله وهو يراهم في شِدَّة. إني لا أرى لي قدرة على حمل السلاح وخوض المعارك، لكن حسبي أن أشاركهم شعورهم، لأشعر بالرضا، وتملأ نفسي بالسعادة، أتظنُّ يا عمي أنَّ العدوَّ إذا استقرَّ هنا سيترك الشام تعيش بأمان؟... لم يحدث في أيِّ وقت من الأوقات، أن غزا الشامَ عدوٌّ إلاَّ وقصد بعدها مصر، لتتمَّ الحلقة، ويحقق لنفسه النصر.

كذلك لم يحدث أن غزا عدوٌّ أرضَ مصر إلاّ وقصد بعدها الشام. كأنَّ القدر قد كتب لنا منذ الأزل مصيراً واحداً.

كان منطق الشاب قوياً ومقنعاً في الوقت نفسه، لذلك لم يشأ الحاج مصطفى أن يطيل في جداله فقال: أنت على حق يا ولدي...

وبينما هم في حديثهم أقبلت الخادمة، وقالت بصوت مضطرب للحاج:

- سيدتي وداد تريد أن تراك.

سأل بلهفة:

- ماذا هناك؟... هل أصابها مكروه؟؟

قالت الخادمة:

- لا شيء. لقد استيقظت وطلبت أن تراك.

قال الحاج:

- تعال معي يا إبراهيم.

ثمَّ نظر إلى سليمان وقال:

- وأنت يا ولدي تعال، لست غريبا عنَّا.

مضى الجميع إلى حجرة الفتاة، وحين رأتهم أشرق وجهها بابتسامة رقيقة راضية. كانت تستند إلى حشيَّةٍ وُضعتْ إلى جانب الجدار، وبدا وجهها الشاحب، وعيناها الواسعتان اللتان تلمعان ببريق هادئ وتنظران إلى الناس والأشياء بِدِعَةٍ واطمئنان، صورة من صور النبل الطاهر.

جلس أبوها بجانبها على الفراش وظلَّ إبراهيم وسليمان واقفين أمامها.

قالت بصوت خفيض:

- إنَّني بخير إذ أراكم الآن جميعاً معي، يضمُّنا هذا المكان.

سكتت لحظة كأنَّ الكلمات القليلة التي نطقت بها، قد استنفدت جهدها، وكان سليمان مطرقاً إلى الأرض لا يكاد يرفع بصره عنها، وقلبه يضطرب بقوَّةٍ في صدره، وسمع في إطراقته تلك وداد تقول له:

– سليمان سأموت اليوم أو غداً.

– لا... لن تموتي يا أختي. إنَّك بخير.

أغمضت عينيها لحظةً وقالت:

– كل الناس يذهبون، ولكني أحب أن أقول لك شيئاً قبل أن أمضي، وليسامحني أبي، إنَّه ما كان لي أن أحبَّ أحداً غيرك، وأُسلم نفسي إلى إنسان سواك... إنَّني لم أنظر وجهك إلاَّ الليلة. الناس يستطيعون أن يتحابُّوا على البعد مادامت قلوبهم صافية.

كانت كلماتها الأخيرة تأتي متقطعةً كأنَّها تعاني في إخراجها، ولم تستطع أن تفتح عينيها، ثمَّ ما لبثت أن قالت بصوت لا يكاد يبين، لم يسمعه إلاَّ أبوها:

– إِّني متعبة... أريد أن أستريح...

امتدت يدُ الأب إليها، فاعتمدت وداد عليها، وألقت بجسمها الواهن على الفراش، وسحب أبوها الغطاء عليها، وظلَّ جالساً بجانبها لحظةً، فرأى صدرها يعلو ويهبط في بطءٍ ثقيل، وطافت بسمةٌ خفيفةٌ على وجهها، مرَّتْ سريعاً واختفت، وراحت أنفاسها تتصاعد بهدوء، فقال أبوها: لقد نامت.

ونهض واقفاً ونظر إلى سليمان، فرأى دمعةً تلمع في عينيه، فأخذه من ذراعه، ومضى به إلى الخارج.

لم يأسف الحاج مصطفى على شيء في حياته كما أسف على تفريقه بين هذين القلبين الصافيين.

عند الفجر سمع سليمان في حجرته من يطرق الباب بحذر طرقاتٍ

خفيفة. نهض، وفتح الباب، فطالعه أحد الملاحين الذين يشاهدهم على ظهر السفن الشراعية في النيل. شاب قصير القامة، يرتدي جلباباً قصيرا، له فتحةٌ واسعةٌ على صدره، ويشدُّ وسطه بحزام من التيل. حين رآه قال سليمان: ماذا تريد؟

- معي رسالة إلى الحاج مصطفى البشتيلي. أُمرتُ أن أُسلِّمها له يداً بيد.
- من أين قدمت بهذه الرسالة؟
- ليس من حقِّك أن تعرف. سر بي إلى حيث ألقاه، فإنَّ عليَّ أن أعودَ قبل أن تشرق الشمس.

تردَّد سليمان فترة من الوقت مفكِّراً، قبل أن يسعى إلى فناء البيت لينادي الحاج مصطفى. ثم فعل ذلك فأطلَّ الحاج يسأل ما الخبر، فحدثه سليمان عن الملاَّح الذي يحمل رسالة، أسرع بالنزول إلى حيث يقف الملاَّح وتناول الرسالة من يده، وراح يطالعها على ضوء القنديل المعلَّق على الجدار، وسليمان ينظر إليه ويتأمَّل ما يبدو عليه من أمارات.

رأى وجهه يشرق بالفرحة، ثمَّ ما تلبث أن تخبو، وتحل محلها الكآبة والاشمئزاز، وحين فرغ من قراءتها قال للملاّح: اذهب فلا ردَّ عندي لرسالته.

- هل أقول له: إنك لن ترد عليها؟
- نعم لن أردَّ عليها.

هزَّ الملاح كتفه وقال:

- أنت وما تريد...

وخرج الملاح، فقام سليمان بإقفال الباب خلفه، وحين التفت إلى الحاج مصطفى رآه ينظر إليه فلا يكادُ يرفعُ نظراته عنه وقال:

- سليمان... إنَّ عبدالله كاشف قد أصابته رصاصةٌ وهو ينسحب بفرسانه

أمام الفرنسيين، مراد بك يقدم لي العزاء، ثمَّ يريد أن يعوضني عن فقده بطلب يد ابنتي لنفسه...

قال سليمان:

- يا له من نذل!!...

أدنى الحاج الرسالة من القنديل فاشتعلت فيها النار، ثمَّ ألقاها على الأرض فاحترقت في بطء، وحين أصبحتْ رماداً داسها بقدمه، كأنما يريدُ أن يأتي على كلِّ سببٍ شدَّهُ إلى هؤلاء القوم.

ثمَّ وضع يده على كتف سليمان وقال:

- إنَّ وداد ستكون من نصيبك.

ردَّد سليمان في ضراعة:

- أرجو أن يَمُنَّ اللهُ عليها بالعافية...

وبدأ نزر الصبح يتسلَّل خلال النوافذ والأبواب ليضيء الحجرات والقاعات، وفتحت وداد عينيها وملأتهما من النور الصافي الجميل، ثمَّ أغمضتهما ثانيةً في رضىً واطمئنان.

* * *

-٢٣-

وفاء النيل

استقر الجيش الفرنسي شهراً في مدينة القاهرة. شعر نابليون بعد هذا الهدوء، وبعد أن انضوى بعضُ الشيوخ في ظلِّه، وصاروا تحت سيطرته، أن البلاد قد هدأت ورضيتْ عن وجوده ووجود جيشه، وساعد على تأكيد هذا الشعور في نفسه ما بدا له من عودة الحياة إلى سيرتها الأولى، وفتح المتاجر والأسواق التي ظلَّت مغلقة فترةً من الزمن.

وفي الصباح، وقبل أن تُشْرق الشمسُ، جلس نابليون في ظلِّ شجرة كبيرة في حديقة قصر محمد بك الألفي بالأزبكية، وكان يقف على مقربة منه القائد ديبوي حاكم القاهرة...

كان كلُّ شيء هادئاً حوله، حتى الطيور التي كانت تملأ السماء بأصواتها مع إقبال النهار، بدت كأنما ودَّعتِ المكان... قال نابليون:

- أين فانتور؟

قال ديبوي: لقد أرسلت في طلبه...

قال نابليون: كان من الواجب أن يحضر دون أن ترسل إليه، إنه يعلم أني أريده في هذا الوقت، كنت أود لو انخرطَ هؤلاء العلماء في سلك الجيش، وعملوا فيه ليتعلموا النظام... كيف حالُ أهل القاهرة؟

قال ديبوي: لم أر شعباً مستسلماً وديعاً كهذا الشعب.

قال نابليون وهو ينظر إلى البعيد: سيمكننا ذلك من تحقيق كلَّ ما نريد، إنَّنا لم نأتِ إلى هنا لنقيم حفلة القاهرة، علينا أن نحتل الشام أيضاً، ونقيم دولتنا الكبرى في الشرق...

سكت لحظةً ثمَّ قال وهو يتأمَّل السماء الصافية التي أشرقت بالنور:

- يُخَيَّل إلي أنَّ العالم كلَّه سيصبحُ في قبضة يدي، إنَّني بهذا الآن... يجب ألاَّ أحتجز هذا الجيش العظيم هنا بعد أن استقرَّ الأمر، وساد الهدوء... هذا جيشٌ خُلِقَ لصنع المجد.

نظر إلى فانتور لحظةً ثمَّ تابع كلامه:

- ماذا تشيرُ علينا لنزيد من حبِّ هذا الشعب وثقته بنا؟ ذلك ضروريٌّ لإحراز النصر الذي نسعى إليه.

قال فانتور: لقد أعدَدْتُ خطتي لهذا الأمر يا سيدي القائد. إنَّ قلوب أهل هذه البلاد لن تقفَ ساكتةً فحسب، بل ستتجهُ بعواطفها نحوك، وترجو لك النصر.

قال نابليون بفرح: سيكون هذا رائعاً...

قال فانتور: غداً تبدأُ خطتنا لكسب محبَّةِ وثقة شعب هذه البلاد.

فتلفَّظ نابليون بكلمات مفاجئة: إنَّ الجيش تحت أمرتك في كلِّ ما تأمر به يا أستاذ فانتور.

* * *

صباحاً، بدأ جنود الجيش الفرنسي يقومون بأغرب عملٍ في تاريخ الجيوش، كانوا يرفعون الزينات والرايات على النيل، ويزيِّنون السفن بالأعلام... وقبل الغروب أرسلوا المنادي يعلنُ أن «وفاء النيل» سيحتفل به في الغد، وإنَّ الجيش وقائده، وسائر أعضاء الديوان، من العلماء والأعيان، سيحضرون الحفل مشاركة منهم للشعب في أفراحه وأعياده، وتأكيداً لأواصر المحبة والتضامن التي تربط الشعب بالجيش. أعلنوا أنه تمَّ تحديد صباح اليوم للاحتفال.

بدأت فرقة موسيقا الجيش الفرنسي تسير في الشوارع، وهي تعزف ألحاناً، وهي في طريقها إلى مكان الاحتفال في (الروضة) وعند العصر، خرج نابليون يحفُّ به أعضاءُ الديوان وقادةُ الجيش، ومن خلفهم الجنود، قاصدين إلى مكان الاحتفال.

تعوَّد الناس في مصر، على اختلاف أجناسهم ودياناتهم، أن يحتفلوا بيوم «وفاء النيل» احتفالاً عظيماً تعمُّ فيه البهجة والسرور، وتمتلئ الشوارع بالأطفال والنساء والرجال، يسعون بفرحة إلى النيل يغنون أغنياتهم، ويصفقون على أصوات الدفوف.

وقف نابليون على شاطئ النيل الذي بدا ماؤه عكراً مضطرباً، ومال الشيخ المهدي إلى أُذن الأستاذ فانتور قائلاً: إن الشعب سيفرح لمشاركة القائد العام له في عيده العظيم فرحاً كبيراً، وسوف يقدِّر هذا العمل تقديراً عظيماً.

هزَّ فانتور رأسه، ولم يجب بشيء. فعاد المهدي يقول: إنني أرسلت المنادين إلى مكان يدعون الناس إلى النزهة بالسفن على نفقة الجيش.

مضى الوقت بطيئاً في سمع الأستاذ فانتور وبصره. كان يُقلِّب بصره ذات اليمين وذات الشمال بين حينٍ وحين.

مرَّت ساعةٌ وبدا القلق على وجه الشيخ المهدي، إنَّ أحداً من الناس لم يحضر، حتى الأطفال الذين كانوا يملؤون الشوارع كلَّ يوم اختفوا، كأنَّ الأرض قد ابتلعتهم.

أدرك نابليون الموقف على حقيقته، وعلم أن الشعب قاطع الحفل وامتنع عن المشاركة فيه.

كان المرء الذي يسعى في شوارع القاهرة وأحيائها، يشهد أشياء رائعة، فقد وقف الصبية عند أبواب الحارات، وعند مفترق الطرق، يمنع بعضهم بعضاً من الخروج لحضور الحفل، وأغلقت النسوة الأبواب على أزواجهن وأولادهن. وهكذا

مضى هذا اليوم كئيباً في أعين أعضاء الديوان والقادة الذين شهدوا الاحتفال على النيل.

شعر نابليون في أعماقه بالمهانة، فبدا وجهه الذي كان مشرقاً في بداية الحفل، كئيباً مقطَّب الجبين، كأنه خرج من إحدى معاركه مهزوماً مدحوراً.

عند مفارق الطرق وقف الأهالي يشاهدون العائدين من الحفل، وعلى شفاههم ابتسامات ساخرة.

هزَّ الموقف الذي وقفه الشعب من احتفال الجيش الفرنسي، نابليون هزَّاً عنيفاً، فبدا ثائراً كوحشٍ جريح، وسمع صياحه أكثر من مرَّة إلى خارج القصر الذي يقيم فيه في الأزبكية.

كان يصيح:

– لن أصبر على هذه الصفعة الموجهة إلى شخصي، لن أقبل هذا الإذلال من أي شعب. يجب أن أنتقم.

خلال صياحه نأى عنه أقرب الناس إليه. في حين كان بارتلمي يقف منكمشاً كفأر مذعور.

قال نابليون:

– يجب أن أعرف من الذين دعوا إلى مقاطعة احتفالنا.

قال بارتلمي:

– إنَّ عيوني تؤكد أن أحداً لم يدعُ إلى شيءٍ من هذا. كان الناس جميعاً على اتفاق دونما دعوة...

قاطعه نابليون بحدَّة:

– أيُّها الأحمق الغبي... لا يمكن أن يُجمعَ الناس على أمرٍ ما لم يدعهم إليه أحد.

قال بارتلمي:

– لكن هذا الأمر...

لم يتمَّ جملته حتى صاح نابليون بعنفٍ وغضب: صهٍ. يجب أن يُقبضَ على من حرَّض الشعب علينا.

قال بارتلمي:

– أمرك يا سيدي.

صرخ نابليون:

– اخرج.

أسرع بارتلمي يهرول إلى الخارج، وكان ديبوي يقف على بعد خطوات من القائد العام، يتأمَّلهُ، ويتفرَّس في ملامح وجهه بين لحظة وأخرى، وسمع نابليون يقول بصوت متعبٍ مخنوق:

– إنَّ هزيمتي في معركة لا تجعلني أسوأ مما أنا فيه الآن.

وضحك ضحكةً لم يفهم ديبوي مرماها، ثم أردف قائلاً:

– أين الرسائل؟

قال ديبوي وهو يتأمَّل وجه نابليون:

– من الخير أن نرجئها إلى الغد. إنَّك تبدو متعباً.

قال نابليون:

– لماذا؟!؟... ربما نجد فيها شيئاً يخفِّفُ عنَّا ما لقيناه من مقاطعة هذا الشعب لنا، اقرأها عليَّ وعجِّل.

تردَّد ديبوي لحظة، ثمَّ بدأ يفضُّ رسائل القائد العام، ويطالعها بصوت خفيض، خلا من كل انفعال:

– من القائد (مينو): «أحرقت اليوم قرية السالمية، وقتلت تسعةً من أهلها لأنهم هاجموا شرذمةً من جنودنا، وقتلوا ثمانية منهم... آملُ أن يعتبر الأهالي بهذا الدرس، كما يعتبرُ منه أهالي وادي النيل».

– من القائد مينو: « فقدت عشرين جندياً، وعدت بتسعة عشر جريحاً، في معركة بين فصيلتي وأهالي كفر شباس عمير والقرى المجاورة لها، وقد انسحبت. إنَّ إخضاع القرى يتطلب قوَّةً كبيرة، مسلحة بالمدافع».

صمت ديبوي لحظةً، ورفع بصره إلى نابليون فألفاه واقفاً في وجوم، وقد عقد ذراعيه على صدره، وأسند أسفل وجهه على قبضة يده اليسرى. فقال ديبوي:

– ألا يرى القائد العام، أن نرجئ الرسائل إلى الغد؟

فأجاب نابليون:

– اقرأها.

عاد ديبوي إلى الرسائل ليقرأ: «احتشد أهالي رشيد وادكو وفوه وشابور وفاجأوا قواتنا، وكبَّدونا بعض الخسائر، إنَّنا بحاجة إلى ألف وخمسمئة جندي، لنواجه ثورة الفلاحين وأهل القرى.

هاجم الأهالي مخافر الجيش بالخانكة، فاضطرت قوات الجيش إلى الانسحاب حتى المرج.

– في بلبيس هجم الأهالي على القائد رينيه وجنوده، واضطروهم إلى الانسحاب، بعد أن تركوا وراءهم عدداً من القتلى. في الصالحية... وفي الدقهلية...»

صرخ نابليون مقاطعاً ديبوي:

– كفى.

وبعد أن ساد الصمت، أردف نابليون:

– أصدِر الأمر بتعبئة سائر قوات الجيش. غداً سأسير على رأس قواتي لإنقاذ الموقف.

نظر ديبوي إلى نابليون، وقد فَغَرَ فاهُ من الدهشةِ، وحين رأى نابليون حالته قال:

– ماذا هناك! أيدهشك أمري؟!

– لا يا سيدي. ولكن أرى غيرك من القادة، يستطيع أن يقوم بهذا العمل. إنَّك أعلى قدراً من أن تسير على رأس جيشك الذي هزمت به أقوى جيوش أوروبة، لتحارب به الفلاحين في مصر.

سكت نابليون، وتأمَّل وجه ديبوي لحظةً، ثمَّ قال بهدوء ورويَّة:

– إنَّها تبدو في رأيي أعظم معاركي. لو كنتُ أواجه جيشاً، لانتصرت عليه في غضون ساعات، لكني الآن في مصر أواجه شعباً بأسره، ألا ترى أن الأمر عسيرٌ وصعبٌ؟... لم يحدث أن واجهت شعباً من الشعوب من قبل، في كلِّ معاركي السابقة في أوروبة. إنَّ الشعوب هناك، تبدو في سبات عميق، أمام ما شاهدته هنا!

بدأ صوت نابليون يعلو ويعنف:

– لكني سأنتصر على هذا الشعب. لم آتِ إلى هنا ليتفرَّق جيشي الكبير بين القرى ويرابط في الحقول. لقد جئتُ لأؤسسَ دولةً كبرى، ليس ثمَّةَ فاصلٌ يفصلنا عن آسيا وأفريقيا... يجب أن أنتصر في معركتي. ولكي تفتح أمامنا جميع أبواب المجد، وتسود فرنسا العالم، سأضرب بقوة، وبلا رحمه، أيَّاً كان خصمي، ضعيفاً أو قويَّاً... سأضرب بكل قوة.

سار نابليون إلى مكتب في ركن القاعة، وجلس إليه، وبدأ يخطُّ بقلمه على بعض الأوراق وكأنه في عجلة من أمره، ثمَّ يلقي بما يسطره على الورق إلى القائد ديبوي الذي تسمَّر أمامه، وبدت الدهشة على وجهه من تصرفات قائده نابليون. تأمَّل ما خطَّه القائد العام ازدادت دهشته التي قطعها نابليون عندما قال بكلمات حادة، لا تحتمل جدالاً أو نقاشاً:

– نفِّذ هذه الأوامر. إنَّ على هذا الشعب أن يدفع غالياً ثمنَ تحدِّيه لي.

رفع ديبوي يده مُحَيِّياً وقال:

- سأنفِّذُ أوامرك يا سيدي...

لم ينتظر نابليون حتى يتمَّ ديبوي كلامه فقال:

- ماذا تنتظر!؟... يجب أن تنفذ أوامري فوراً.

أدَّى ديبوي التحية واستدار على عقبيه، ومضى خارجاً، وحين خلا إلى نفسه، فكَّر في أوامر قائده، لقد صحبه كثيراً، بل كان أكثر الضباط ملازمة له، لقد عرف فيه رباطة الجأش، وتحمُّلهِ للمكارهِ بِجَلَدٍ وصبرٍ عظيمين... ما باله اليوم قد خرج عن طوره!!؟... وما باله يهدم في ثوانٍ قليلة بأوامره التي خطَّها كل ما بناه في شهور!... أدرك ديبوي بفطنة المُجرِّب الذي حنَّكته الأيام أن نابليون، النجم الذي ارتفع في سماء العرب، والنسر الذي حلَّقَ فوقَ أوروبة، وملأ قلوب الملوك والأمراء والدول رُعباً، قد استفزَّه هذا الشعب الهادئ الوديع، وهزَّ كبرياءه على نحوٍ أفقده رباطة جأشه وجَلَده وصبره. لقد ترك نابليون سبيل اللين والسعي إلى كسب ثقة الشعب، ليجرِّبَ سلاحاً جديداً هو سلاح العنف والبطش، وهكذا دفع الشعب، هذا الغاصب إلى أن يسفر عن نياته، ويبيِّن عن طبعه، ويكشف عن حقيقة مطامعه.

* * *

-٢٤-

هروب المخرز

جلس - بعد صلاةِ العِشاء - جماعة من علماء الأزهر، في ركنٍ من أركان الجامع الأزهر- بعيداً عن الأنظار- وكان من بينهم الشيخُ إسماعيل البراوي ويوسف المصيلحي وعبد الوهاب الشبراوي وسليمان الجوسقي وأحمد الشرقاوي ومعهم بعض الطلاب والأهالي؛ وكان المسجدُ قد خلا من المصلين، تحدَّثوا عن الغرامات التي فرضها نابليون على تُجَّار القاهرة، وعن هدم بعض البيوت، وعن تحطيم بعض أبواب الشوارع والحارات، ونصب المدافع حول المدينة، كما تطرقوا إلى مسألة قيام الجنود باقتحام بعض المنازل ليحصوا أموال الناس حتى تفرض عليهم الضرائب. وأيضا قتل بعض الناس في غير مكان. لكن الحديث الأهم كان مواجهة الأعمال الوحشية التي تحدَّى بها نابليون أهل القاهرة.

بدأت الأصوات ترتفع شيئاً فشيئاً تطالب بحمل السلاح لمواجهة الجيش المحتل، وصرخ رجل في طرف المكان:

- علينا أن نحمل السلاح وندفع عن أنفسنا الشرّ والبغي...

وقال ثانٍ:

- أتظنون أنَّنا قادرون على مواجهتهم، فكيف إن طمحنا بأن نغلبهم!؟

فردَّ ثالث:

- وهل يسكت على الذل إلاَّ الكلب الحقير!؟

قال الثاني:

- يقول أعضاء الديوان، وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوي: إنهم الصلة بيننا وبين الفرنسيين، دعونا نطلب منهم التدخُّل لمنع الأذى والشر.

فقال الشيخ الجوسقي:

- دعوا أعضاء الديوان جانباً فليسوا منَّا ولسنا منهم.

وبينما هم في حديثهم هذا رأوا شخصاً يُقبِلُ من بعيد، ظلَّ يقترب حتى دنا منهم وقال: السلام عليكم. فردُّوا عليه السلام.

أخذ مكانه بينهم، فسأله الشيخ الجوسقي:

- هل من جديد يا حجَّاج؟

قال حجَّاج:

- إنِّي قادم الآن من قليوب... إن الفلاحين يقاتلون الفرنسيين في كلِّ مكان. يقتلون منهم ويأسرون العدد الكثير، وقد خرج نابليون بأكثر جيشه منذ أيام ليحاربهم. لقد أمر بحرق الكثير من القرى، لكن ذلك لم يُجدِهِ نفعاً، فما يكاد يبتعد عن القرية التي أحرقها حتى يتَعَقَّبُهُ أهلُها.

قال أحد الحاضرين:

- لسنا أقلَّ من الفلاحين غيرةً على حرماتنا وكرامتنا...

قال آخر:

- إنَّ الفلاحين يفرُّون إلى الصحراء والحقول، لكننا في مدينة بين أسوارٍ، ونصبت حولها المدافع.

نهض ثالثٌ واقفاً وقال في ضيق:

- إنَّنا نفكِّرُ كثيراً ولا نعمل شيئاً، والفلاحون يعملون كثيراً من دون أن يضيِّعوا وقتهم في مثل هذا الجدل.

قال الأوَّل:

– إنَّ أقلَّ القليل أن نطالبَ بإغلاق المتاجر غداً.

وقال السابق:

– لماذا لا نحمل السلاح؟!

فقال الأوَّل:

– إننا لا نتجاوز الثلاثين فرداً... والشعبُ لم يقرِّر بعد...

تعالت الأصوات:

– **إذن نعلن الإضراب غداً.**

اتفق رأيهم على الإضراب، وخرجوا من الأزهر، وتفرَّقوا في الأحياء، ليعلنوا للناس قرارهم.

في اليوم التالي لم يُفْتح في القاهرة كلها متجرٌ واحد. خلت الشوارع من الناس، إلا لماماً...

ذُهِلَ الفرنسيون عندما رأوا الشعب كلَّهُ يُجْمِعُ على أمرٍ واحد... وبدأت وحدةُ الشعورِ بين الناس تُؤَرِّقهم، فأصدر ديبوي أمره إلى الجنود بأن يكونوا على أهْبَةِ الاستعداد للعمل والقتال في أي وقت، وبأي حال.

عند الظهر بدأ الناسُ يخرجون من البيوت إلى المساجد للصلاة. كانوا يتلاقون على غير معرفة سابقة، فيسلمون على بعضهم البعض، وسرعان ما يشعرون بالتآلف والمحبة تغمر الصدور.

بدأت الجموع تتدفَّق على المساجد وبدت من بعيد وكأنها كتلة واحدة تتحرَّك، يربطها شعور قويٌّ لا سبيل إلى فصمه.

حين أنهى القوم صلاتهم في الجامع الأزهر، سمعوا صوت امرأةٍ كانت تصلِّي خلف الصفوف تقول:

- أيُّها الرجال، هل ذهبت عنكم النخوة؟!... أم فارقتكم الغيرة، حتى يدخل الفرنسيون على نسائكم وبناتكم بيوتهنَّ فلا ترفعون صوتاً، أو تحدثون أمراً!!؟

وكأنَّما هذه المرأة المجهولة صبَّت الزيتَ على النار. فاشتعلت الحماسة في الصدور كاندلاع النار في الهشيم.

فجأة انبثقت الصدور عن ألم مكنون فيها منذ زمن، وارتفعت الأصوات من كل جانبٍ، وارتقى الطلاب المنابر، واختلطت الأصوات، وعلت الصيحات... ولم تمض سوى دقائق قليلة، حتى انطلق الناس كالسيل في الشوارع، ففرَّ الجنودُ مذعورين... ونادى المنادي:

- إلى بونابرت... إلى بونابرت...

تجاوبت المآذن من كلِّ مكانٍ تردِّد:

- الله أكبر... حيِّ على الجهاد... الله أكبر... حيِّ على الجهاد...

تجاوبت المآذنُ من كل ناحية تردِّد:

- اللهُ أكبر، حيِّ على الجهاد... الله أكبر... الله أكبر... حيِّ على الجهاد...

ومضى الناسُ كالموجِ الزاحفِ في طريقهم إلى الأزبكية، مارين ببيت القاضي وبين القصرين، وهناك رأوا كتيبةً من الجنود الفرنسيين على رأسِها القائد ديبوي الذي حاول مخاطبة الجماهير... لكن الجماهير قطعتْ عليه حديثه، فأصدر أمره بالهجوم على الناس...

ارتدَّت الجموع أوَّل الأمر إلى الوراء، ثمَّ اندفعت إلى الأمام كالسَّيلِ وهي تصيحُ:

- إلى بونابرت ... إلى بونابرت...

سمع الناسُ أصوات جياد تعدو نحوهم من جهة باب الوزير، ثمَّ أطلَّ عليهم بعد لحظةٍ من فوق ظهر أحدِ الجياد (بارتلمي) بوجهه الكريه وسحنته البغيضة...

أراد بارتلمي أن يظهر ولاءه لسيِّده الذي بدأت الجماهير تزحف إلى مواقعه، فأخرج غدَّارته، وأطلق النار منها على الناس... تبعه رجاله وصوَّبوا غدَّاراتِهِم تجاه الناس وأمطروهم بوابل من النيران.

تساقط الكثيرون جراء إطلاق النار، ورأى بعضهم إخوة لهم كانوا يسعون أحياء منذ دقائق، يسقطون جثثاً لا حراك بها، ورأوا الدماء الساخنة التي كانت قبل لحظات تجري في عروقهم تنفر من ثقوب الرصاص وتضرِّج الأرض بلونٍ قانٍ...

فقد الكثيرون شعورهم بالخوف، واندفعوا لا يبالون بمصيرهم، وبما يلاقونه جرَّاء إطلاق النار، لا هدف لهم سوى الانتقام لإخوتهم الذين قتلهم البغي والبطش.

سقط ديبوي عن حصانه وراح يتلوَّى على الأرض، ويصرخ من الألم. سقط بجانبه أحدُ ضبَّاطه... وفرَّ بارتلمي وجنودُه أمام الشعب، وانطلقت الجماهير في أثر الجنود تطاردهم في كلِّ مكان ...

استولى الأهالي على باب زويلة، وباب الشعرية، وتمت عملية محاصرة الفرنسيين في الأزبكية. انتصر الشعب الأعزل الذي خرج ليرفع صوته بالمظالم على السلاح، وعندما لقيه الطغاة بالحديد والنار، واجه المخرز بالعين، فهرب المخرز.

لم ينم أهل القاهرة والمصريون الذين وقفوا معها في ذلك اليوم المشهود. أمضوا الليل يُحَصِّنون مواقعهم، ويبنون المتاريس في أفواه الشوارع، ويقفون وراءها ببنادقهم وعصيِّهم وأسلحتهم البيضاء.

انطلق فريق من أهل القاهرة إلى القرى المجاورة يحضُّونهم على الدفاع عن المدينة، فلبوا النداء و تحدوهم نخوة عربية متأصلة في نفوسهم، وهُرِعَ الريفيون إلى القاهرة يشاركون في الكفاح والجهاد.

شهد الفجر أفواجاً لا تحصى من الفلاحين من مختلف القرى القريبة من القاهرة، يتوافدون على المدينة، ويشقُّون شوارعها يحملون السيوف والمُدى والرماح والعصي والبطلات والطبنجات وبعض البنادق.

استقبلهم المصريون بفيض من الترحيب والتهليل والتأهيل، وعلت الأصوات بالتكبير.

أعدَّ الثوَّار العُدَّة للهجوم على معسكر الفرنسيين في الأزبكية. رابطت كتائب الفرسان والمدافع على الشوارع المؤدية إلي الحي. وتخفَّى الجنود الفرنسيون وراء سواتر أعدت على عجل تحسُّباً لهجوم محتمل.

صعد بعض الثوار على المنازل – بروح فدائية لا تبالي بالموت – لمهاجمة القوات الفرنسية من الخلف، فقتلوا منهم عدداً كبيراً، وزلزلوا أقدامهم، حتى أدركتهم المدافع التي بدأت تصبُّ النار على المنازل فتهدمها على من فيها.

وصل نابليون قبيل الظهر بقليل، عائداً من (الشرقيَّة) فرأى المدينة تغلي، ورأى جنوده قد تخلُّوا عن مراكزهم في المدينة وفرُّوا مذعورين أمام الثوار. شعر القائد الذي لم يهزم بعد في معركة قط، والذي سار بجنوده دائماً إلى الأمام، بجرحٍ عميق يدمي كبرياءهُ، فوقف لحظةً صامتاً، وقد أطرق إلى الأرض، ووقف من حوله بعضُ قوَّاده، لا يجسرون على الكلام، قبل أن ينطق القائد العام.

رفع نابليون رأسه، ومضى يصدر سيلاً من الأوامر بسرعة عاجلة، وسرعان ما تفرَّق القوَّادُ والرسل إلى تنفيذ ما أمروا به.

مضى أحد الرسل إلى أعضاء الديوان ليقابلهم في بيوتهم، ويبلغهم أوامر نابليون.

وذهب آخرون إلى الكتائب التي كانت تحارب في القرى المجاورة لكي تعود، وتسدَّ المنافذَ عن القاهرة، لوقف تدفُّق الريفيين الذين يهرعون من كل صوب، للمشاركة بالكفاح، وكأنهم السيل العرم.

بعد لحظات، أقبل أعضاء الديوان إلى الأزهر، يدعون الثوار إلى إلقاء

السلاح، والخلود إلى السكينة ريثما يراجعون نابليون في المظالم التي استهدف بها الشعب.

تحرَّك وفد أعضاء الديوان ساعين إلى نابليون... وما عتموا حتى عادوا يزعمون أنه استجاب إلى بعض مطالب الشعب، وأنَّه يطلبُ هدنةً ريثما يناقشهم في سائر المطالب، وطالبوا أن تمضي المدينة الليل بسلام، وأن يكفَّ كلُّ فريقٍ عن إطلاق النار.

قضت المدينة تلك الليلة بهدوء، وأمضى الثوار ليلهم في الأزهر.

في الظلام، حين أخلد الناس إلى السكينة، كان الجنود الفرنسيون الذين استدعاهم نابليون من الصعيد يدورون من ناحية مصر القديمة وراء جبل المُقَطَّم لينصبوا المدافع تجاه الأزهر من مواقع على الجبل.

في الصباح، تلقى الناس إنذاراً من نابليون، يدعوهم فيه إلى التسليم فوراً. رفض الثوار الإنذار، وعند الظهر، تلقى القائد (بون) الذي رابط بمدافعه فوق جبل المقطم، تجاه الأزهر، أمر نابليون:

– اضربوا الأزهر بالمدافع... ولتكن المدافع في أصلح موقع، ليكون الضرب أشدَّ أثراً. بلِّغوا القائد (دو مارتان) أن يفعل مثل ذلك. اهدموا الجامع، والبيوت التي حوله على من فيها. إنَّ هدم الأزهر يعني تصدُّعَ الثورة وانهيارها والقضاء على مقاومة هذا الشعب، الآن وإلى الأبد. عندما يُهدمُ الجامع سيكون الموقف مُمَهَّداً لزحف الجنود.

عند الظهر انفجرت أوَّل قنبلة بين الجماهير المحتشدة في الأزهر، وتتابع إطلاق المدافع، فهوت آلاف القنابل على الجامع والبيوت التي تجاوره. سمع الناس دويَّ انهيار البيوت، ورأوا الغبار يختلط بصرخات النساء والأطفال.

كان ذلك هو النصر الذي سعى إليه نابليون بونابرت، تحت جنح الظلام، حين أمر أعضاء الديوان أن يعدوا الثائرين وعوداً كاذبة، ليوهنوا من عزيمتهم،

ويصرفونهم عن الاستعداد والقتال، إلى المهادنة والسلم، ريثما يعدُّ عدَّتهُ لضربته الغادرة التي لا تفرق بين طفل ورجل وامرأة.

في تلك الليلة لم تكن القاهرة وحدها هي التي غرقت في لجة الظلام والحزن والفزع، لأن الكثيرين قد شاركوها هذا المصير. بينهم الفرنسيون أنفسهم. لقد شعر القادة والضباط والجنود الفرنسيون أنَّ نابليون قد حفر هوَّةً عميقة بينهم وبين الشعب، وأن الدماء البريئة التي سفكت، قد قطعت الصلة بينه وبينهم إلى الأبد، وشعروا أنَّ نارَ الثورة التي أطفأها نابليون بالخديعة والكذب، قد اتقدت في القلوب، وأنها لن تنطفئ بعد ذلك أبداً. أدركوا بحزن وأسف، أن الرجل الذي قادهم من نصرٍ إلى نصر، قد فقد السيطرة على نفسه، أمام شعب أعزل، إن أوامره لم تكن أوامر رجل عظيم حالفه النصر، بل أوامر تدفع إليها حرقة الحانق المُغيَّب.

كانت المعركة كسباً لروح المقاومة، وانتصاراً نزع الخوف من النفوس بشكل نهائي، فراحت تستعد لمواجهة أعتى الجيوش في العالم. وكانت انتصاراً للثورة التي لا تقاس مكاسبها بانتصار مؤقت، بقدر ما تقاس بتعميق الهوَّة بينها وبين الغاصبين.

* * *

-٢٥-

الحديد والنار

أمام تحدِّي هذا الشعب بريفه ومدنه، وإزاء إصراره لأيِّ قوة، تحوَّل نابليون بونابرت الذي كان اسمه يتردَّد في سمع الدنيا كلِّها، من محارب شجاع إلى قاتل سفَّاح، لأنه كان يُصْدرُ أوامر القتل بغير حساب، أو وازعٍ من ضمير، أو اعتبار لشرف الجندي.

لقد شهدت ساحة القلعة مجازر رهيبة، قُتِلَ فيها الرجال والنساء على السواء، وطوى النيل في أحشائه مئات الشهداء الذين أُمر الجنود بقطع رؤوسهم وإلقائهم في النهر.

أقبل بارتلمي إليه، وقال: إن أعضاء لجنة الثورة جميعاً، قد وقعوا في قبضتنا.

سأله نابليون: كم عدد مَنْ وقع في يدك؟

قال بارتلمي: ثمانية...

فصاح نابليون في غيظ: أنت أحمق... كذَّاب لا يمكن أن يكونوا ثمانية. إنَّهم مئات انتشروا في القرى والمدن... ابحثوا عنهم واقتلوهم أينما وجدتموهم... اخرج إليهم وأحضرهم جميعاً ليذبحوا... ليذبحوا ويُمثَّلَ بهم. هل تسمعني؟... اخرج.

مضى بارتلمي ليقبض على من يشاء ويأتي آخر اليوم ليقدِّم إلى نابليون ضحايا بريئة يشبع بها ظمأه إلى الدماء.

فاجأه بونابرت ذات مساء بسؤاله: الشيخ الجوسقي، هل قبضت عليه؟

قال بارتلمي: هذا رجل ضرير يا سيدي القائد العام.

قال نابليون: أيُّها الأحمق. أتراجعني في أمر!؟... اذهب وأحضره إليَّ في الحال.

بعد لحظات رأى أهالي القاهرة – من نوافذ منازلهم – منظراً رهيباً، كان بارتلمي يمتطي جوداه، وقد أوثق الشيخ الجوسقي بالحبال، وأمر رجاله الذين يسعون خلفه بسحبه وجرِّه مسرعين، ويعدو الشيخ ليلحق بهم، فيتعثَّر ويسقط، ويجرُّونه حتى ينهض، ومازالوا يصنعون ذلك حتى أوصلوه إلى نابليون في الأزبكية.

كان بونابرته يجلس مع بعض قوَّاده. جذبه بارتلمي بقسوة من ذراعه، ودفعه حتى وقف أمام نابليون، وندَّت من القائد العام ضحكة ساخرة، وحين شعر الشيخ أنَّه في حضرة نابليون، استوى واقفاً ورفع رأسه إلى أعلى بكبرياء.

قال نابليون:

– أنت خطبت في الجماهير، وحرضتها على الثورة؟!

قال الجوسقي:

– أنت مخطئ في زعمك، ومن نقل إليك هذا، كاذبٌ مخادع.

اندفع نابليون واقفاً على قدميه، كأنَّما مسَّته نارٌ أو لدغته أفعى؛ وبُهِتَ الذين من حوله، ثمَّ صاح وقد حمَّل الكلمات التي فاهَ بها كلَّ ما يمتلئ به صدره من غيظ:

– سوف تقتل.

بصوت هادئ قال الشيخ:

– لم أسعَ إليك، لأطلب الحياة.

سأل نابليون:

-هل كنت من أعضاء لجنة الثورة؟

ردَّ عليه الشيخ: **نعم...**

قال نابليون: **هل تعرف زملاءك فتدّل عليهم؟**

قال الشيخ: **نعم... هؤلاء الناس جميعاً هم أعضاء لجنة الثورة، ليست ثورة آحادٍ أو عشراتٍ أو مئات. إنَّها ثورة الناس جميعاً الذين يعيشون في بلادنا وفي ما وراءها من بلاد، لقد كان الأمر يختلط علينا، نحن الذين ادَّعينا العلم والمعرفة والحكمة، وكنَّا نختلف حين يأتي الشعب فيقودنا معه إلى الطريق القويم... ذلك هو منطق الثورة، إن كنتَ تفهم.**

كان نابليون يستعجل المترجم بنقل كلمات الشيخ إلى الفرنسية، حين تقدَّم بارتلمي وركل الشيخ وهو يقول:

- أيُّها القذر، كيف تتجاسر!؟

فقال نابليون: كفى.

قال الجوسقي: افعلوا ما بدا لكم، فليس بعد الموت شيء، إنَّكم لن تصيبوا منِّي شيئاً، لكنكم تصمون أنفسكم بالخسَّةِ والنذالة.

صاح نابليون محقناً وقد أكله الغيظ: لماذا تركله؟!.... امض به... واقتله.

* * *

-٢٦-

الفأس في الرأس

بدأ الناس يرحلون عن القاهرة، طلباً للنجاة بأنفسهم وبأولادهم من بطشِ نابليون، ومن جنون سفك الدماء الذي سيطر عليه، إذ كانت أبسط عقوبة لديه بالنسبة لأيِّ عربي يرتكب أيَّ هفوة صغيرة تؤدي إلى الموت.

علِمَ إبراهيم البشتيلي أنَّ الطاغية طلب دمه، فنصحه أبوه بالسفر إلى الشام مع سُليمان، ريثما تهدأ الأحوال في مصر.

فوجئ الجميع على الطريق إلى الشام، بأعداد النازحين من مصر باتجاه برِّ الشام.

قابلتهما جموع كثيرة من أهل مصر، ومن أهل الشام يسعون إلى جزءٍ آخر من وطنهم الكبير، يؤمنون فيه على حياتهم من بطشِ هذا السفَّاك المأفون.

كانوا جميعاً يشعرون أنَّ مصيرهم واحد، وأن عدوَّهم واحد. تفرَّق الناس في مختلف ثغور الشام، في يافا وحيفا وعكا ودمشق وحلب، ونزل إبراهيم مع سليمان في بيت أبيه محمد أمين.

بعد عشرة أيام وصلا إلى القدس مع قافلة تغذُّ السير إلى دمشق، وباتا تلك الليلة في القدس لينطلقا في الصباح الباكر مع القافلة، وبعد عشرة أيام وصلت القافلة إلى دمشق، وكان على سليمان وإبراهيم البشتيلي أن يبحثا عن قافلة متجهة إلى حلب، ليكونا بأمان في مرافقتها.

خلال يومين في دمشق قُيِّضَ لإبراهيم أن يتعرف على أهمِّ معالمِها، وعلى الجامع الأموي، قبلَ أن تنطلق القافلة بهما إلى حلب. كانت بلاد الشام ترزحُ تحتَ نيرِ احتلالٍ عثمانيٍّ بغيضٍ قاهر، لا همَّ له سوى جباية الأموال، والتفريق بين السكَّان على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم؛ وكان يثير باستمرار النعرة الطائفية، والحروب الأهليَّة، منتصراً لهذه الفئة ضد تلك، ليبقى هو المسيطر الأكبر.

كان يُسلِّطُ الإقطاعيين على الفلاحين، ليبقيهم في حالٍ من البؤس المدقع، لكي لا يفكروا بالثورة عليه، ولكي يسوقهم كالماشية في حروبه ومغامراته في أوروبا، وتحت شعارات براقة باسم الإسلام ونشره، في حين كانت قصور سلاطين بني عثمان موئلاً للفسق والفجور والرذيلة، عدا عن المؤامرات والدسائس مقبوضة الثمن في كل مجالات الحياة، من النساء وحتى إقطاع الأراضي وبيع الدول والممرات البحرية...

حدَّثَهُ سُليمان عن تجارة والده الحاج محمد أمين في حلب، وكيف أن الله فتح عليه باب الرزق بعد أن كان تاجراً صغيراً يحضر بعض جرار زيت الزيتون من قرية كوكان قرب عفرين شمال حلب، ويبيعها في حلب، ثم ما لبث أن افتتح حانوتاً صغيراً يخزن فيه جرار الفخار من زيت الزيتون لكي يبيعها ليس في موسم واحد، وهكذا تطورت تجارته حتى أصبح لديه مستودعٌ كبيرٌ في حي البياضة، ثم وسَّع تجارته لتشمل السمن العربي الذي كان يشتريه من البدو الذين يحضرون إلى سوق الجمعة في الصاخور، ثم بدأ يذهب إلى مضاربهم في أيام الربيع لشراء كميات كبيرة، فأردفت تجارته بمادة جديدة، وصار من أكبر تجار حلب في الزيوت والسمون، وحين فكر بالتوسُّع خارجَ بلادِ الشام، سافرَ مع قافلةٍ حلبيةٍ كانت تقصد (الخرطوم) في بلاد السودان، فانتهى به الأمر إلى حي بولاق غرب القاهرة ليتعرف إلى الحاج مصطفى البشتيلي، والذي نصحه بعدم السفر إلى السودان، وسهل له تجارته في القاهرة.

بمجرَّدِ وصول القافلة إلى حلب، توجَّه سليمان وإبراهيم إلى حيِّ البيَّاضة،

دُهشَ إبراهيم لكثرة الصناعيين الذي يعملون بهمة في القدور النحاسية، ولم يتسنَ له أن يسأل سليمان الذي كان يمسك بيده ويقتاده بسرعة مسابقاً الوقت ليرى أباه، وفجأة نظر إلى المحل، فوجده مقفلاً.

شعر بالصدمة، ودارت في نفسه الأفكار السوداء، وسارع الجيران الذين رأوا سليمان أمام محلهم ومعه شخص غريب بالسلام عليه، كانت شفتاه تسأل عبارة واحدة فقط:

– هل حصل أيٌّ مكروهٍ لأبي؟

أطرق الحاج محمود – جار الحاج محمد أمين – وهو يكلمه بهدوء ووقار:

– سليمان، بني... أبوك بخير، لكن تعال معي ندخل دكاني. وهناك تغتسل من وعثاء السفر، وسأحدثك بالأمر.

– أُعَرِّفُكَ يا حاج محمود بصديقي وأخي إبراهيم البشتيلي، من مصر. جاء معي. هو تاجر أيضا...

– على الرحب والسعة بني، أهلا بك يا إبراهيم... تفضلا.

– دخل الثلاثة دكان الحاج محمود، وأكرم وفادتهما، وأشار لعماله أن يحضِّروا الطعام لهما، ثمَّ أطرق قبل أن يبدِّلَ الحديث:

– قل يا إبراهيم، ما أخبار الحملة الفرنسية على مصر؟...

تدخل سليمان، قائلا:

– سنتحدث بهذا لاحقاً ومطولاً يا حاج محمود، ولكن قل لي، ما خطب أبي، حتى يقفل دكانه؟!

– سليمان يا بني، هل تعتقد أننا لا نتابع الأخبار في مصر... مع هذا سأنزل عند رغبتك، بني: لا تستعجل أمراً، والدك بخير، لكن أنت تعلم أساليب العثمانيين الدنيئة في التعامل مع التجار، أنا مثلا مجرد مُبيِّض لأواني النحاس، بالكاد أسدُّ أجرةَ دكاني ورمق أطفالي، ومع هذا فرضوا عليّ الضرائب الكبيرة،

لكن تجارة والدك ازدهرت، ففتحت عيونهم عليه أكثر، لذلك فرضوا عليه ضرائب باهظة، عجز عن دفعها، فاقتاده المُتَسَلِّم (الوالي) إبراهيم باشا إلى السجن كي يسدِّد الضرائب، وأنت تعلم أن الضرائب هي لجيب المتسلم الخاص، وليس للخزينة.

استأذن سليمان بسرعة، واصطحب إبراهيم إلى المنزل... وهو يجرُّه من يده جرَّاً، في حين كان الحاج محمود يقول:

- أين تذهب يا بني... انتظر حتى نقوم بواجبك وواجب الضيف إبراهيم...

في البيت كان المنظر أكثر بؤساً، فدار الحاج محمد أمين التي تعد من الدور التي توزع الخير والطعام على الدور، كانت في حالة يرثى لها، بل كانت تفتقر إلى الطعام، حيث صار بعض المحسنين يرسلون بعض الأطعمة لعائلة الحاج أمين.

آلمه المشهد أكثر، وجأر باكياً:

- لا... لا يمكن للظلم أن يدوم...

بدأ يتهاوى عندما أسنده إبراهيم البشتيلي، وهو يقوي من عزائمه قائلاً:

- لا يا سليمان، إياك أن تضعف، ثمَّ الحمد لله، معنا المال الكافي لنفتح دكان الحاج أمين منذ الغد.

- لا يا إبراهيم، لا يمكن، المُتَسَلِّم سجنه حتى يسدد الضرائب، لن نستطيع فتح الدكان حتى نسدِّدَ ضرائبَهُمْ القذرة... يجب أن أواجهَ إبراهيم باشا.

كان إبراهيم باشا، ظلوماً غشوماً، غبيَّاً، بَطِناً، لا يصحو من السُكْر، إلاّ ليذِبَّ من نارجيلته، وحين قابله سليمان كان قد أعدَّ «عَرْضَةً» نظمَ فيها كلماته بدِّقة وخبرة - لأن سليمان نفسه كان يعمل كـ «عرضحالجي»- بيد أن إبراهيم باشا لم يكلِّف نفسه عناء قراءتها، قبل أن يطلق كلماته البغيضة، من شفتين

تزبدان بفقاعات دقيقة من ريقه عند ملتقى نهاية الشفتين:

– «شوك غوزال... شوك غوزال... أنت يدفع أو سمانليات، أبوك ما فيش سجن، ما يدفع أو سمانليات، فيه سجن...».

– ثم أطلق ضحكة مجلجلة، كريهة ممجوجة، قبل أن يتابع:

– «مُوهمِّت أمين... عظام دهب... أهاهاها ... عظام دهب».

– كيف سيدفع المال يا مولانا وهو وراء القضبانَ!؟... أطلق سراحه كي يشتغل ويسدِّد لك ضرائبك...

– «اسمع فلن /اسمع يا ولد/... أنت ناقص تربايات... انقلع وجيب فلوس بتاع دولة عليَّة... مُوهمِّت أمين يبقى في سجن... يبقى في سجن... وأنت ما جبت فلوس، تبقى في سجن كمان».

أدرك سليمان أن عليه مغادرة حلب فوراً، وإلا فإنه سيكون في السجن بجانب أبيه، وأودع ما تبقى معه من مال مع أمه، واصطحب معه أخاه الأصغر صلاح، لكي لا يطبق عليه العثمانيون ويودعونه السجن أيضا.

كانت الآخبار أتت – آنذاك– بأن (أحمد أغا) الذي تعرَّف إليه – ذات مرَّة– في الأزهر، قد غارد العريش، بعد أن كلفه، الوزير العثماني إبراهيم باشا – والي مصر– بمنصب (متسلم القدس)... كان يسابق الوقت هو وإبراهيم البشتيلي للوصول إلى القدس.

لم يتصوَّر أحد أن يصل واقع أسرة سليمان إلى هذه الحال، بسبب هذا الظلم من العثمانيين، الذين فرضوا على والده ضرائب تعجيزية باهظة جعلته يقف عاجزاً عن تسديدها، على الرغم من ثروته الكبيرة.

كانت الضرائب تفرض كيفما اتفق، وكيف يتفتق عنها ذهن الوالي الذي كان يشتري المنصب من (الصدر الأعظم) في الآستانة، بمبلغ كبير من المال، ويختلف بحسب الولاية، فالولاية الغنية التي فيها تجارة وصناعة ضرائبها أكبر،

وبالتالي فإن ثمن المنصب أكبر، وعلى الوالي أن يستعيد الرشا التي قدمها للصدر الأعظم وللوسيط بينه وبين الصدر الأعظم في أسرع وقت ممكن، وإلا سيصبح والياً ضعيفاً، وقد يعزل فور أن يشتري المنصب طامع آخر من الصدر الأعظم نفسه، قَصُرَتْ المدَّةُ أم طالت. كان عليه أن يستعيد أموال الرشوة ومرابحه الخاصة من المنصب قبل أن يُعزل، لذلك كان يسأل عن أهم مصادر دخله، ويفرض عليه الضرائب الباهظة، فوقع الفأس في رأس الحاج محمد أمين هذه المرة.

* * *

-٢٧-

أحلام نابليون في الشام

كما حدث في سائر أزمنة التاريخ، بدأت المنطقة كلُّها تشعر بالخطر الذي يهدِّدها. وكانت بلاد الشام (سوريا الطبيعية) أكثر البلدان إدراكاً لهذا الشعور، فبدأت تُحشدُ فيها الجيوش للزحف إلى مصر وطرد الغزاة منها. وبدأ جيش كبير يتجه نحو الجنوب، ضمَّ المصريين الذين رحلوا إلى الشام، وأهلَ الشام الذين تطوعوا في هذا الجيش لمؤازرة أشقائهم. فيما كان العثمانيون يعملون على استرداد هيبتهم التي مُرِّغت بالتراب، ونفوذهم على إحدى أكثر الولايات التي تمدهم بالضرائب. عندما كان هذا الجيش يسعى إلى الجنوب لاسترداد مصر وطرد الفرنسيين منها، وقف نابليون على رأس جيشه عند (العريش) يشير إلى الشام ويخاطب جنوده: **أيَّها الضبَّاطُ والجنودُ: إنَّنا نسير اليومَ لتحقيق الأهداف التي جئنا من أجلها إلى الشرق الأدنى. إنَّ وجودنا في مصر لن يتمَّ ولن يستمر، إلاَّ إذا استولينا على الشام، وسوف تولَدُ بعد تحقيق أهدافنا الدولة الكبرى في الشرق، والتي وعدنا رجال الجمهورية بتأسيسها هنا. أرجو أن تحفظوا عن ظهر قلب هذه الأيام: اليوم الأوَّل من مارس (آذار) سندخل غزةَ، واليوم السابع من مارس، نستولي على يافا، واليوم الخامس عشر من مارس، ندخل عكَّا. واليوم الأوَّل من إبريل (نيسان) نستولي على دمشق. واليوم الأوَّل من مايو (أيَّار) ندخل حَلَب. وبعدها نصل إلى جبال طوروس ونتوقف هناك لنشرف من فوقها على الدولة**

العظيمة التي أقمناها في الشرق، ونحدِّد موقع أقدامنا بعد ذلك... إلى الأمام أيُّها الجنود والضبَّاط. إلى المجد.

ثمَّ خصَّ فانتور بالتفاتةٍ ذات مغزى وقال:

– أستاذ فانتور سنقيم لقومك كانتوناً هنا على هذا البرزخ الواقع بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط ليمتدوا على أراض بين الشام ومصر، ويفصل هذا الكانتون عرب آسيا عن عرب أفريقيا، ويكون صديقاً لنا.

قال فانتور بكثيرٍ من الامتنان:

– سيكتب التاريخ من جديد أنَّ سيدي الجنرال بونابرته، عبر إلى أرض اللبن والعسل، من دون أن يلوِّثَ قدميه لا بالتيه ولا بشريعة نهر الأردن. سيكتب التاريخ يا سيدي: إن سوريا المسوَّرة بالشمس، قد قطف نورها الجنرال نابوليون، ليضيء سماء المشرق والمغرب، وسيكون اليهود أمناء لصداقتكم، كما هم أمناء لبناء هيكل سُليمان بن داود من جديد.

تابع نابليون زحفه في ثلاثة عشر ألف مقاتل، تراوده أحلامٌ عريضةٌ، ووصل إلى غزة ويافا في الموعد الذي حدَّده، ووقف يستريح يوماً خارجَ أسوار يافا، آنذاك جاءه أحدُ قوَّاده يقول له: **سيِّدي القائد العام، إن ثلاثة آلاف من أهالي يافا الذين قاومونا، استسلموا لنا على وعد مِنِّي بأن أحمي حياتهم... ماذا نصنع بهم؟**

ضحك نابليون ضحكة لم يفهم القائد مغزاها، ثمَّ قال: ماذا نصنع بهم؟!... **إنِّي آمرُ بأنْ يُعدَموا جميعاً رمياً بالرصاص.**

قال القائد: إنَّهم أٍسرى حرب!!!.

قال نابليون في حِدَّة: نفِّذ الأمر أيُّها الضابط، قبل أن آمر بتنفيذ الحكم بك. وسوف أشهد تنفيذ عمليات الإعدام بنفسي.

وعلى شاطئ البحر، سيق الأسرى، حيث وقفوا صفوفاً... وتتابعت طلقات الرَّصاص ساعاتٍ طويلةً... ونابليون واقفٌ ينظرُ إليهم، حتَّى سقطوا جميعاً، ثمَّ تنفَّس الصُّعداء وأصدر أمره: أيُّها الأبطال... إلى عكَّا...

في الطريق إلى عكَّا، رأى نابليون كبيرَ أطباء جيشه يُهروِل نحوه، فتمهَّل حتى دنا منه وسأله: ماذا هناك؟؟

مال الطبيب وعلى وجهِه هلعُ وفزعٌ كبيران إلى أُذن نابليون وهمس كلمات امتقع لها وجه القائد العام لجيش الشرق، حتى حاكى وجهُهُ وجوه الموتى الذين صرعهم برصاصه منذ لحظات...

قال للطبيب: أمتأكدٌ أنت من هذا؟!؟!

قال الطبيب: نعم.

قال نابليون: ماذا ترى؟...

هزَّ الطبيب رأسه وقال: لا رأيَ لي. إنَّه الوباء، ولن يقف في طريقه شيء.

أدارَ نابليون ظهره للطبيب، وأصدر أمره إلى الجيش، بمتابعة السير إلى عكَّا.

قال الطبيب بفزع: إنَّ هناك مئات من المرضى، بين الجنود سيسقطون، وآخرون قد رقدوا يصارعون الوباء.

قال نابليون: يجب أن أكونَ في عكَّا في الموعد الذي حدَّدته.

تحرَّك الجيش. كان نابليون يرى رجاله يتساقطون كما يتساقط الذباب. ترتفع أيديهم الفزعة إلى رفاقهم الذين أسرعوا يفرِّون منهم. وحين أبصر بونابرت الطبيبَ واقفاً، قال له: لماذا لا تتقدم مع الجيش؟

قال الطبيب: آسف يا سيدي القائد العام، لقد قرَّرتُ البقاء مع المرضى.

قال نابليون: إنَّنا بحاجة إليك أكثر من حاجتنا إليهم!

قال الطبيب: لن أُفارق مرضاي...

قال نابليون: أنت أحمق. سوف تموت بالوباء!...

قال الطبيب: ولكني سأموت إنساناً...

تقدَّم الأستاذ فانتور إلى القائد العام وقال له: أنا أيضاً سأبقى إلى جانبه...

دُهِشَ نابليون، وقال: إنَّنا أصدقاء يا أستاذ فانتور، ولا يمكن أن نختلف.

سكت فانتور.

وقال الطبيب: بل من الخير أن نفترق. لم أعد أرى فيك الإنسان الذي أحِب.

حدَّق نابليون بهما نظرة عميقة طويلة، ثمَّ التفت إلى الجنود الذين أقعدهم المرض. اهتزَّ كتف نابليون بشكلٍ غير إرادَي، ثمَّ أدار لهما ظهره، ومضى في طريقه.

عندما وصل الجيش الفرنسي إلى أسوار عكَّا، أحصى من سقط من رجاله بسبب الوباء، فإذا بهم أكثر من ثلاثة آلاف رجل، دارت في ذهن نابليون تساؤلات غريبة، إنَّ القتلى من جنوده يساوي عدد من قتلهم غيلة من المدنيين- أسرى الحرب على ساحل البحر!!!.

* * *

-٢٨-

الشام تُسقِط الأحلام

استيقظَ أهالي عكَّا فوجدوا بياناً أُعِدَّ لهم على جدران المساجد وبعض المنازل، يعدِّد ما صنع نابليون بغزة ويافا. تنادى أهل عكا للدفاع عن المدينة حتى آخر نبض في عروق الرجل الأخير من سكان عكا. وانصرف المختصون ببناء الأسوار لتفقدها وترميم ما تهدم منها، فيما بدأت لجان مدنية تعمل على تأمين الزيت والحطب والحجارة التي توضع على الأسوار لقذف المهاجمين، وآخرون راحوا يجهزون النبال والسيوف والبارود.

وقف الخطباء على المنابر يذكرون ما صنع نابليون بالأزهر ورجاله وطلاّبه.

وصل الخبر إلى نابليون بأن أهل عكَّا أقسموا بأن نابليون لن يدخل مدينتهم، وفيهم رجل حي، فقال:

- نعم... هذا ما أسعى إليه.

هاجم الجيش الفرنسي المدينة مرات عدَّة لكن كلَّ الهجمات باءت بالفشل، وسقط من الجنود أمام الأسوار أكثر من ألف بين قتيل وجريح.

وقف نابليون عاجزاً أمام أسوار عكَّا أكثر من شهرين. وجاءت الأنباء من مصر بقيام الثورات في الصعيد والشرقية والبحيرة.

وسمع أن جيشاً يزحف قادماً من حلب ودمشق، وبدت المعركة أمامه

على حقيقتها، معركة واحدة تمتدُّ من حلبَ شمالاً إلى صعيد مصر جنوباً، وفي هذه البلاد الفسيحة الممتدة، أدرك معنى وحدة الشعور وقوَّته بين سائر شعوب المنطقة.

كان الحادث يقع في مصر، فتتأثَّر به بلاد الشام جميعها، وسائر البلدان العربية، وفي غمرة اليأس شعر نابليون، أنَّ هذه البلاد أطول من باعه، وفوق قدرته.

تحت أسوار عكَّا ذهبت أحلام نابليون أدراج الرياح، ودُفِنت مطامعه في رمال صحراء العرب، وعند الفجر، أصدر أمره إلى الجيش بفكِّ الحصار والعودة من حيث أتى...

على الطريق هاجمه أهل الشام من كل مكان، وتعقَّبوه، وأثخنوا جيشه بالجراح، وعلى الرمال خلَّف نابليون رجالاً له، بين الحياة والموت، ينظرون إليه وفي قلوبهم حقدٌ، وعلى وجوههم يأسٌ قاتل، وعلى الشفاه لعنة تتعقَّبُه.

كان جيشُه يدمى، وشمسُ الصيفِ تضرب أقفية رجاله، فيسقطون وهم يصرخون ويتمرَّغون في الرمال...

مضى نابليون مطرقٌ إلى الأرض وهو يشهد رجاله، يلقون أسلحته، ويتركون مدافعهم ولا يملكُ عليهم أمراً.

لقد ذاق نسر الغرب الذي حلق عالياً في سماء أوروبة، ولم يُغلب في معركة قط، مرارة الهزيمة وحرقتها للمرة الأوّلى في حياته على أرض العرب.

أخذ الجنود ينتزعون أقدامهم انتزاعاً من الرمال التي تطبق عليهم كأنها تريد أن تدفنهم في باطنها كما دفنت سائر المغيرين في كل العصور.

نظر نابليون إلى الوراء يُوَدِّعُ حلماً كبيراً، وعلى مرأى البصر شاهد الدماء

وجثث جنوده كأنَّها علامات على الطريق. ومن خلال نظراته الحزينة طافت بخياله ذكرى حادث شهده عند مشارف القاهرة عندما سقط ذلك الثعبان الضخم، المثخن بالجراح، الذي حاول الاعتداء على طير مسالمٍ، كان يرقدُ آمناً في عشِّه.

ورأيت على وجه نابليون سحابة مظلمة، وطغى على قلبه شعورٌ دافقٌ بالأسى واليأس، وسار وقد استقر عزمه على أمر.

عندما بلغ العريش، أمر رجاله بأن يستريحوا في ظلال نخيلها، حتى لا يدخلوا أرض مصر وهم على تلك الحالة البائسة.

* * *

-٢٩-

سليمان في القدس

وصل المُتَسَلِّم أحمد آغا إلى القدس أخيراً، واستقبل استقبال الفاتحين، على الرغم من انكسارات العثمانيين المخزية. كانوا يريدون أن يثبتوا للسوريين أنهم مازالوا أقوياء لذلك استنفروا كل الفرق العسكرية لاستعراض قواهم أمام الشعب.

كان المتسلِّم أحمد آغا قد أمضى أياماً في غزة، وأرسل الأخبار لتسبقه إلى القدس، كي يستعدَّ الجيش العثماني لملاقاته، وكأنَّ شيئاً لم يحدث في مصر.

بعد وصوله سارع سليمان للذهاب ومقابلته بحجَّة تهنئته بالسلامة، والتبرُّك له من شيخ أزهري.

كان سليمان قد تزوَّد بـ «عرضة» يشرح فيها حال والده مع متسلِّم حلب إبراهيم باشا، ولكنه آثر أن يتقرب من أحمد آغا قبل أن يطلعه على مضمون الكتاب، لأنه يعرف مكر العثمانيين، وأنه ربما أثار فضول أحمد آغا ونهمه للمال بعد أن يعرف أنه ابن تاجر غني، فيطمع أيضاً بمكافأة مقابل توسطه لدى متسلم حلب، فيكون كمن أفلت من الدُبْ ليقع في الجُبْ.

هذا ما حصل فعلا، فقد بالغ في الاحتفاء بأحمد آغا بكلمات بليغة لفتت أنظار الجميع، مُذكِّراً أحمد آغا بلقائهما في القاهرة، وحين فرغ من الاستقبال، استبقاه المتسلم، ليستوضح منه عن سبب تواجده في القدس، فلاحت الفرصة لسليمان ليخبره، أنه يحاول أن يسابق الوقت لتشكيل مقاومة شعبية ضد الفرنسيين الذي ينوون غزو بلاد الشام بعد إخماد ثورة القاهرة.

سأله أحمد آغا:

ومن أين لك كل هذه المعلومات؟

– أنا يا أحمد آغا كنت في القاهرة مقرباً من قادة الثورة ومموليها.

– ممن، على سبيل المثال؟

أدرك سليمان أن التصريح بالأسماء صار ممكناً الآن بعد أن انكسر الجيش العثماني في مصر، وانسحبت كل قواته إلى بلاد الشام، ولم يبق لهم أيُّ جنديٍّ هناك، فقال:

– أنا كنت مقربا من الشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر، الرأس المدبر لها، ومرافقاً للشيخ الجوسقي الذي كان المحرك المباشر للثورة، كما أنني كنت أختلف إلى بيت الحاج مصطفى البشتيلي الممول الرئيس للثورة، والذي اشترى البارود والبنادق لها من ماله الخاص. وحتى تتأكد من كلامي، فإن إبراهيم ابن الحاج مصطفى هو رفيق رحلتي من حلب إلى هنا، وهو مازال في القدس الآن، وبإمكانك الاستماع إليه، فهو أيضا من قادة ثورة القاهرة.

كانت مثل هذه المعلومات بمثابة الكنز لأحمد آغا، وهي بالتأكيد ستفيده أمام مرؤوسيه، وسيتبجَّح بها أمامهم، ليكون مقرَّباً من الباب العالي أكثر فأكثر، لذلك طلب من سليمان أن يحضر معه في اليوم التالي إبراهيم البشتيلي.

خرج سليمان من مقر أحمد آغا، وهو مطمئن تماماً إلى أنه ألقمه الخطاف، لكي يتوسط له عند متسلم حلب إبراهيم باشا، وشعر أنه صار مقرباً منه، ولذلك وطَّد الأمر في نفسه على أن يعمل بجد ليكون مقرَّباً منه، بل ومن أصفيائه، لعلَّ الأمر يفيده في قادم الأيام، كما راح يخطط لنقل العائلة ونقل تجارة والده – أيضاً – إلى القدس بدلاً من حلب، ومن ثمَّ إيصالهم إلى الديار الحجازية.

* * *

-٣٠-

مقابلة عاصفة

ما كان - إبراهيم البشتيلي- ليوافق على مقابلة أحمد آغا، لولا أنه اقتنع أن رفض الأمر سيضرُّ بمصلحة سليمان، وسيُفشل الوساطة التي يسعى إليها لإخراج والده من السجن في حلب؛ لكنَّ إبراهيم لم يكن مهادناً في مواقفه وكلامه خلال مقابلة أحمد آغا. حاول بداية الأمر أن يكون هادئاً، عندما سأله أحمد آغا، عن المساعدات التي قدمها الجيش العثماني للثوار بعد انسحاب مراد بك إلى الصعيد في معركة إمبابة- الهرم، فأنكر إبراهيم أي علم له أن المصريين تلقَّوا مساعدات من الجيش. وعندما جادله أحمد آغا - متشاطراً- بأنه يعلم علم اليقين بتلك المساعدات، كونه مقرباً من الوالي إبراهيم باشا، متسلم مصر، رفض إبراهيم علمه بهذه المساعدات، وحين قال له:

- لقد قدموا للثوار البنادق والطبنجات والبارود...

قاطعه إبراهيم بعنف، وردَّ قائلاً: كل ما أعلمه عن مساعدتكم التي قدمتموها لنا، يا سيدي، هو أننا دفعنا ثمنها قبل أن نتسلمها.

- أعلم أنكم اشتريتم أسلحة وباروداً من المماليك وليس من جنودنا.

- نعم ... هذا صحيح، اشترينا من المماليك أيضا، ومنكم على حد سواء.

- لكنكم لا تستطيعون إثبات أن جنودنا باعوا لكم باروداً وأسلحة؟

- ليس المهم أن نثبت ذلك، المهم أننا مقتنعون بهذا.

- ما مصدر كل هذه الثقة!؟

- سيدي. والدي هو الذي كان يدفع ثمنها من حرِّ ماله.

- أهه، أنا أتعرَّف هنا في القدس على أحد قادة الثورة، وكنت أتمنى أن أعرفه هناك في القاهرة.

- كان يمكن أن تتعرَّف عليَّ هناك، لو أن قواتكم صمدت يوماً إضافياً.

- أنت نزق يا إبراهيم، وهذا يدلُّ على أنك ثائر فعلاً، لكن مع ذلك فالقيادة يلزمها الحصافة في الكلام، على كلِّ حال، يمكننا في المستقبل أن نتعاون لطرد هذا الغازي المحتل.

- أشكر سعة صدرك أحمد آغا، لكن دعني أقول لك، إن تخليكم عن مواجهة من تسمونه (الغازي المحتل) جعل الناس تيأس من التعامل معكم...

- وماذا عن المماليك؟

- المماليك وضعهم أسوأ من وضعكم بكثير.

- على الأقل الجيش العثماني لم يخن، إنما انسحب انسحاباً فحسب، لكي يعاود الكر على العدو.

ربما ... ولكن وأنتم تقدرون أن مراد بك قد خان بانسحابه!؟

- انسحابه غير انسحابنا...

- أهه... انسحابكم انسحاب، وانسحاب المماليك غدر وخيانة!؟ ... يا سلام أنا لا أفهم كيف تكيلون بمكيالين!

- ماذا تقصد بمكيالين؟!... ومن تقصد بـ«بتكيلون».

- أقصد معشر بني عثمان، تقيسون الأمور دائما انطلاقاً من مصالحكم، فتقسمون وفق أهوائكم فتأخذون إردب القمح، وتعطون إردب الشوفان، وأعتقد أن

هذا هو الذي عجل في إجلائكم عن أرضنا.

– أشم رائحة كلامك بأنك تدافع عن المماليك!؟

– أحمد آغا، من مجرد وقوف مراد بك وقواته عند هضبة الهرم، عرفنا بأنه لا يستعد للقتال، وإنما فقط ليؤمن طريق الهروب إلى الفَيُّوم، ثمَّ إلى عمق الصعيد، وهو لم يقتل من الفرنسيين جنديا واحداً، هل تعلم لماذا؟

– لماذا!!؟

– ليترك الباب مفتوحاً للتفاوض...

– إنه خائن إذن... لكن في الوقت نفسه، أنت داهية حقَّاً يا إبراهيم!

– بعض ما عندكم سيدي.

أشاح أحمد آغا بيده لأتباعه، ففهموا أنه أنهى الحوار مع إبراهيم البشتيلي، فتقدم أحدهم، وانحنى قائلاً له:

– هل تسمح لي، أن أدلَّكَ على الطريق، يا سيِّد إبراهيم؟

تحرَّك سليمان، ليهمَّ بالخروج، فاستبقاه أحمد آغا بإشارة من يده وحاجبيه، وما إنْ عتَّم الباب خلف إبراهيم، حتى قال له:

– صديقك هذا مهم جداً، شاب على قدر عال من المسؤولية، ولكنه ليس ممن يؤتمنون على الأسرار.

– كلمات سيدي المتسلِّم تزيدني شرفاَ، في الوقت الذي تشي فيه، أنني أنال ثقته ورضاه!

– هذا لا يعني أننا لن نستفيد منه.

– ما يراه سيدي بكفه، لا تراه عيناي!

- لكن مع هذا لا يجب أن يعلم عن أيِّ شيءٍ يدور بيننا...

- بكل تأكيد. على كل حال هو سيغادر إلى مصر غداً.

- وتواصلك معه، كيف سيكون؟

- تواصلي معه مؤمن. سيدي أنا عشت في بيت أبيه، وتجمع أسرتينا صداقة قوية.

- ممتاز دعه يرحل، فلديك عمل كبير هنا معي.

* * *

-٣١-

تسلُّل ساري عسكر

البحرُ هاديءْ، ونسيمات الهواء تداعبُ الأشجار على شاطئ الإسكندرية، في تلك الليلة من ليالي الصيف. الموجُ يضرب صخورَ الساحل برفق، ثمَّ ينسحبُ ماؤه إلى الرمال، وكأنَّهُ ليتسلّل بحذر. موجاتهُ تخبطُ الصخور قُرْبَ المرفأ بشكل أعنف قليلاً.

بدت المدينة مستسلمةً لنوم عميق، ونسماتُ البحرِ الرطبة تتسرب إلى الناس في مضاجعهم ومنازلهم، فتهتزُّ الأجساد اهتزازاً رفيقاً، والسحبُ تتحرَّك مسرعةً نحو الجنوب.

قبيل منتصف ليل الخامس عشر من شهر آب – أُغسطس، وقفتْ أربعُ سفنٍ، عند نهاية السلسلة في الطرف الشرقي من الميناء، وبعد أن تجاوزت عقارب الساعة منتصف الليل، أطلَّ من بعيد رجل قصير القامة، كان مُقْبلاً وهو يلتفَّ بمعطف كبير واسع يخفي معالم جسده، بينما مالت قبعته ذات الحواف الطويلة إلى الأمام لتغطِّي جبهته، وتحجب الجزء الأكبر من وجهه.

كان يمشي بسرعةٍ كأنَّما يخشى أن يكشف عنه ضوء القمر الذي كان يظهر في بعض الأوقات من خلال السحب. لم يدرِ أحدٌ لماذا يمعن هذا الرجل

في التخفِّي. لم يكن هناك قدمٌ تدبُّ في ذلك الوقت على شاطئ الميناء. لعلَّ نابليون بونابرت، فكَّرَ وهو يفعلُ ذلك أن يخفي وجهه عن بصر التاريخ، حتى لا يُسجَّلِ هذا اليوم في أيامه.

هبط نابليون إلى إحدى السفن، ووقف على سطحها يودِّع أحلى أحلامه، والمكانَ الذي أراد أن يجعله مهد مجده، فأصبح في نظره الآن قبراً لأغلى أمانيه، تحطَّمت على أرضه الخالدة كلُّ الانتصارات التي أحرزها في حياته، إنه يودِّع المكان الذي حطَّم كبرياءه، ومرَّغَ كرامته في الوحل، وأخرجه عن طوره حتى فَقَدَ آدميته وإنسانيته في نظر أقرب الناس إليه، وفي نظر التاريخ أيضاً. وحين تزاحمت عليه هذه المعاني والخواطر أشعرته بأنَّه يكاد يختنق، ما لفت نظر البحارة إليه...

تقدَّم نابليون خطوتين، ثمَّ لوح بيده بإشارة خفيفة إلى أحد جنوده، وسلمه لفافة يتنازل فيها عن منصب «ساري عسكر» إلى خَلَفِهِ.

فرار الساري عسكر من أرض معركة أحلامه وطموحاته بإقامة إمبراطورية في الشرق، انهارت فجأةً، وكان يرتسم كل ذلك الأسى على وجهه، غير أن عيناه كانتا تحملان بصيص حلمٍ بعيد لتغيير الأمور في باريس، ووطَّد الأمر في نفسه، بأنه إن نجح في مسعاه الذي يذهب من أجله إلى باريس، فسيحاول الكرَّة من جديد، ليكسر أنف الإمبراطورية البريطانية، وسيجعل الشمس تغيب عنها كما يحجب الضباب عاصمتها.

راح يمنِّي نفسه بأنه سيعود إلى هذه الأرض بحشود أقوى لو سارت الأمور التي أوهم ذاته بأنها لا بُدَّ حاصلة، لكن هذا لن يتحقَّق إلا إذا استطاع الفرار من الطوق المحكم الذي أحكمه حوله الأسطول الإنكليزي بقيادة الأميرال

نلسون. إنها المعركة الأصعب في تاريخه أن ينفذ من هذا الشرك الذي نصبه الإنكليز حول مصر بكاملها.

فجأة اكتسبت حركته طابع السرعة وكأنه نضا ثوب الحذر وأمر جميع من في المكان القيام بإجراءات دقيقة متفق عليها مسبقاً. كان كلٌّ منهم يقوم بدوره بدقَّة شديدة، وبسرعة حتى يتم إنجاز الأمر من دون وقوع أيِّ خطأ.

فجأة تحركت السفن مبتعدة عن الشاطئ من دون إحداث إيّ ضجيج... كان الساري عسكر الذي تنازل عن مهامه للتو، ينظر إلى الشاطئ الذي سيودِّعه – ربما إلى الأبد – وفي قلبه غصَّة وحرقة لم يشعر بها سوى من له آماله العريضة، وأحلامه الكبيرة التي تطاول نجوم الصحراء جلية البهاء.

استدار بنظره، من اليابسة إلى البحر، وولَّى وجهه بعيداً شطر أوروبة، ثم طواه الظلام. ليتسلل عبر شبكة السفن الإنكليزية التي حاصرت سواحل مصر لتشدَّ الخناق عليه.

* * *

-٣٢-

فرَّ الساري، عاش الساري

صباح اليوم التالي لفرار ساري عسكر نابليون بونابرته، اشتدَّتْ غزوات الغيوم دلتا النيل. كان الجوُّ أشبه بنوِّ الشتاء. كانت السحب تركض جنوباً وكأنَّها تتسابق باتجاه الصحراء العطشى للمطر، وربما كان الضباب في البحر هو الذي ساعد المركب الصغير الذي تسلَّل بوساطته القائد الكبير عبر شبكة السفن البريطانية التي تطوق برَّ مصر. كان لابدَّ أن يقوم بهذه المخاطرة ليس لإنقاذ حياته فحسب، بل لإنقاذ فرنسا كلها من خلال عملية هروب إلى الأمام، ويسابق الوقت للسيطرة على مُقَدَّراتِ الحكم في باريس.

طرق أحد الضُبَّاط باب بيت القائد (كليبر) في دمياط عند الفجر. تخصص كليبر متكاسلاً، وفتح الباب وهو يفرك عينيه. أدى الضابط تحية عسكرية وهو يقول:

- احترامي سيِّدي السر عسكر الكبير، جان باتيست كليبر أمير الجيوش الفرنساوية في الشرق.

شعر الجنرال كليبر بالهلع وهو يسمع العبارة. تلفَّت ذات اليمين وذات الشمال، خشية أن يكون أحد ضباطه قد سمع عبارة الضابط الصغير الذي كان يمدُّ يده لكليبر حاملاً رسالة.

أمسك بيد الضابط بعنف وسحبه إلى الداخل، وهو يسأله:

– ماذا تقول أيُّها الأحمق. هل أنت تستغني عن عنقك!؟

تبسَّم الضابط وقال:

– سيدي، أنت الآن القائد العام، وتحمل رتبة «السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية»...

– ما هذا الكلام أيها الغبي!؟

– سيادتك تعلم أنني من أقرب المقربين إلى القائد العام السابق نابليون بونابرته، وليس من طبعي أن أخون ثقة قائدي، ولكنك أنت الآن ساري العسكر الجديد. أنت الآن القائد العام للجيوش الفرنساوية في مصر.

– دفع إليه كتاب نابليون بإصرار، والذي ينبئه برحيله، ويترك له قيادة الجيش، ويحمله سائر تبعاته.

كان الجنرال كليبر يقرأ السطور بنهم، وكأنَّ عينيه لا تصدقان حروف الخطاب.

لم تصدِّق عيناه كلمات الرسالة التي انتزعها من يد الضابط:

«... إذا أردت أن تحكم مصر طويلاً، فعليك باحترام مشاعر الناس الدينية. واحترام حرمات منازلهم، ولا تنس أنني سمعت ذات يوم للجنرال مينو بأمر عسكري بالتحوّل إلى الإسلام، والزواج من سيدة من رشيد.

يجب مواصلة سياسة التقرُّبْ من العرب أهل البلاد لأنّهم عُدَّتنا الأساس لتوطيد الإمبراطورية في الشرق...

سأل الجنرال كليبر الرسول:

– وماذا حل بالساري عسكر نابليون بونابرته؟

– لقد غادر إلى فرنسا...

– والحصار!؟...

كان لا بُدَّ أنْ يغادر. إنَّ وضعه النفسي كان قاسيا بعد الهزيمة في الشام.

– لكن إن سقط بيد الأسطول الإنكليزي فسيشكل ذلك كارثة حقيقية.

– سيدي الجنرال، أقصد سيدي القائد العام، القائد نابليون أذكى من أن يقع في مصيدة الإنكليز. أنا أراهن على ذلك.

– وما مصدر هذه الثقة؟!

– لا بد وأنه استشار الكثيرين حول حركة البحر في لحظة تسلُّله، أو ربما لن تصدق عيونهم أن نابليون يعبر عين العاصفة من دون أي مظاهر مسلحة، وكما يقول المثل العربي:

– «من مأمنه يؤتى الحذِر».

– يبدو أن مرافقتك للقائد نابليون أكسبتك الكثير من دهائه وذكائه.

– هذا بعض ما عندك سيدي القائد العام.

سارع كليبر بالانتقال من دمياط إلى القاهرة، وهناك وجد رسالتين في انتظاره، الأولى من العريش تبلغه أن الجيش العثماني قد تخطَّى حدود الشام، قاصداً مصر.

والرسالة الأخرى من المملوك مراد بك، زعيم المماليك، يعرض عليها فيها شروطه للصلح، وفيها يطالب بحكم الصعيد على أن يمدَّ كليبر بالرجال والمؤن، ويكون له حليفاً على حرب أعدائه.

طوى كليبر الرسالتين، وهزَّ رأسه وقال، كأنَّما يخاطب نفسه: يا لها من تَرِكَة!

* * *

-٣٣-

سُليمان في غزة

عندما وصل سليمان إلى غزة، لم تؤخره وعثاء السفر عن المسارعة لإكمال المهمة التي انتدب نفسه لأجلها. سارع فور وصوله إلى مقابلة ياسين آغا، وسلَّمه رسالة أحمد آغا. أمسكت أصابع ياسين الرسالة في بادئ الأمر بتكاسل وتجاهل مقيت، لكن ما إنْ فتحها وبدأ قراءة أوَّل سطورها، حتى بدأ حاجباه يرتفعان دهشة وإعجاباً.

ارتجفت شفتاه وهو يتمتم حروف الرسالة بهمس مريب. نظر إلى سليمان أكثر من مرة وهو يتابع قراءة الرسالة، ثم أشار إليه بالجلوس، من دون أن ينبس ببنت شفة. وتابع قراءة الرسالة باهتمام بالغ، إلى أن فرغ منها، ثمَّ التفت بكليته إلى سليمان، وأخذ يسأله:

– وهل تعرف القاهرة جيداً؟

– أنا أعرف القاهرة جيِّداً، عشت فيها ثلاث سنوات. أعرف حواريها، وأتقن لهجة أهلها وكأنني أحدهم...

– «شوك غوزال... شوك غوزال» جيد... جيد... وهل باستطاعتك الوصول إلى قصر الألفي؟

– لقد دبَّرت كل شيء ... نعم باستطاعتي الوصول إلى هناك.

– «اسمَع فلن» أي: اسمع يا ولد: أنا سأرفع الغرامات عن أبيك. وسأزودك الآن بالمال اللازم لإتمام العملية، لكن تذكر جيداً. أنَّ أباك وأسرتك جميعاً في قبضتنا. وأي «ملعوب» تفكِّر في القيام به، غير ما هو متفق عليه مع أحمد آغا، سنكون مضطرين لإفناء أسرتك بكاملها، أقصد الأقارب إلى الدرجة الخامسة... مفهوم؟

– إن إيماني بما أقوم به، أكبر من إي إغراءات في العالم، لأن هؤلاء الأغراب أساؤوا لنا ولديننا، ولذلك فأنا ماض إلى هدفي سواء أكنتم معي أو ضدي يا سيدي. وإن أخللتُ بالاتفاق، ما الذي سيمنعكم من إفناء قبيلتي عن بكرة أبيها؟!

أبدى ياسين آغا وجها بشوشاً لا يخفي خبثاً وحقارة فطرية في شخصيته، ولعله بدأ يسابق الوقت في إطباق المؤامرة، وتنفيذ بعض الاختراقات قبل أن تتحرك الجيوش العثمانية لاستعادة كرامتها التي مُرِّغت بالرغام... وراح يطلق كلماته بصوت هو أقرب إلى فرقعة البطن مع أن عينيه تضحكان وكلامه فيه ممازحة: شوك غوزال... شوك غوزال... أنت «فلد طيب فلن»... وسيكون لك مستقبل كبير... كبير عندنا، بعد أن تقتل ساري عسكر جيوش فرنسا.

– المهم أن تلتزموا وعودكم معنا بإطلاق والدي يا سيدي.

– نحن نلتزم دائماً بوعدنا يا ولد.

– نعم... نعم. لكن سيدي لن أنفذ الأمر المتفق عليه حتى يصبح والدي في مأمن.

– أنت تساوم إذن!... ومن الذي يضمن أن تُنَفِّذ المتفق عليه. هذه مهمة شبه مستحيلة وليست نزهة في القاهرة.

– أنا سأنفذ ذلك بكل تأكيد، وتذكر أنني رجل دين ألتزم بكلمتي، لكني

أخاف أن تتكثوا أنتم بوعودكم، كعادتكم.

– أنت يا سليمان لست في موقع المفاوض الأقوى حتى تفرض شروطك علينا...

– صحيح، ولكني في موقع المفاوض الأقوى نظراً لحاجاتكم إلي، ولقدرتي على الوصول إلى الهدف.

– كل شيء متفق عليه هنا في الورقة التي معي يا سليمان. فلماذا بدأت تغيِّر الآن في كلامك!؟

– أنا لا أُغيِّر شيئاً، ولكن ظلم والي حلب جعلني أخشى التزامكم باتفاقاتكم.

– هل تريد أن ننقل أسرتك إلى قبرص قبل أن تنفذ الأمر؟

– بل أريده أن ينتقل إلى القدس.

– موافق. وسأعمل على ذلك منذ الغد ... هناك قافلة ستسافر من غزة إلى القاهرة، بعد عشرة أيام. امسك هذه الصُرَّة. فيها أربعون «غرشاً» أي: قرشاً، قم بشراء حاجياتك وحاجيات أخيك صلاح ورفيقك إبراهيم. ستنطلقون مع قافلة الصابون والتبغ. السفر سيستغرق أسبوعاً أو يزيد يوماً أو يقل يوماً عن الأسبوع... التكتم أمر ضروري، وعليك أن تقطن في الأزهر. انتبه جيداً لما أقول، تقطن في الأزهر. بعد ذلك سننتظر منك أخباراً طيبة. وإن نجوت من هذه المهمة، فستكون هناك مكافآت بانتظارك، وهذه لن تتوقف عند الأعطيات فحسب.

– ستسمعون أنباء طيبة يا سيدي. لكن ليس قبل أن أسمع أنباء طيبة من حلب.

– الأنباء الطيبة من حلب ستصلك قبل أن تتحرَّك من غزة. لكن تذكَّر دائماً، أنَّ كل شيء مرهون بنجاح مأموريتك.

– سأتذكَّر هذا جيداً، وسأسجِّلُه في ذهني أبداً. وإن قُيِّض لنا أن نلتقي

ثانية، فأرجو أن تتذكَّر أيضاً بأنني لا أريد منكم أعطيات، بل أريد وعدا بأن تغادر عائلتي حلب بسلام. وأرجو أن تتذكَّر أنت جيداً يا سيدي، بأنني لن أقدم على أيِّ شيء مما اتفقنا عليه ما لم تصبح عائلتي في مأمن...

انطلق سُليمان برفقة أخيه صلاح، وإبراهيم إلى السوق في غزة، وبحث عن أشياء يتاجر بها لنقلها إلى مصر، إضافة لتأمين زوادة تكفي الثلاثة لمدة أسبوعين، وتوقف أمام محل حداد يصنع السيوف والمُدى، وقام بشراء خنجر مع قراب من الفضة، ووضعه لفوره في خصره. وحين سأله صلاح عن سبب شراء خنجر، في حين يمكن أن يشتري الكثير من البضائع بثمنه يمكن الربح منها، قال سليمان، وهو يربِّت على كتف أخيه الأصغر:

تذكَّر أن أمامنا مشواراً طويلاً، وأننا سنقطع الصحراء بما فيها من أخطار، ولا فائدة من بضاعة إن لم يكن ثمة سلاح يحميها.

* * *

-٣٤-

العثمانيون ينكثون

بعد أن غادر سليمان، أيقن أن العثمانيين يماطلونه، وأنه إن أقدم على أيِّ أمرٍ قبل أن يضمن سلامة أسرته، فإنه بمثابة قفزة في الفراغ. قطع عليه صمته خلال رحلة القافلة من غزة إلى القاهرة صوت إبراهيم يسأله: أنت وثقت بكلامهم يا سليمان؟

- معاذ الله... أنا لا أؤمن بهم ولا أثق بعهودهم. ولكن بعد أن يصل الحاج والدي إلى القدس سيعود أخي صلاح من القاهرة لكي يتابعوا المسيرة إلى الحجاز بحجة العُمرة في مكَّة المكرمة...

- وهل ستنطلي هذه الحيلة على العثمانيين يا سليمان؟

- هي محاولة يا إبراهيم... هي محاولة.

كانت الرحلة ميسرة إلى مصر، نظراً لأن الناس كانت تتجنب طريق القوافل بعد تلك الأحداث العاصفة إثر مرور الجيش الفرنسي ذهاباً إلى الشام، وإياباً منها. وكان على القافلة أن تبذل جهودا إضافية لتأمين حاجياتها طوال أيام، قبل أن تلتقي ببعض البدو المنتشرين هنا وهناك...

ثمَّة صراخ أوقف القافلة عندما لحظ أحد الجمَّالين بدويَّاً يلوِّح من بعيد للقافلة، اقترب منه فوجده يعاني سكرات الموت بعد أن لدغته أفعى سامَّة في قدمه، كان البدوي قد ربط رجله عند الركبة بحطته ليمنع تدفُّق السم إلى بقية

جسمه وحصرها في القدم المتورمة. كان العرق يتصبَّبُ منه بغزارةٍ، سارع بعضهم لمساعدته، وشق الجموع صلاح شقيق سليمان حتى وصل إلى البدوي، وراح يفرد صرة صغيرة كان يخبئها بين ثنايا ثيابه، وأوقد ناراً ثم وضع فوقها دلة القهوة النحاسية الصغيرة ووضع فيها الماء، وقام بجرح مكان لدغة الأفعى بسكين بشكل متصالب، وراح يمضُّ السم من قدم البدوي ويبصقه... وهكذا حتى بدأ الماء يغلي فيها، ثمَّ رفع الدلَّة عن النار، ووضع بعض الأعشاب اليابسة من الصُرَّة في الماء المغلي، وراح يبرِّد الماء بوساطة صبِّه في كأس ثم يعيد الكرَّة إلى الدلة مرات عِدَّة. طلب من البدوي شرب السائل، ووضع الحُثْمُل على الجرح.

بعد دقائق كانت الارتعاشات قد بدأت تخمد في جسد البدوي... قام صلاح بفكِّ الربطة التي كان البدوي قد ربطها عند ركبته. وقال له: يمكنك الآن أن تطمئن، فقد بطل عمل السم. كان أشدُّ الناس استغراباً لما قام به هذا الطبيب الصغير هو إبراهيم، فسأله عن هذا الدواء العجيب، فقال صلاح: إنه نبات صحراوي كنا نبيعه في الدكان، يحضره لنا البدو من الصحراء واسمه أبو كعب، ونحن نحتفظ به لمعالجة لدغات الأفاعي والعقارب.

* * *

استمرَّت الرحلة ستة أيام، وبمجرَّد وصول القافلة إلى برِّ مصر طالعتهم الأسئلة عن الجيش العثماني الذي يحاول عبور سيناء للوصول إلى مصر لانتزاعها من أيدي الجيش الفرنسي، وإعادة سلطانهم على مصر.

تحققا من الأمر من زعماء المنطقة، لأنه لا يمكن إلا أن يخطر العثمانيون هؤلاء لكي يؤمنوا الزاد والماء للجيش، فتثبتوا من أن العثمانيين قد أعدوا العدة فعلاً، إلا أن تحركات الجيش التي تحاط بالسريَّة عادةً لا يمكن البوح بها، لكنها أصبحت أمراً واقعاً.

فوجئ سليمان بالأمر، وشعر أن في الأمر خدعة، وغرز نظرة نارية في عيني إبراهيم، وكأنه يتهمه بمعرفة شيء ما، وخبأه عليه...

ضحك إبراهيم، وقال بسرعة: أرأيت يا سُليمان!؟... هؤلاء لا يؤمن جانبهم. لا يؤمن لهم ولا يمكن الوثوق بعهودهم. إنهم يريدون التضحيه بك، ومن سيطالب بالمقابل بإعفاء والدك من الديون، وإخراجه من السجن. طالما نصحتك يا صاحبي: لا تأمن لحُمْر الطرابيش... لا تأمن للترك.

* * *

-٣٥-

الفجيعة

وقف إبراهيم، وبجانبه سُليمان، وأخوه صلاح أمام بيت الحاج مصطفى البشتيلي يطرق الباب – قبيل الفجر– طرقات خفيفة، ازدادت بعد لحظات، قوةً وعنفاً، عندما طال الوقت ولم يفتح لهم الباب. مضى وقت، فنظر إبراهيم إلى سليمان دَهِشاَ، إذ لم يكن من عادة الخدم أن ينتظروا على طارق كلَّ هذا الوقت... أخيراً وصل إلى سمعهم صوتُ أقدام تقترب من الداخل، ورُفعَ المزلاجُ، ثمَّ فُتحَ البابُ بحذرٍ وبطءٍ شديدين. من العتمة برز أنف سقط عليه ضوء السماء. رأوا وجهاً صغيراً اختفى صاحبه وراء الباب، كان الوجه وجه فاطمة أخته الصغيرة، وحين رأت أخاها، تركت الباب، وألقت بنفسها على صدره، وراحت تبكي بعنفٍ وحرقة...

دخل سليمان وأخوه، وأغلق الباب، والفتاة مازالت على صدر أخيها تنتحب بصوت عالٍ.

رفع إبراهيم وجهها بين يديه، وسأل:

– لماذا تبكين؟ ماذا حدث!؟

دار حوله بنظراته، فبدا البيتُ غريباً عليه، حتى القنديل الذي كان معلقاً في سقف المدخل، لم يكن مكانه!... رأى الأريكة الموضوعةَ في صدر المدخل عاريةً من سَجَّادَتها... هزَّ أخته هزَّاً رفيقاً، وقال:

– ماذا حدث؟ ... تكلَّمي.

بكت الفتاة، ولم تقل شيئاً.

سأل إبراهيم وكأنَّما يئس من الإجابة على سؤاله الأول:

– أين أبي؟... تكلَّمي يا فاطمة.

قالت فاطمة:

– أخذوه، لا ندري أين ذهبوا به ...

قال بدهشة:

– كيف!؟ ... لماذا؟؟

قالت الفتاة، ودموعها تَنهمر على وجنتيها:

– جاء بارتلمي وفتَّش البيتَ فوجد قدورَ البارودِ التي اشتراها الناسُ يوم جاء الفرنسيون... فأخذوه من بيننا.

ساد صمتٌ رهيبٌ لا يقطعه إلا صوتُ بكاءِ الفتاة. ثمَّ عادت تتكلَّم: في اليوم التالي عادوا مرَّةً أخرى، وقالوا إن الجنرال كليبر فرضَ علينا مئة ألف ريال، وأخذوني أنا وأختي وداد إلى القلعة، ووضعونا مع نساءٍ كثيراتٍ في الحبس، حتى تدفع أمي ما فُرض علينا من مال... باعت أُمِّي كلَّ شيءٍ لتفدِيَنا... وعندما جاءتْ أمي لتعيدنا إلى البيت، كانت وداد قد قضت...

انتحبت الفتاة بحرقة وهي بالكاد تشهق لتستعيد أنفاسها.

عندما صكَّت الكلمة أُذن سليمان لم تستطع قدماه حمله، فتهاوى على الأريكة كبناءٍ تصدَّع، وراح يبكي في صمت ...

مسحَ صلاح دموعاً تساقطت على وجنتيه، وجلس على الأريكةِ بجانب سليمان، وقد هدَّته الفجيعةُ التي لم يتوقعها.

اسودَّت الدنيا في عيني إبراهيم، وفرك صدغيه بإبهامه والإصبع الوسطى، وهو يحاول كبت الألم من أن يتحوَّل إلى صراخ.

بعد قليل سمع صوتَ أمِّه الواهنَ يأتي من داخل البيتِ، تقول:

- من جاءنا يا فاطمة؟ من بالباب يا ابنتي؟

قالت الفتاةُ وصوتها يختلط بالبكاء:

- أخي إبراهيم ... ومعه سليمان وشاب ثالث لا أعرفه.

سُمِعَ صوتُ الأم الأجشُّ الذي خنقته الدموعُ يردِّدُ:

- إبراهيم! ... ولدي إبراهيم ...

ضاع الصوتُ، وأطبق السكون، حتى أقبلت الأمُّ فضمَّت ولدها إلى صدرها، وهي تبلِّل وجهَهُ بدموعها، وقالت:

- حمداً لله إذ عُدْت بالسلامة... حمداً لله على كلِّ حال. كلُّ ما يأتي من عند الله، لا يسعنا إلاَّ أن نرضى به... حمداً لله.

كانت تردِّدُ الألفاظ وهي تدورُ بنظراتها في المكان، وقد بدا على وجهها استسلامٌ بائسٌ حزينٌ:

- ماذا نصنع يا ولدي... كلُّه من عند الله، كلُّه بإرادته.

تناول إبراهيم يدها، وسعى بها إلى داخل البيت. تبعتهما فاطمة.

كان سليمان يجلس مطرقاً في صمتٍ، وكان أخوه مازال واقفاً ذهلاً للمفاجأة التي شاهدها، وسمع من مكانه أخاه يردِّد:

- لا ... لا... إن الله لا يرضى أنْ يُظْلَمَ عبادُه، وتُنتهك الحرمات... إن الله لا يحبُّ المعتدين...

صاح في عنف وهو ينشج:

- هذا من صنع الشيطان. من صنع الشيطان.

نظر إلى أخيه وقال:

– صلاح. أخي. تقدَّم واجلس بجانبي. إنني فقدتُ كلَّ شيء... الأحلامَ التي نسجتُها في نومي وصحوي... حُبِّي النقي لفتاة بطهر البراءة ذاتها. كنتُ أشعرُ أنَّها أختي وأمي وابنتي وحبيبتي. فقدتُ آمالي يا صلاح. تعالَ كُن بجانبي... لا تدعني وحدي... لا تدعني... مضى يبكي بكلِّ حرقةٍ بصوتٍ مسموع، وأخوه لا يدرك شيئاً ممَّا يجري، ولا يدري ماذا يفعل. ثم جاءَهُ صوتُ أخيه يردِّدُ في خشوعٍ وخوف: لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله. اغفر لي يارب. سامحني يا إلهي... لا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله...

أقبل إبراهيم بعد لحظاتٍ يمسحُ دموعه، وقال لسليمان:

– إنَّنا نبكي! والبكاء لا يجدي.

ردَّدَ سُليمان:

– أجل. أجل. هذا حق.

ثمَّ قال وهو ذاهل عمَّا حوله:

– هل بقي شيءٌ؟!... لم يبقَ شيءٌ أبداً ... أبداً ... أبداً ...

وراح يردِّدُ كلمة (أبداً) بصوتٍ عالٍ يائسٍ، والدموعُ تنحدرُ على وجهِهِ النحيل الحزين، وتبدو عيناه الخضراوان اللتان تلمع فيهما الدموعُ كأنَّهما سراجان تعصفُ بهما الرياح. نظراته اليائسة التي لا تستقر تشير إلى عمق مأساته، وهولِ المفاجأة التي كان يتجرَّعها في تلك اللحظات.

هيئته تدل على النبل والطيبة والوفاء لأسرة احتسبته أحد أبنائها؛ لكن بصيصاً غريباً كان يتسرَّبُ من نورِ عينيه، ليعكس الإيمانَ بمواجهةِ حياةٍ لا ترحم.

لقد كتم خلال سنواتٍ عاطفةً نبيلةً في صدرِه، واحتفظَ في قلبه الصافي بعاطفته، لا يتحدَّثُ بها أمام أحد، سوى إبراهيم في ذلك اليوم عندما جلسا في **(منتدى أبي الهول)** عند بركة الأزبكية... تداعى إلى خاطره ذلك المشهد قرب

بركة الأزبكية عندما طار الطائر واستعادت ذاكرته ذلك الحوار، وكأنَّه يستمع إليه الآن...

* * * * * * * * * * * * * *

... صوت طائرٍ صغيرٍ يضرب بأجنحته صفحة الماء، كأنه يغسل فيه آثار النوم، ثمَّ يرتفع محلقاً في السماء.

سليمان: سأمضي إلى الشرق كما يمضي هذا الطائرُ، أفتُراني أعود كما سيعود الليلةَ إلى دوحته؟

إبراهيم: إني أرجو أن تعود يا سُليمانُ في أقربِ وقت.

سليمان: نعم... سأعود رجاء تحقيق أملٍ جاش في صدري أعواماً، لأجعل الصداقة التي ربطتنا، قرابةً خالدةً على مرِّ الأيامِ والسنين.

يسكت سليمان لحظة، قبل أن يتابع الحديث: سأعود لأطلب يدَ أختك وداد، وأرجو ألا تضنُّوا بها على طالب علمٍ فقيرٍ مثلي.

إبراهيم: إنه ليسعدُ أبي من غير شكٍّ أن يجيب طلبك وأن يحقِّقَ أملك.

* * * * * * * * * * * *

يستفيق سليمان من حلمه وصورة الطائر الذي يضرب الماء لا تبارح عينيه ...

كأنه يرفضُ أن يرى الواقع الآن الذي حطَّم الأحلامَ والآمال، وراحتْ أوراقُه الخضراءُ تذبل وتتساقط ...

تخيَّل ذهنه كل المأساة في تساقط الأوراق الذابلة التي يكنسها الهواء ليرمي بها في ترعةٍ من النيل فتسدَّ على المياه طريقَ الجريان، وتكبر ... وتكبر لتسدَّ الطريقَ أمامَ الهواءِ الذي يحمل الكثيرَ من الغبارِ والرمالِ الناعمةِ التي تتكدَّس فوقَ الأوراقِ المتساقطة، فتقيم سَدَّاً أمام الهواء الفاسدِ أصلاً والذي لا يصلحُ للتنفُّس.

هواء القاهرة الذي تطبق عليه الرمال التي تحملها العواصف الهوج، كان تلك الليلة أقسى من أي وقت مضى. كان مزعجاً إلى درجة مقيتة، وتضيق معه عملية التنفُّس بسبب ذلك الغبار الناعم الذي ينتقل إليها من أجواء الصحراء المحيطة بها من الغرب والجنوب والشرق، فيتكثَّف ليطبق هذا الجوُّ على جوِّ القاهرة وكأنَّه غمام، لكنه غير محمَّلٍ بالماء، ولا بالرطوبة، ولا بالبرودة، ولا بالنقاء، فكان يزيد الهمَّ همَّاً، والغمَّ غمَّاً.

حتى الأبواب والنوافذ كانت تصطفق بفعل الرياح العابثة، فتبدو وكأنها في حركة احتجاج على الاحتلال الفرنسي الجاثم على مصر وعلى شعبها الطيب المسالم الذي لا يعرف سبباً لهذا الحقد، ولا مقداره ...

سماءُ القاهرةِ أمست - في عينيه - كسماءِ معركةٍ في صحراءَ ألهبتها الطبيعةُ بالرياح والقيظ لتزدادَ الحرارةُ فتسيخ العقول إلى درجة الجنون. أصوات الرياح تعبث بالشجر، وتجعل الأشياء تتطاير لتحول المنظر وكأنه مشهد في الجحيم.

تسمَّر نظره عبر النافذة التي كانت تتلقى الرمال وكأنَّها المسامير، والأعشاب اليابسة تتكسَّر هجماتها على زجاجها بعنف وكأنها سهام تبحث عن أهدافها داخل البيت.

نهض سليمان وخطا بضع خطوات نحو الباب، فقال إبراهيم:

- إلى أين يا سليمان؟

قال:

- إلى الأزهر.

- ماذا تفعل في الأزهر؟ ولم تشرق الشمس بعد!

– لن تشرق الشمسُ بعد اليوم أبداً... لا أستطيع أن أتصوَّر هذا البيت، وقد غاب عنه صاحبه الطيِّب النبيل الحاج البشتيلي... وغابت عنه...

ماتت الألفاظ فجأةً على شفتيه. وأتمَّت العبرات كلامه. مضى خارجاً لا يلتفتُ وراءه.

قال إبراهيم لصلاح:

– كُنْ بجانبه، ولا تفارقه.

مضى صلاح يعدو، ليلحق بأخيه.

* * *

-٣٦-

العثمانيون يفشلون

بعد أيام، هزمَ الجنرال كليبر الجيشَ العثماني الكبير الذي جاء لطرده من مصر، ومزقه شرَّ تمزيق، وطارد فلوله حتى تفرَّقت في الصحراء، ثمَّ عاد إلى القاهرة، وقد اطمأن إلى مقامه، وأمِنَ على نفسه.

بدأت أحلام الشرق تراوده وتلحُّ عليه. أيُّ فخارٍ يحقِّقهُ لنفسه، وأيُّ مجدٍ يسمو إليه، لو استطاع أن يحقِّقَ ما عجز عنه نابليون بونابرته!...

إنَّ الجيش العثماني قد هُزِمَ شرَّ هزيمة، وأصبح الطريق إلى الشام مفتوحاً ليؤسِّسَ الدولةَ الكبرى التي راودت نابليون في أحلامه، ثمَّ عجز عن تحقيقها.

أصدر الجنرال كليبر أوامره، بإعداد العدَّة للزحف إلى الشرق بأسرع وقت ممكن، وعندما عاد إلى القاهرة أراد أن يبدأ صفحة جديدة مع الشعب، يكسب بها ثقته ليدعم انتصاره على العثمانيين، والذي كان من بين الوعود التي قطعها منشور نابليون.

حاول بكلِّ ما لديه من خبرة ودهاء ومداهنة - عِلماً أنه صادق في أطروحاته - قَطعَ دابر العثمانيين، وكفِّ يد المماليك المتسلطة على مصر. لكن لم يكن قادراً على الاختباء خلف ذئبيته، أو أصابعه.

بدت نواياه مكشوفةً بأنه يحاول، بمثل تلك الأقوال والأفعال، تمهيد السبل لتحقيق أحلامه.

أمر كليبر بالإفراج عن المحبوسين، الذين اعتقلهم، عندما نُمِيَ إليه زحف

الجيش العثماني، حتى لا يؤلبوا الناس عليه أثناء انشغاله في حرب العثمانيين. وجاء قرار الإفراج عن المعتقلين، كخطوة في اتجاه المداهنة، مظهراً حسن نواياه، للتقرُّب إلى الناس ريثما ينجز الحلم الفرنسي بالسيطرة على الشام، ولم تكن أي خطوة من خطواته تهدف إلى إصلاح سياسة البطش، بل في سبيل تحقيق أهدافه.

وفي ليلة من ليالي مارس (آذار) والظلام دامس الحلكة، كان الحاج مصطفى البشتيلي يمضي إلى بيته، متكئاً على عصاه، ويستند بين لحظة وأخرى بيده الثانية إلى الجدار، كي لا يسقط أرضاً من فرط ما يعاني من إعياءٍ وضعف.

وصل مصطفى إلى الباب ورفع يده، وطرقه طرقات ضعيفة متقطِّعة...

فتح إبراهيم الباب، وحين رأى الأب ولده ماثلاً أمامه، لم يتمالك نفسه، فترك عصاه ويده التي تسنده ليضمَّ ابنه إلى صدره، فكاد يسقط على الأرض، لولا أن تلقاه ولده على صدره، وحمله إلى الداخل والأب يقول:

- ولدي... ولدي... حمداً لك يا رب.

أجلسه إبراهيم على الأريكة في مدخل البيت، ومضى إلى الفناء ينادي أمَّه وفاطمة. فجاءتا على عَجَل. قبَّلته فاطمة بقوة. رفع الحاج مصطفى نظره في أهل بيته من حوله، وجال بنظراته مرات فيهم وقال:

- أين وداد؟

لم يسمع جواباً، فعاد مرَّةً أخرى يردِّد بصوت خافت لا يكاد يسمع:

- أين ابنتي وداد؟؟

لم يجبه سوى الصمت. نظر إلى وجه زوجه التي كانت مطرقة تكتم انفعالها إشفاقاً عليه، ونقل بصره إلى فاطمة، فطالعته وعلى وجهها الدموع، فقال بصوت مرتعش:

- ماتت؟؟

ثم أطرق إلى الأرض.

* * *

-٣٧-

تجدُّد حلم الزحف إلى الشام،
وثورة القاهرة الثانية

بدا واضحاً لكلِّ ذي عين، أنَّ وجود الجيش الفرنسي، على أرض مصر، لا يعدُّ انتهاكاً لحرمة أرضها فحسب، بل امتهاناً لكرامة الأفراد أنفسهم، وعدواناً على حرماتهم ومقدساتهم، وسيفاً مسلطاً على الرقاب يطيح بها في أيِّ وقت، وكان أيضاً تهديداً دائماً لسائر البلدان العربية التي ارتبط مصير بعضها بمصير الكل منذُ أقدم العصور.

وحين كان الجنرال كليبر يُعِدُّ عُدَّتَهُ للزحف إلى الشام، كانت قلوب جميع الناس، الذين أظلَّتهُم سماءُ مصر، تدمى بالجراح.

كان الناسُ يتقابلون، فيتبادلون نظراتٍ طويلةً آسفةً، كأنَّما حُبستْ ألسنتهم، فليس لها أن تنطق، وكأنَّ الرعبَ القاتلَ قد ربض على الصدور، فليس لها أن تفصح.

مضت أيامٌ والقاهرة ساكنةٌ هادئة. يسعى الناس إلى أعمالهم اليومية، ثمَّ ينصرفون إلى منازلهم. أقفرت الأندية، إذ هجرها روَّادُها وشعراؤها ومدَّاحوها.

تصوَّر كليبر أنَّ الأمن قد استتب، وأنَّ النصر قد عُقِدَ له. فبعد أيَّام ستخضع له الشام، ثمَّ يقوِّضُ بعد ذلك دولة العثمانيين، ويحرِّر اليونان وسائر دول أوروبة من قبضة الآستانة. رسمت له أحلامه بأنه سيصبح سيِّدَ هذا

الشرق، لا ينازعه أحدٌ سلطانه.

قرَّر أنه سيرسل جيوشه غرباً على شاطئ أفريقيا الشمالي، ليستولي على طرابلس الغرب والجزائر ومراكش وشنقيط، ويجعل علم فرنسا يخفق عالياً في كلِّ مكان من شواطئ البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، بعد أن دانت إيطاليا والنمسا لسلطان فرنسا.

في يوم الجمعة المصادف ٢٠ مارس (آذار) التقى الناس كعادتهم، وتبادلوا النظرات الحزينة الطويلة، وهم يدخلون إلى الجامع الأزهر... جلسوا صفوفاً متراصة، أطرق أفرادها في خشوعٍ وصمت، ثمَّ نوديَ للصلاة، فنهضوا إليها، وعندما فرغوا منها، ودارت الرؤوس، وامتدت الأيدي للسلام، رُوِّعوا من صوت مفزعٍ يصيح:

– لا ... لا ... دعني لا.

نهض الناس واتجهوا بأبصارهم إلى الوراء، فرأوا شاباً يسرع إليهم مذعوراً، وقد اقتحم المسجد، ووراءه بارتلمي، ومعه جماعة من الجنود. أخذ الشاب يصرخ برعب:

– سيذبحونني كما ذبحوا أخي. لا... لن أذهب. الغوث يا عباد الله الغوث...

ارتفعت الأصوات تردِّدُ من كلِّ جانب:

– ماذا يريد منه؟

قال آخر:

– كيف يدخلون بيت الله وراء رجل آوى إليه!؟

فصاح بارتلمي يهدِّدً الناس:

- لا شأن لأحد منكم به. انصرفوا إلي بيوتكم.

وأمسك بالشاب من ذراعه، وجذبه إليه بعنف. رأى الناس إبراهيم البشتيلي يخترق الصفوف حتى بلغ بارتلمي، ورفع يده وصفعه على وجهه بقوَّة.

أراد بارتلمي أن يرفع غدَّارته بوجه إبراهيم، فنزعها الناسُ من يده، وارتفعت الأصوات من كلِّ جانب، فولَّى الجنود الأدبار مذعورين، وتركوا بارتلمي بين أيدي الجماهير، فأخذ يدور بنظراته المذعورة في وجوه الناس، وقد امتُقِعَ وجهُهُ من الرُعب.

قال إبراهيم:

- ستلقى جزاءك أيُّها الكلبُ القذر.

قال بارتلمي متوسِّلاً، وقد رأى الناس تتحفَّزُ له:

- إبراهيم إنَّك لا تريد بيَ شرَّاً...

امتدت الأيدي إليه بالصفعات والركل، وصاح رجلٌ كبير السن: لقد قتل لي ولدين. أسلموه إليَّ أقتلْهُ بواحد منهما، وإن كان لا يساوي قلامة ظفرٍ منه. دعوه لي.

صاح ثالث:

- لا تقتلوه في المسجد.

فدفعه الناس إلى خارج المسجد، وانهالوا عليه بالعصي والنعال، حتى كاد أن يلفظ أنفاسه، لولا قدوم دورية من الجنود يهرولون من بعيد لإنقاذه بعد أن أبلغهم عناصره بأنه أصبح فريسة بين أيدي الناس.

من مئذنة الجامع، ارتفع صوت يردِّد:

- اللهُ أكبر. حيِّ على الجِهاد... حيِّ على الجِهاد...

كأنَّ المآذن كلَّها كانت على موعد، فلم تمض لحظات حتى ردَّدت كل المآذن العبارة نفسها، وتجاوبت السماء مع النداء في كلِّ مكان.

وثارت القاهرةُ ثورتها الثانية في وجه الطغيان، لتحطِّم أحلام الجنرال كليبر، لتدفنها إلى الأبد، كما دفنت الشام أحلام نابليون التي تكسرت على أسوار عكَّا.

في اليوم التالي، انضوى تحت لواء الثورة، جميع سكان القاهرة والريفيون المرابطون فيها، بمن فيهم النساء والأطفال. تردَّدت في كلِّ مكان نداءات وصيحات تهزُّ القلوب، وتُصِمُّ الآذان، وسمع أهالي القرى والضواحي بثورة القاهرة، فهرعوا إليها يحملون بنادقهم وعصيَّهم ويشاركون في وقائعها وأحداثها كافَّةً.

عصر اليوم التالي بدأ الشعب هجومه على معسكر الفرنسيين في الأزبكية، واضْطُروا الفرنسيين إلى الجلاء عن بعض البيوت التي كانوا يسكنونها حول البركة، فدخلها الثوَّار، ورابطوا بها. يوجهون الضربات منها إلى الجيش المحتل.

بعد قليل، بدأت المدافع تضرب المدينة. صمدت المدينة تحت القصف أياماً حتى سكتت المدافع عن الضرب لنفاد ذخيرتها، لكن الحرائق التي أشعلتها قذائف المدفعية أتت على الكثير من المؤن والغلال في المدينة.

اندفع آلاف الجنود إلى الشوارع يقتلون أيَّ شيء يتحرك. لم تسلم القطط

والكلاب من بطش العسكر الفرنساوي، حتى الأشجار لم تسلم من ضرباتهم الحاقدة على كلِّ ما يحمل نسمة من روح. الحمير التي تحمل الماء، القرب التي تنقل الماء كانت تتعرض للطعن، السقاؤون الذين تصادف وجودهم في الشوارع تحولوا إلى جثثٍ هامدة ...

تراجع الشبان إلى الأحياء البعيدة لتنظيم صفوفهم واصطياد فرائسهم من الجنود بهدف الاستيلاء على قطع السلاح، ثمَّ بدأت أعمال الإغارة المنظمة على الجنود...

بعد أيامٍ قليلة، كانت معظم أحياء القاهرة، في أيدي الثوَّار، وتفتَّقت العقول الثائرة عن أعمالٍ معجزة، فأنشؤوا مصنعاً للبارود والقنابل، وآخرَ لإصلاح الأسلحة، وأخذوا يجمعون القنابل التي تتساقط على المدينة من المدافع الفرنسية، ويستعملونها قذائف!

كان كلَّ فردٍ يُقدِّم من بيته أو متجره ما يراه صالحاً لمواصلة القتال، وأقبل أهل القرى بالحبوب والمؤونة.

انكمش الجنرال كليبر وجنوده في حيِّ الأزبكية، وأقاموا المتاريس لتحميهم من الثائرين، وتركوا خطَّة الهجوم، ولزموا خطَّة الدفاع.

مرَّتْ أيَّامٌ وأسابيع، والشعب يضيِّقُ الخناق على الفرنسيين، يوماً بعد يوم. جلس كليبر ذات يوم يفكِّر وهو يشهد آماله وأحلامه تنهار وتذوي أمامه، وأراد أن يلعب لعبة نابليون، فأرسل رسلاً من المقربين إليه، يدعون الشعب إلى الصلح. بيد أنَّ الشعب نكَّل بهم، وجعلهم عبرة لغيرهم.

أقبلت السفن الفرنسية بالجنود من الريف، لتنقذَ حامية القاهرة، فخرج لها

أهل بولاق وأغرقوها في النيل، ولم يعد كليبر يفكِّر في الانتصار بقدر ما كان يفكِّر في وسيلة ينجو بها وجنوده من قبضة الثورة.

* * *

-٣٨-

المماليك، خنجرٌ في الظهر

تحت جنح الظلام، في ليلة من ليالي إبريل (نيسان)، أقبل أحد الجنود، وأسرَّ في أُذن كليبر بكلمات قليلة، فبدَتْ على وجهه فرحةٌ مباغتة، فصاح: أين هو؟ آتوني به.

بعد دقائق، كان المملوك مراد يقف أمام القائد العام للجيش الفرنسي.

قال كليبر:

– لقد أرسلت أخبرك بأنني قبلت شروطك لحكم الصعيد باسمنا.

ابتسم مراد بدهاء ومكر وقال:

– ما جدوى حكم الصعيد، إذا كنت تريد أن تتقاضى كلَّ عامٍ عشرة آلاف كيس!؟

قال كليبر:

– أتراها شيئاً كثيراً!؟

قال مراد:

– من غير شك. إن جنودي الذين سيدافعون عن الصعيد، ويخضعون الناس، هم بحاجة إلى رواتب كثيرة.

– ماذا تريد؟!؟

– أنا لا أستطيع أن أدفع أكثر من ألف كيس.

سَكَتَ كليبر لحظةً، وتفرَّسِ في وَجْهِ هذا الرجل الذي وقفَ أمَامَهُ، وقد ثبَّتَ نظراتِه على وجهه. لقد اختار للمساومة وقتاً مناسباً!... قال له:

– لكن ما جدوى المساومة الآن! إذا كان كلُّ شيء الآن مُعرضاً للانهيار!؟ إنَّ الثورة تكاد تلتهمنا جميعاً.

– لا تظن أني أبله، لقد فكَّرت في أمرها.

– فماذا ترى؟

– أنت تعلم أنَّني حملتُ السلاحَ لأخمدَ الثورة ضدكم في الصعيد، إنَّ الناس ينظرون إليَّ كواحدٍ من أتباعكم. أنا أعلم أنَّ مصيري، يرتبط الآن بمصيركم.

قال كليبر، كأنَّما نفد صبره:

– فماذا ترى؟؟

– لا أملَ في إخمادِ هذه الثورة بالقتال. إنَّ أكثر من خمسين ألف ثائر من الرجال والنساء، يقفون صفاً واحداً في أكبر ثورة شهدها تاريخُ البلاد.

– نعم أعلم ذلك، ولكن ماذا نفعل؟

– هناك طريقةٌ واحدة للنصر.

– أيُّ طريقة؟ تكلم.

– أنْ تُحرقَ المدينة.

ابتعد كليبر خطوتين عن المكان الذي وقف فيه مراد، وأدار له ظهره، وأخذ ينظر من نافذة الحجرة أمامه. لم يرَ للقاهرة بيوتاً، كان كلَّ ما رآه مآذن تصعد عالياً في السماء....

تصوَّر النار وهي تلتفُّ حول هذه المآذن البيضاء التي تلمع في ضوء القمر الصافي، وجاءه صوت مراد يقول: إمَّا أن تدع النار تأكلك، أو تدعها تأكل أعداءك، ولا خيار بين الأمرين.

استدار كليبر ليواجه مراداً، وفي نبرة وحشية قال:

– نعم. لا خيار بين الأمرين. يجب أن تحرق القاهرة.

– لقد جمعت لها من الحطب والبارود، ما يكفي لحرق مدينتين كالقاهرة. إنها في السفن عند مصر القديمة. فإن أمرت، تمَّ لك ما تريد... الليلة... وسوف يصحب رجالك رجالي، ليكون لنا جميعاً شرفُ هذا النصر العظيم.

فردَّ كليبر: نعم. نعم.

ثمَّ صاح كالمجنون: النصر العظيم. سننال النصر العظيم، بعد أن قاتلنا المدينة شهراً... سننال هذا النصر العظيم. سننتصر.

أقبل بعض ضباطه ورجاله على صوته، فلقيهم ضاحكاً وهو يقول: سننال النصر العظيم. سننتصر. سننتصر ونُخْضعُ القاهرة.

ونظر إلى مراد وقال: كم تريد من الرجال.

قال مراد: أريد خمسين رجلاً.

ضحك كليبر كالمجنون: كيف لم أفطن لهذا الأمر. إنِّي لغبي. لقد فقدّتُ ألفاً من جنودي، وغرقت سفني، ولم أدرك النصر، والآن بخمسين فقط من رجالي يتحقق النصر العظيم.

وأخذ يضحك وهو يميل إلى الأمام والخلف، ولم يدرِ رجاله ما أصاب قائدهم. كان يهذي من غير شك، فكيف يدرك النصر بخمسين رجلاً بعد أن أعياهم بلوغه بخمسة آلاف رجل.

ثمَّ سمعوه يصدر أمره: فليذهب خمسون من جنودنا الشجعان مع مراد بك.

لم يتحرك أحدٌ من ضُبَّاطه، وظلُّوا ينظرون إليه، إذ خُيِّل إليهم أنَّه مخمورٌ

يهذي.

قال بغضب: لماذا لا تصدعون لأمري!؟ أريد أن يذهب خمسون من رجالي الشجعان مع مراد بك.

ضحك مراد وقال: ليس من الضروري أن يكونوا شجعاناً.

نظر كليبر إلى مراد وقال: أترى الأمر لا يحتاج إلى شجاعةٍ ياصديقي.

لم يتحرَّك أحدٌ فصاح بعنف: لماذا تقفون هكذاَ!؟ أنا القائد العام. لستُ مجنوناً أو مخموراً، لقد أمرتُ بأن تحرق المدينة الليلة، لقد دبَّر مراد بك الأمر، وسيعاونه رجالنا الخمسون في حرق القاهرة. رفع رجلٌ وقف في الخلف صوته قائلاً: ولكن...

قاطعه كليبر بحِدَّة بصوت عالٍ: من المتكلم؟

قال الرجل: فيفان دينون.

قال كليبر: لستَ من رجال الحرب، ولا حقَّ لأحد في مناقشة أمر القائد العام.

لم يمنع ذلك، من أن يتابع دينون: إنَّ ما ستقوم به، ليس عملاً من أعمال الحرب. إنَّ في القاهرة أطفالاً ونساءً، سوف تجعلهم طعاماً للنيران... ومن حقِّ كلِّ ذي ضمير أن يهتزَّ لمصيرهم. وفيها أيُّها القائد – إلى جانب ذلك– معالم وآثار وفنون تعدُّ تراثاً للإنسانية كلِّها...

ضحك كليبر وقال وسط الصمت الذي أعقب كلمات الفنان فيفان دينون: إنَّ الحريق سيمكنكَ من رسم منظر بديعٍ أيُّها الفنَّان. تصوَّر هذه المآذن العالية، وسط النار واللهب. تصوَّر الدخان يحجب صفاء هذه السماء، ثمَّ يكون النصر. أيُّها القائد بليار أصدع بالأمر.

خرج بليار لينفِّذ الأمر، ومضى كليبر حتى وقف بجانب فيفان دينون،

وقال له:

- تعالَ واصعد معي إلى القاعة الكبرى، لترى المنظر من الأعلى، ونشرب معاً كأساً من الخمر... في مواجهة النار، وألسنة اللهب.

لم يجب فيفان بشيء، وظلَّ لحظة ينظرُ في وجه كليبر، الذي بدا ممتقعاً، ووحشياً... ثمَّ أدار الرسَّام له ظهره، وابتعد.

مضى كليبر يصعد درجات السلَّم ببطء ووراءه صديقه المهندس بروتان. قال كليبر:

- إنَّ فيفان يبدو على حق، ومن واجب المرء دائماً أن يرضي ضميره.

وضحك ضحكةً لم يفهم بروتان مرماها، وأردف كليبر: سأرضي ضميري.

وأرسل في طلب الشيخ عبدالله الشرقاوي «رئيس الديوان»...

عندما أقبل الشيخ الشرقاوي كانت تشغله الهواجس، لأيِّ شيءٍ يُسْتدعى في هذا الوقت من الليل. ظنَّ أنَّ الفرنسيين يفكِّرون بغدرٍ جديد بالأهالي، كما فعلوا غير مرَّة من قبل، وسيجعلونه اللقمة الدسمة المليئة بالسم لهذا الشعب المناضل.

حين مثل الشيخ الشرقاوي أمام كليبر، بادره هذا بقوله: ليس في الأمر ما يزعج، لأن القاهرة ستحرقُ غداً، إذا لم يلق الثائرون السلاح، قبل شروق الشمس.

قال الشرقاوي وهو لا يكاد يصدِّق: أتريدُ حرق القاهرة!

قال كليبر بهدوء: نعم.

- إنَّ في القاهرة، ألف بيت من بيوت الله.

- لا يهم. إذا كنتَ تريد إنقاذها، فاطلب إلى هؤلاء الثائرين إلقاء السلاح

قبل طلوع الشمس.

خرج الشيخ الشرقاوي مسرعاً، إنَّه يعلم أنَّ الثوار قتلوا بعض الساعين في طلب الصلح، لكنه الآن صمَّم على المجازفة بكلِّ شيء لإنقاذ مدينته، وعندما وقف عند باب القصر ليركب دابَّته، رفع بصره إلى السماء، فرأى دخاناً يتصاعد، لم يلبث أن تحوَّل إلى لهبٍ أحمر، تلقَّفته الريح، ومضت تنقله شرقاً لتضرب به المآذن والبيوت، واستحالت الأخشابُ والطوب إلى قطع من الجمر تتساقط كالشهب على ما يجاورها، فلا يلبث أن يشتعل.

لم يتمالك الشيخ الكبير نفسه، فأخذت دموعه تهمي على وجنتيه، وترك دابَّته ومضى ببطء ثقيل، وقد شعر بفداحة الوزر الذي اقترفه يومَ مدَّ يده إلى الفرنسيين.

* * *

-٣٩-

انهيار عمود البيت

أسهم الأذى الذي لقيه الحاج مصطفى البشتيلي في سجنه، وفجيعته في ابنته الكبرى وداد، بالإضافة إلى كِبَرِ سنِّه، في رفع معاناته، وانهيار حالته الصحية، إلى درجة أنَّ اضطر لملازمة الفراش أيَّاماً.

وبينما كان يجلس على فراشه - ذات يوم - يحمل كوباً من اللبن، وبجانبه ابنته فاطمة، كانت نظراته الساهمة في سقف الغرفة توحي بأن أفكاراً غريبة تتجاذبه، بعد هنيهة تقلَّص جلد وجهه، وهو يمسك بقبضته بقوة على صدره الأيسر، وسقط الكوب من يده فجأة، وهوت يده بجانبه على الفراش. أراد أن ينطق، فخانه لسانه، وخرجت الكلمات من بين شفتيه ممزقةٍ لا تفصح عن شيءٍ.

أسرعت إليه فاطمة تمسكه بين يديها، وقد بدأ يميل بجسمه كأنَّه يسقط. صرخت الفتاة، فأقبلت أمُّها على عجلٍ، وأدركت الأم حين أبصرت زوجها، أنَّه أُصيب بالشلل، وفقد القدرة على الحركة والكلام، وبدأت الدموع تتساقط من عينيها، في حين أخذت فاطمة تبكي بصوت مسموع.

كانت النار مازالت تلتهم أحياء القاهرة منذ ثلاثة أيام، وابنها إبراهيم يقود معركة حيِّ بولاق مع أهل الحي ضد الفرنسيين على الجانب الآخر. ومنذ اشتعلت النار في القاهرة، أخذ أهل بولاق حذرهم، فكانوا في يقظة دائمة.

لقد أمضى إبراهيم ليالٍ كثيرة بعيداً عن بيته، وحين أصيب والده بهذا المرض المفاجئ نادت أمُّه الخادم وطلبت منه أن يمضي إلى إبراهيم ويخبره الأمر. سمعها الشيخ الراقد في الفراش، الذي لا يقدر على الحركة أو على الكلام، أراد أن يقول لا، فوقفت الكلمة على لسانه، وخرج الخادم وهو يتململ في فراشه غير قادر على منعه، ولا تدري زوجه ماذا يريد.

جاء الخادم إلى إبراهيم، وهو وسط المعركة، وأبلغه بأن أمَّه تدعوه إليها. فقال إبراهيم:

- في هذا الوقت لا أستطيع الذهاب. إنَّ الفرنسيين بدؤوا يحوِّلون مدافعهم نحو بولاق بعد أن أتت النيران على القاهرة وأسكتتها. رأى إبراهيمُ سليمانَ يقفُ على مقربة منه، فقال له:

- اذهب أنت، وانظر ماذا يريدون.

حوَّل بصره إلى الخادم وقال:

- لكنك لم تخبرني ماذا تريد أمي.

قال الخادم:

- أبوك...

وقفت الكلمات على لسان الخادم. فقال إبراهيم:

- ما به أبي. تكلَّم.

قال الخادم بصوتٍ متعثِّرٍ حزين:

- أُصيب بالشلل.

خَيَّم الصمتُ لحظةً ، تبادل فيها إبراهيم النظرات الذاهلة مع سليمان، وكلاهما لا يصدِّق ما سمع من الخادم. قال إبراهيم:

– سليمان، خُذْ مكاني أنت وصلاح حتى أعود، وخذ بندقيتي...

بدا أن سليمان يريد أن يقول شيئاً، لكن إبراهيم عاد مسرعاً قبل أن ينطق سليمان بشيء. سأل صلاح أخاه:

– ماذا تريد يا سليمان؟

قال سليمان في حيرة، وهو ينظر إلى البندقية:

– كيف أحمل هذه البندقية، وأقتل بها؟! لم أُخلق لهذا!...

قال صلاح، وهو ينظر إلى أخيه دهشاً:

– لكنك الآن في المعركة.

– نعم . أنا فيها بشعوري وقلبي، وليس لأحد أن يتخلَّف عن أمرٍ كهذا. إنَّه وإنَّها حرماتنا، ولكن أن أحمل هذه البندقية وأقتل بها، ذلك ما لا أستطيع.

– لا تكن جباناً.

فوجئ سليمان بأخيه الصغير يلقي هذه العبارة في وجهه، فامتقع لون وجهه، وردَّد بصوتٍ ضعيف:

– أنا جبان.

كان شيخٌ كبير يستمع إلى حديث الأخوين، فدنا حتى وقف بينهما، وقال لسليمان يشجِّعه:

– إنَّ الأخيار يا ولدي، هم الذين لا يحسنون القتل، ويخشونه. إنَّك من الأخيار. لكن انظر إلى أمامك، وهذا الموتُ يزحفُ إليك من فوَّهات مدافع الطغاة... أتظلُّ ساكناً حتى يحصدك الموت!؟ إنَّ الدجاجة – على صغر شأنها– تضربُ الأرض بأظلافها وأجنحتها، ولا تستسلم صاغرة للموت وهي ذبيحة. احمل بندقيتك حتى لا تقتل.

ثمَّ تركه الشيخ ومضى. وبدأ الفرنسيون يطلقون نيران مدافعهم على الحي، وظهر أمام سليمان أكثر من جنديٍّ فرنسيٍّ... كان يرفع يده ويصوِّب البندقية نحوهم، وفي كلِّ مرَّة كان يخطئ الهدف. كان مضطرباً تحت تأثير عواطفه الإنسانية النبيلة. وكانت يده تهتزُّ على ضربات قلبه الخيِّرة. فلم يصب هدفه مرَّة واحدة.

عاد إبراهيم قبل الغروب، وقال لسليمان، وهو يتناول بندقيته:

– اذهب وكن بجانب أبي، فإنَّني أخشى أن يموت، وليس في البيت أحدٌ منَّا.

مضى سليمان، وهو يقول لأخيه:

– صلاح كُنْ شجاعاً، مادامت الشجاعة تخونني في هذا الأمر. لم أُخلق لهذا، وكلٌّ امرئ ميسَّرٌ لما خُلقَ له.

ثمَّ أسرع في مشيته، حتى واراه الظلام.

بقي حي بولاق، بعد حريق القاهرة، يقاوم أسبوعاً كاملاً، وقد سدَّ أهله، جميع المنافذ الموصلة إليه، ووضعوا أمامه المتاريس، وحملوا حجارة البيوت المتهدمة، وألقوها في الطريق، لتسدَّ على الفرنسيين سبيلهم، إذا أرادوا اقتحام الحي.

أرسل الفرنسيون رُسلاً، يدعون فيها أهل الحي إلى التسليم، ويعدونهم بالعفو، ويتوعدونهم – في الوقت نفسه – إذا استمروا في المقاومة بهدم الحي على من فيه، من الأطفال والنساء.

كان الجهد والحرب المستمرة، وسهر الليالي الكثيرة، وقلَّةُ المؤن، وتوقف التجارة، قد هدَّت الناس، وضعضعت قواهم، وزلزلت قلوب نسائهم وأطفالهم من حولهم. وذات ليلة، أقبل الناس على إبراهيم، يطلبون منه أن يقبل التسليم، بعد

أن أُحرقت القاهرة وهجرها أهلها، فأمهلهم بعض الوقت، وعاد إلى البيت، ومضى إلى الحجرة التي رقد فيها أبوه، ووقف أمام الفراش. شعر الرجل المريض بولده، فرفع بصره إليه بنظرات متسائلة. أطرق إبراهيم بوجهه إلى الأرض وقال: أبي إنَّ أهل الحي، يطلبون مني وقف القتال والتسليم.

وقف ينتظر إشارة من أبيه، تنير له الطريق الذي يسلكه. امتقع وجه الرجل المريض،ثمَّ احتقن بالدم، وفجأة سمعوه يتكلَّم بصوت عالٍ مدوٍّ: لا تستسلموا. قاوموا حتَّى آخر رجل، وآخر طلقة. قاوموا السفَّاكين الظالمين حتى النهاية.

بدا أن الحاج مصطفى لا يريد أن يتوقف عن الصياح والكلام، وخشي إبراهيم عليه، من حِدَّة الانفعال وثورة الغضب، فسارع يقول:

– سنفعل يا أبي. سنفعل ما تريد. سنقاوم.

سكن الرجل المريض، وبدا وجهه شاحباً، كأنَّ أنفاسه خرجت مع الكلمات، ثمَّ أغمض عينيه، وأسلم نفسه للنوم.

رأى إبراهيم الناس ينتظرونه، وعلى وجوههم، وفي نظراتهم أملٌ. سكنوا لحظة والنظرات كلُّها معلَّقةٌ بوجهه، ثمَّ قال:

– أيُّها الناس، سنقاوم حتى آخر رجل، وآخر قطرة من دمائنا. إنَّ متاجر أبي مفتوحةٌ لكلِّ صاحب حاجة، ومخازن غلاله كلها لكم، فخذوا ما تشاؤون منها، حتى نحقِّقَ رجاءه، فلا نستسلم، ونقاوم حتى النهاية، فإما النصر، وإما الموت بكرامة.

ردَّت كلماتُ إبراهيم، الروحَ إلى الناس، الذين كانوا يهمُّون بالاستسلام، فشمَّروا عن سواعدهم، واستعدوا للكفاح من جديد.

وقف الجيش الفرنسي مذهولاً، أمام صلابة أهل بولاق أيَّاماً أخرى.

بدأ الحاج مصطفى يستردُّ عافيته، وهو يسمع أنباءَ مقاومة أهل بولاق للطغاة، وبقي وجهه الذي غضَّنته السنون والأحداث مُشرقاً طيلة هذه الأيام. كانت فرحته بولده، وبأهل حيِّهِ واضحةً في تلك النظرات الوديعة الراضية التي كانت تواجه كلَّ من يسعى إليه.

وذات ليلة، بعد صلاة العشاء، سمع الناس دويًّاً مفزعاً، كأنَّ جبلاً من البارود، قد انفجر. وبعد لحظة، ارتفعت ألسنة اللهب، رأى الناس رجلين يعدوان بأقصى ما يستطيعان من جهدٍ باتجاه مواقع الفرنسيين، فأطلقوا عليهما الرصاص، فسقط أحدهما، ونجا الآخر. أسرعوا ينظرون في وجه الخائن الذي فجَّر البارود، فعرفوا فيه أحَد أتباع مراد، وسمع دوي انفجارات يأتي من أكثر من مكان، وأدرك الناسُ أن الفرنسيين، وقد أعجزهم كفاح الأبطال، قد لجؤوا إلى الغدر والخيانة، وتوجيه الضربات إلى النساء والأطفال بتدبير هذه الانفجارات التي ألهبت الحرائق في كل مكان. بدأت النار تزحف نحو الدور، والجنود الفرنسيون يزحفون وراءها، ويصوِّبون رصاص بنادقهم، على الرجال والنساء الذين شغلهم أمر أبنائهم والنجاة بهم من الحريق.

أقبل إبراهيم على والده مكفهرَّ الوجه، من أثر الدخان واللهب الذي واجهه، وعلم الحاج مصطفى أنَّ النار تأكل الحيَّ الذي أمضى أسعد أوقاته فيه، وبني في ظلِّه حياته، وازدهرت بين ربوعه أيَّامُه. نظر في وجه ولده وقال: خُذْ بيدي يا إبراهيم.

تناول إبراهيم يد أبيه، ونهض الرجل، وقال:

– دعني أحملك يا أبتي.

قال الحاج مصطفى:

– أشعر بالقدرة على المشي.

ومضى يخطو خطوات غير منتظمة نحو الباب، وهبط الدرج معتمداً على ذراع ولده حتى بلغ الفناء، واتجه إلى الخارج، وعندما وقف في الشارع رأى النار تزحف على نحو داره، فقال لإبراهيم: خُذ معك أمَّك وأختك، وامضِ بهم إلى السفن. لا تنسَ سليمان وأخاه. امضوا جميعاً إلى النهر.

قال إبراهيم:

- وأنت يا أبي، ماذا ستفعل؟

قال مصطفى:

- سألحق بكم، لكن عجِّل الآن بما دعوتك إليه.

مضى إبراهيم ومعه أمُّه وسليمان وصلاح وفاطمة إلى السفن، وكان الناس قد سبقوهم إليها سعياً إلى النجاة من النيران بعبور النهر. وقف رهطٌ كبيرٌ من أهل الحي، على شاطئ النيل، والنار تلتهم الحيَّ العظيم، وأقبل الحاج مصطفى يتَّكئُ على عصاه، فرأى الناسَ وبينهم أهل بيته، على بعد، يتزاحمون على السفن التي ضاقت بهم، وينتظرون عودة السفن الأخرى التي عبرت النهر بغيرهم.

كان الفرنسيون يزحفون - محتمين وراء- النيران نحو النهر، فقال: أيُّها الناس، يجب أن يتقدَّم بعضكُم ليصدَّ الفرنسيين حتى ينجو الآخرون. إنَّهم إذا أدركوكم، قتلوكم جميعاً. أيُّها الناس، يجب أن يبقى الرجال لدفع الشرِّ عن النساء والأطفال... أيُّها الناس، إنَّني سأسيرُ أمامكم، ولن أترك بولاق حتى ينجوَ آخر طفل من أهل الحي. لن أترك بولاق.

ثمَّ تناول الحاج مصطفى بندقيته وتقدَّم إلى الأمام، وقف الناس ينظرون إليه لحظةً، كان يمضي في خطوات بطيئة، يتكئُ على عصاه التي حملها في إحدى يديه، ويحمل بندقيته بيده الأخرى. مضى قُدُماً لا ينظر إلى الوراء. صاح

أحدً الواقفين:

– لن ندع الرجل المريض وحده، يصدُّ الفرنسيين عن نسائنا وأطفالنا.

وأسرع في أثره، وتبعه آخرون. رأى الحاج مصطفى الناس من حوله، ودار ببصره في وجوههم فلم يَرَ ولده، فقال بصوت خفيض: أين ولدي إبراهيم؟

قال رجل:

– كلُّنا أولادك يا حاج مصطفى...

قال الحاج:

– لعلَّهُ لم يسمع ندائي.

ثمَّ أمرهم أن ينبطحوا على الأرض كي لا يراهُم الفرنسيون في ضوء اللهب، ولبَّى الناس الأمر، وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين الزاحفين إلى النهر، حتى أوقفوا زحفهم، وهيؤوا السبيل لجميع أهل الحي لعبور النهر، وحتى عادت السفن لتنقل الذين وقفوا في وجه الفرنسيين وصدُّوهم عن الناس. قال أحد الرجال للحاج مصطفى: لقد جاءت السفن من أجلنا.

قال الحاج: خُذ رفاقك وامضِ بهم، وليبقَ معي رجلٌ أو رجلان، لنواصل الدفاع. لو تركنا المكان جميعاً لأدركنا الفرنسيون ونحن في السفن وقتلونا جميعاً. يجب أن يكون في كل جماعة من يقبل التضحية بنفسه من أجل سلامة الآخرين.

بقي الحاج مصطفى على الشاطئ ومعه رجلان آخران، فلم يتوقف إطلاق الرصاص على الفرنسيين إلا عندما انطلقت آخر رصاصة معهم. نظر الحاج مصطفى خلفه، فوجد السفن قد ابتعدت عن الشاطئ، فقال: حمداً لله، لقد أدَّينا الواجب، ونجا أهلُ الحيِّ جميعاً.

ثمَّ أطبق عليه الفرنسيون، وعندما حاولوا دفعه للنهوض، وجدوه مشلولاً،

فأقبل كليبر وقد أكله الحقدُ والغيظ لنجاة أهل بولاق، الذين حاربوه أكثر من شهرين، وقتلوا من جنوده المئات، وحطموا أحلاماً داعبته في الفتح والتوسع. نظر الجنرال كليبر، فلم يجد أمامه سوى رجلٍ مشلولٍ ورجلين آخرين معه، وفي حمى الغيظ تقدَّم إلى الرجلين اللذين أمسك بهما الجنود، وقال:

- هل تعرفان من حرَّض الناس، وقاد القتال؟

قال الحاج مصطفى: أنا فعلت ذلك.

ردَّ عليه الجنرال: من تكون؟

قال: أنا مصطفى البشتيلي.

هزَّ الجنرال كليبر رأسه، وتذكَّر اسم الرجل الذي وجدوا في بيته البارود مخبأً في القدور، فقال بغيظ: سوف تقتل.

قال الحاج مصطفى: اقتلوني هنا لأموت على أرض بولاق.

تقدَّم كليبر إلى الرجلين الآخرين، وقال لهما: لو قتلتما هذا الرجل ضرباً بالعصي، فسوف أعفو عنكما، وأهبكما الحياة... ماذا تقولان؟

قالا بصوتٍ واحد: إنَّنا لا نريد الحياة.

سمع أهل بولاق الذين وقفوا على الشاطئ الآخر، أصوات العصي يهوي بها الفرنسيون والمماليك على رؤوس وأجساد الأبطال الثلاثة الذين ضحوا بأنفسهم ليكتبوا لهم النجاة.

سمع سليمان وهو يقف على الشاطئ الذي خيَّم عليه الحزن، صوتاً مسعوراً يقول: اقتلوه... اقتلوه... اقتلوه.

كان الصوت، صوت الجنرال كليبر، ثمَّ جاءت إلى سمعة آهة مدوية، هزَّتْ أعماقه عرف فيها صوت الحاج مصطفى البشتيلي، تلاها صمتٌ رهيب.

كان أخوه صلاح، وإبراهيم وفاطمة وأمهما، يقفون بجانبه يبكون بحرقة، والناس من حولهم في ذهولٍ تنحدرُ الدموع من مآقيهم في صمتٍ موجع. بينما كان سليمان ينظر إلى البعيد، وقد استعصى دمعه، وعزَّ عليه البكاء، كأنَّ الدموع قد غارت في عينيه إلى الأبد، فلم يعد إليها من سبيل.

* * *

-٤٠-

سُليمان يتنكَّر بزي شحَّاذ

ربضت القاهرة في أحضانِ المُقَطَّمْ كأسدٍ جريح، تتطلَّعُ في كبرياء وثقة من خلالِ مآذِنها وقبابها – التي لم ينل منها الحريقُ – إلى عدوِّها الذي ظلَّ يعيشُ في رُعْبٍ دائمٍ طِوَالَ هذه الشهور.

كان سُليمان مضى في طريقِهِ إلى الأزهر، وحين بَلَغَهُ وجَدَهُ موحشاً مقفراً، قد هجره طلاَّبُهُ، لم يكن يتردَّد عليه إلا جماعاتٌ قليلةٌ منهم، وكان الأساتذةُ يتحدَّثون بأصواتٍ خافتةٍ إلى قلَّة من الطلاَّب الذين جلسوا إليهم هنا وهناك...

قضى سُليمانُ النهارَ كلَّهُ في الأزهر، ينتقلُ من حلقة إلى حلقة، وكان الطلاَّبُ يتناقشون مع أساتذتهم ويجادلونهم، وهو جالسٌ يسمع ويتأمَّل الوجوهَ بنظراتٍ ثابتةٍ طويلة.

بعد صلاة العصر من يوم١٠ حزيران، أخبر سُليمان أصدقائه السوريين المقيمين في القاهرة بعزمه على قتل الجنرال، فلم يصدِّقوه، لما عرفوه عنه من طبع مسالم، لا يؤذي نملة إن داس فوقها. جلس سُليمانُ في رواق الشوام مع بعض الطلاَّب. وقبيل الغروب خرج ومضى على الطريق ثابتاً لا يلتفتُ إلى اليمين أو إلى الشمال، نظره دائماً إلى الأعلى، كأنَّهُ يهتدي في سيره بوحيٍ من شعوره لا بنظرات من بصرِهِ، حتى أشرفَ على الأزبكية، ووقفَ يتأمَّلُ المكانَ من خلفِ شجرة.

في يوم ١٤ حزيران ١٨٠٠ تَنَكَّرَ بزي شحاذ وتسلَّل إلى حي الأزبكية يذرع الشوارع هناك، ويحاول الاقتراب أكبر قدر ممكن من مقر إقامة الجنرال في قصر محمد بك الألفي عند بركة الأزبكية. راقب بأناة الجنود الفرنسيين وهم يروحون ويغدون ويدهم على زناد أسلحتهم كأنّهم في معركة...

كانت حركة الطيرِ فوق الأغصان تفزعهم، وتجعلهم يرفعون بنادقهم إلى أعلى حتى لا يباغتهم عدوٌّ، ثمَّ يتبيَّنوا أن لا عدوَّ هناك، فيخفضون بنادقهم وعلى وجوههم خجلٌ، وفي نظراتهم خزي.

وفي غفلةٍ من الجنود، قفز سُليمانُ إلى داخل الحديقة، وتوارى في بئر ساقيةٍ كبيرةٍ (ناعورة)، وأخذ يُطلُّ برأسِه بين لحظةٍ وأخرى مستكشفاً المكان.

كان حوله أكثر من ألف جندي يحرسون مقرَّ القائد العام للجيش الفرنسي.

في مكمنه، تواردت إليه الخواطر والذِّكريات... لقد أقبل إلى هذه البلاد ذات يومٍ يطلبُ العلمَ ... عاش فيها أسعدً لحظاتِ العمر... خفق قلبُهُ بالحب، وتعلَّقَ بالأمل... رأى كيف تلتقي في قاهرة المعز لدين الله قلوبُ العرب والمسلمين من سائرِ بلاد العالم، فلا تمضي سوى لحظاتٍ قليلة حتى تُلغى المسافات، ويبطل فارق الجنس واللون، فإذا الجميع إخوةٌ متحابون، تشدُّهم بعضهم إلى بعض، روابطُ لا انفصام لها... لقد رأى هذا البلد الحبيب إلى قلبه، وقلوب كلِّ من يعرفه، يتعرَّض للغزو والأهوال، وشهده يقاوم قوى الحديد والنار، وهو الذي عاش أهله عزَّلاً من السلاح، يعملون للحياة في ظلِّ السلام الذي أحبُّوه من كلِّ قلوبهم، ورأى المعركة تمتدُّ وأطماع الجيش المغتصب، تريد أن تبتلع سائر بلاد العرب، وتمثل ذلك عندما غزا الجيش الفرنسي الشام وانكسر فيها بفعل مقاومة أهلها العنيفة، وبفعل الطاعون الذي جاء عقاباً للجاني لكثرة قتله واغتياله الأسرى... وشهد كيف أدرك العرب جميعا، وخاصة الشاميون، أنَّ المعركة معركتهم، وأن المصير مصيرهم، فدافعوا وكافحوا وتعرَّضوا للأهوال

والظلم، وذاقوا مع إخوة لهم في مصر مرارة الفجيعة، وحلاوة النصر في أحيان... رأى سليمان نفسه ذات يوم عندما وقف مع أهل بولاق عاجزاً عن حمل بندقية، وعن إصابة هدف يقتل من خلاله جنديّاً سفّاكاً.

أدرك كيف تحوَّلَ قلبُهُ المسالم، فاتجهت عواطفه الوجهة الجديدة التي جعلته يضع أقدامه في هذا الموضع، الذي يتربَّص له الموت فيه في أيِّ لحظةٍ، ومع كلِّ خطوة. مضى ٣٤ يوماً منذ عاد إلى القاهرة، وحتى قرر أن يكون في هذا المكان.

كانت يده ترتجف، وهي تمسك بالخنجر الذي اشتراه من غزَّة، وكان يشكُّ في قدرته على تنفيذِ ما استقرَّ عليه عزمُهُ. لم يستطع أن يقتل جنديّاً –وهو بعيد عنه– برصاص بندقية، فكيف يواجه اليوم القائد العام للجيش بخنجرٍ في يده!... وكيف يُصيبُ منه مقتلاً.

بعدَ لحظات رأى الجنرال كليبر يسعى نحو مكمنه، وليس بجانبه أحد، ورآه يقف أمام الساقية (الناعورة) وظهره إليه، وقد أطرق إلى الأرض. مضتْ لحظاتٌ رهيبة، شعر سليمان خلالها أنَّ جسمه كله يهتز، وأن الخنجر يكاد يسقط من يده، فيفضح أمره، ثمَّ تحرَّك كليبر ببطء مبتعداً عن المكان، ودخل القصر. شعر سليمان أنَّ جسمه قد غرقَ في فيضٍ من العرق. كانت المشكلة التي واجهت سليمان، مشكلة إنسانية، لا يهتزُّ لها إلاّ قلبٌ سليم فُطِرَ على الخير، وأحبَّ الحياةَ والإنسان بكلِّ جوارحه، ونبضات قلبه، وعندما فارق مكمنه، بحث عن الخنجر، فلم يجده، فأدرك أنَّهُ تركه في لحظةٍ لا شعورية في المكان الذي شهد تلك اللحظات الرهيبة.

فكَّر بالعودة ليحمله، وفيما كان يخطو إلى المكان، رأى أحد الجنود، ونادى عليه أن يقف، أقبل الجنديُّ وتأمَّل وجهه مليَّاً، فلم يجد في هذا الوجه الإنساني النبيل، الذي تلمع عيناه بهذه الخضرة الهادئة، شيئاً ينمُّ عن شرٍّ. فتش

الجنديُّ ملابسه، فلم يجد شيئاً، فتركه وأمره بألا يعود إلى هذا المكان مرَّة أخرى.

أمضى سليمان الليلة أرِقاً مسهداً. كان يحدِّثُ نفسه فيقول: إنَّه قاتلٌ... سفَّاكٌ وحشٌ... إنَّه ليس إنساناً... ألم يحرق القاهرة! ... ويهدم المساجد!... ويأمر بقتل الرجل المشلول المريض!... إنَّه ليس إنساناً، ولا حقَّ له في الحياة بين الناس، ثمَّ غلبه الانفعال كادت الدموع تطفر من عينيه، وعند الفجر كان في مكمنه، ووجد الخنجر قد أُسندَ إلى حجر، فحمله بيده، وجلس ينتظر...

في الوقت الذي كان فيه قائد الحملة الفرنسية يتناول طعامه مع كبير المهندسين قسطنطين بروتاني، كان سليمان يتلو آيات من قصار السور، يقوّي بها نفسه على لحظة المواجهة...

بعد دقائق، أقبل الجنرال كليبر............ يرافقه قسطنطين برتاني، كبير المهندسين.

عندما دخل كليبر الحديقة اندفع سليمان نحوه، متظاهراً برغبته في تقبيل يده على عادة المصريين في التعامل مع كبار القوم عندما يمرون بالناس. مدَّ الجنرال يده بلا مبالاة ليقبلها الشاب، فأمسكها سليمان بكل قوة واستل خنجره وطعنه الأولى فالثانية فالثالثة وهو يحاول أن يتملَّص منه، وعلى وجهه أمارات الدهشة والمفاجأة الشديدة...

تقدَّم قسطنطين بسرعة وهو يستلم غصناً يابساً من الأرض، وضرب سليمان على رأسه عدة ضربات، فأصابه بجروح بليغة... عندها غرز سليمان الطعنة الرابعة في قلب كليبر، فأطبق قسطنطين بكلتا يديه على سليمان ليبعده عن القائد، ويمنعه من متابعة تسديد الطعنات للقائد العام الذي بدأ يترنَّح بين يدي الشحَّاذ، فانقلب بقوةِ عشرة رجال، على الرغم من جراحه البليغة، فما كان منه إلاَّ إن انحاز إليه بكليته، وسدَّدَ إلى قسطنطين ست طعنات متتالية، وسارع

إلى الفرار...

وصل الجنود على صراخ القائد وكبير المهندسين، وقاموا بنقلهما إلى داخل القصر، فلفظ كليبر أنفاسه الأخيرة، في حين بقي برتاني على قيد الحياة.

اندفع جنود الحراسة في الحديقة يفتشون عن الشحَّاذ، ثمَّ اندفعوا إلى الشوارع يقتلون بحرابهم كل من يواجهون... تناثرت الجثث في الشوارع، وما لبث سكان القاهرة أن طفروا يقاومون، فامتلأت الشوارع بالقتلى من الجنود والمدنيين.

وخشي الأهالي من مذبحة شاملة انتقاما من الاغتيال، في حين تصوَّر الجنود أن الاغتيال هو مقدمة لانتفاضة جديدة.

* * *

-٤١-

مينو والحلم المتجدِّد

كان الجنرال جاك فرانسوا مينو في الخمسين من عمره، ممتلئ الجسم، قصير القامة، حاجباه المقوسان يكسبان وجهه مسحة البلاهة، غير أنه كان عكس ذلك، فقد كان ذكياً بما يكفي، لأن يستملي ليس الضباط الفرنسيين فحسب، بل والمصريين أيضاً، ولإنجاح خططه تلك، فقد أعلن إسلامه، ثمَّ تزوج من سيدة مصرية مطلقة من بلدة (رشيد) اسمها زبيدة هي بنت أحد أعيان منطقة رشيد، وكنَّى نفسه «عبدالله» طالباً من الجميع مناداته باسمه الجديد «عبدالله جاك مينو».

والملاحظ أنه أضاف كلمة «عبدالله» مبقياً على اسمه كاملاً وهي طريقة ذكية، لأن اسم عبدالله يمكن أن يطلق على أي إنسان تواضعاً وإقراراً بعبودية لله.

لم يخفِ مينو كرهه للجنرال كليبر، ربما لأنه كان يعّد نفسه أحقّ بخلافة نابليون منه، ولذلك كان يتبرَّم من تصرفاته أمام الضبّاط الفرنسيّين وأمام العرب على حدٍّ سواء، خاصّة تلك المواقف التي مارس فيها كليبر «عنفاً غير مبرَّر» حسبما يقول، وعندما أحرق القاهرة، كان مينو من أشدَّ المنتقدين لكليبر، فاكتسب شعبية لدى الجميع، وخاصة المعارضين للعنف، أو الذين كانوا يطمحون لأن يؤسّسوا دولة قوية في الشرق، على اختلاف أهوائهم ونزعاتهم

الاستعمارية أو العلمية، أو الإنسانية، واعتبر الضباط أنّ مينو برصيده لدى المصريين يمكن أن ينقذ سمعة الجيش الفرنسي، كما يمكنه أن يهدئ النفوس الثائرة، والروح العدائية ضد الجيش الغازي.

ويذهب البعض إلى أنه كان على اتصال بالخلايا السرية للثورة ضد الجيش، ويتذرعون بأنه بعد أن رزق بطفل أسماه سليمان، تيمناً بسليمان الحلبي، وتخليداً لسيرته، وأيضاً تقرباً من العرب، ومداهنة لزوجته وأهلها، كونه فكَّر جدياً بأن يستقر في البلاد ويؤسس حكما ملكياً فيها، مستفيداً من تجربة مراد بك المملوك الذي حكم مصر على الرغم من تبعيتها الاسمية للسلطنة العثمانية.

عمل الجنرال مينو بكل ما لديه من دهاء على التقرُّب من المصريين وأعيانهم، وصاهرهم ليتقبلوا فكرة بقائه على رأس الدولة التي حلم بها نابليون، وقطف ثمارها الجنرال مينو.

ولولا العداء البريطاني المستحكم ضد الوجود الفرنسي في مصر، فإنَّ كل ما خططه مينو كان قابلاً للتحقق، وبالتالي استطاع الرجل بحنكته السياسية، وخبرته العسكرية أن يؤسس لملامح دولة كبيرة، لولا التدخل الإنكليزي المباشر، وبكل قواها لطرد الفرنسيين من الأراضي العربية المصرية.

وللحقيقة، فقد كان الجنرال مينو إدارياً ناجحاً، وصاحب مبادرة في الوقت الذي يتقنَّع فيه بالبلاهة، وبضعف الشخصية، لكنه في اللحظة المناسبة يتخذ قرارات خطيرة وحاسمة.

كادت مخططاته تنجح بكاملها بعد أن مهَّد الأرض لنجاحها لولا تربُّص الإنكليز بالوجود الفرنسي برمَّته في مصر، الأمر الذي كان يقلق الإنكليز أشدَّ القلق نتيجة سيطرة الفرنسيين على المسافة الأقصر من البر بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط وهو بِدَوره الطريق الأقصر إلى الهند- درة

التاج البريطاني.

ومع أن مينو استسلم للأسطول الإنكليزي في مفاوضات إذعان مُذلَّة ومخزية، إلا أنه بدهائه استطاع أن يقنع القادة الفرنسيين أنه ليس بالإمكان أفضل ممَّا كان، وأن يستمر في أعلى المناصب وتولى بعد خروجه من مصر مناصب عدَّة في إيطاليا، كحاكم بيدمونت، ومحافظ توسكانة، ومحافظ البندقية...

* * *

-٤٢-

مينو والواقع الجديد

اختبأ سليمان في حديقة مجاورة لمدة يومين، كانت المذبحة خلالها مستمرَّة في شوارع القاهرة ضد الناس البسطاء والمارّين، لم يسلم شاب أو شيخ أو امرأة أو طفل، حتى القطط والكلاب والجواميس لم تسلم، كان الجنود يستهدفون أيَّ شيء حي.

مصادفة وجده الجنود في حديقة مجاورة لقصر محمد بك الألفي، وأطبق عليه الجنود وهو مازال يمسك بالخنجر ليدافع به عن نفسه، وتم أخذه ليشاهده كبير المهندسين الراقد في المستشفى والذي نجا من الموت بأعجوبة فأكد أن هذا هو الشخص الذي قام بالطعن.

حققوا معه ومع من عرف أمره من المشايخ الذين حاولوا ثنيه عن الأمر دون إبلاغ السلطة الفرنسية، وأصدر مينو في اليوم نفسه ١٥-١٦ يونيو حزيران ١٨٠٠م قراراً بتأليف محكمة عسكرية من تسعةِ أعضاء برئاسة الجنرال رينيه.

انعقدت المحكمة بكامل أعضائها، وهم يرتدون الأوشحة، ويكتسون الوقار، ويجلسون على منصة مهيبة، وحولها علمان كبيران لفرنسا، ورفع فوق رئيسها رينيه شعار الثورة الفرنسية مثلث الكلمات: **(حرية- إخاء- مساواة).**

طلب رئيس المحكمة من الشرطة فك قيود المتهمين، وأمرهم بالوقوف احتراماً للمحكمة، ثم بدأ عرض المسرحية، بيد أن إصرار المتهمين على عدم الإجابة على

أي سؤال يوجه إليهم، أفشل العرض، وما أثار اللغط أكثر، هو أنهم قالوا: نحن لا نعترف بهذه المحكمة، ولا بأسئلتها ولا بقراراتها، لأنها باطلة.

ساد هرج ومرج كبيران، جعلا القضاة يتشاورون في الأمر قبل أن يضرب القاضي بمطرقته بعنف، مهدئاً من الفوضى التي أحدثها المتهمون بعدم اعترافهم بالمحكمة، أو بشرعيتها.

صور المدعي العمومي في مرافعته، ظروف الجريمة تفصيلياً، ليكسب المحكمة صفة الموضوعية والمصداقية والدقة، ووصف المتهمين بأنهم قتلة مأجورون، ارتكبوا جريمتهم لحساب العثمانيين، وأنهم ليسوا أصحاب مبدأ أو عقيدة أو قضية. لكن المثير في الأمر، أنه اتهمهم بالعمل لصالح العثمانيين الذين لم يكن لهم أيَّ تواجد على الأرض المصريَّة، في حين كانت القوات الفرنسية في وئام تام مع المماليك في الصعيد. ولم يفطن أحد الضباط في المحكمة إلى أنَّه ربما تكون هذه العملية إحدى بديات نشاطات المقاومة العربية التي بدأت تتشكل، وانطلقت بين جدران الأزهر ضد الفرنسيين والعثمانيين والمماليك.

أشار القاضي بحركة من يده، في محاولة لإكساب المحكمة – المسرحية طابعاً وقوراً، فانبرى محام فرنسي خُصِّص للدفاع عن المتهمين، بعد أن رفضوا التعامل مع المحكمة، وقدم مطالعة، كانت تنقصها أبسط قواعد الدفاع عن متهمين لا يعلمون عن طبيعة المحاكمة التي يتعرضون لها شيئاً، خاصة بعد أن ذكروا في التحقيقات أنهم لم يأخذوا كلام سليمان حول عزمه قتل الجنرال كليبر على محمل الجد، وبالتالي فوتوا على المحكمة فرصة الحكم وفق قاعدة التخطيط المسبق، وأسبقية الإصرار والتصميم، فذهبت المحاكمة إلى القانون الذي يحكم في مسألة (إخفاء معلومات) ولهذا كان الحكم صاعقاً، إذ صدر

الحكم بعد هذه المحاكمة العصرية، وكان أعجب حكم في التاريخ، إذ صدر بعد أربعة أيام فقط، وشمل كل التحقيقات والمحاكمات.

بدأ الحكم بديباجة حضارية، من دون أن ينسى المقدمات التي تشير إلى قرار تشكيل المحكمة، وسماع الادعاء العام، ومناقشة الشهود، والتحقيق مع المتهمين، (الذي لم يحصل في الواقع، ما يدل على أن الحكم كان كتب مسبقاً) ثم تطرق إلى مطالعة محامي الدفاع، إلى أن وصل إلى الأحكام القاضية بـ: تقطع رؤوس المشايخ الثلاثة، محمد الغزّي، وعبدالله الغزي، وأحمد الوالي، وتوضع على نبابيت طويلة، وتحرق جثثهم بالنار، ويكون هذا أمام سليمان الحلبي، وكل العساكر، وأهل البلد الموجودين في مشهد تنفيذ الحكم.

تشوى يد سليمان الحلبي التي طعن بها الجنرال جان باتيست كليبر بالنار أولاً حتى إذا نضجت تماماً، واحترقت حتى العظم يوضع على الخازوق ويرفع إلى أعلى حتى يراه الناس جميعاً.

تترك جثَّة سليمان الحلبي على هذه الحالة أربعة أيام حتى تأكل رمته الطيور والهوام.

يطبع هذا الحكم باللغة الفرنسية والتركية والعربية، ويعمَّم على البلاد.

* * *

حرص مينو منذ تسلَّمه منصب ساري عسكر الجيش الفرنسي بأن يهتم اهتماماً شديداً أدهش الضباط الفرنسيين بالإعداد لمراسم تشييع كليبر، وأبدى الكثير من الحزن والجزع بفقد القائد الملهم الذي كان يوجه إليه النقد اللاذع قبل يوم واحد من مقتله، لكنه مع هذا أمر بأن يتم التشييع بأرقى شكل ممكن بمشاركة سلاح المشاة والمدفعية والفرسان والموسيقا ...

في اليوم التالي، تأهب الفرنسيون لدفن قائدهم القتيل، فشيّعوا جثمانه بموكب عسكري مهيب حيث لف النعش بالعلم الفرنسي ووضع فوقه الخنجر الذي قُتل به. وقبل أن تبدأ الجنازة بالتحرُّك، أطلقت مدافع وبنادق التشريفات نيرانها في الهواء، ثم ابتدأ الموكب بالمسير، فلما وصلوا إلى تل العقارب بالقرب من القلعة التي بنوها هناك أطلقوا عدة مدافع أخرى، وكانوا أحضروا سليمان الحلبي وزملاءه.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من ذاك اليوم أي في ١٨ حزيران ١٨٠٠، بدأ تنفيذ حكم الإعدام بالسوريين الثلاثة، وتم حرق أجسادهم حتى التفحم، وتمَّ ذلك كلُّه أمام سليمان، ثمَّ أحرقت اليد اليمنى لسليمان، وهو يكابر ويصبر على الألم في حين كانت أصوات الطبول والموسيقا النحاسية تطغى على صوت آلامه.

بعد ذلك تقدموا منه... ردَّد سليمان الشهادتين وهم يمزقون ثيابه،ثم غرزوا وتد الخازوق في مؤخرته، ونصب الخازوق فوق (تل حصن المجمع – تل العقارب) بشكل شاقولي، في حفرة أُعدَّت لهذا الغرض... ظل أربع ساعات على تلك الحال حتى جاء جندي فرنسي مشفقا لحاله فأعطاه بعد خروج الجميع ماء ليشرب منه معجلاً بموته.

استأنف الموكب سيره حتى وصل إلى باب قصر العيني، وهنالك واروا الصندوق الرصاصي الذي وضعوا فيه كليبر في كثيب من التراب، وأحاطوا مكانه بسياج من الخشب، غطوه بالقماش الأبيض، وبالعلم الفرنسي، ووضعوا فوق العلم السكين التي استخدمها سليمان الحلبي، وزرعوا حوله أعواد السرو، وتمَّ تخصيص حُرَّاس مسلحين على القبر

يتناوبون على حراسته ليل نهار.

عقب دفن جثمان كليبر، قرب القصر العيني بالقاهرة، تركوا جثمان سليمان المغروس في أحشائه وتد الخازوق النافذ، أياماً عدَّة تنهشه الطيور الجوارح.

* * *

-٤٣-

الفصل ما بعد الأخير

كان الخبر الذي قرأه في الصحيفة، هو السبب المباشر لإعادة قصَّة سليمان الحلبي إلى ساحة الذاكرة العربية يُتحدَّث الخبر عن قيام حركة شعبية عربية تقوم بتحركات للمطالبة باستعادة رفات وجمجمة سليمان الحلبي من فرنسا، وقد وقَّع عددٌ من المثقفين العرب طلباً لاستعادة الجثَّة، كما أشار إلى أنَّ الكاتب والمترجم (محمَّد غريب جودة) من الإسكندرية أرسل رسالة يؤكد فيها وقوفه والمثقفين القوميين في مصر إلى جانب إخوتهم السوريين في هذه الحملة، معتذراً بالنيابة عن الذين أساؤوا إلى البطل سليمان الحلبي حين نفوا صفة الشهادة والبطولة عنه، وقد ذكر الكاتب جودة في رسالته قائلاً:

«نحن في مصر– المثقفين القوميين – نتفاعل بشدة مع هذه القضية وننظر دائماً بعين الإجلال والإكبار لكل أبطال وشهداء الأمة ومنهم السوريان (سليمان الحلبي) و(جول جمال) اللذان استشهدا دفاعاً عن الأمة وبصفة خاصة دفاعاً عن مصر وشعبها، ومن ثم فلدينا الرغبة للمساهمة في أي موقف وطني موحد يمكن أن يسفر عن عودة رفات البطل الشهيد إلى تراب الوطن السوري العزيز ليدفن بكل مظاهر التكريم اللائقة ببطل عظيم مثله، وفي احتفال قومي شامل يؤدي أثره في تعميق مفاهيم الوطنية وحب الوطن والأمة في نفوس الأجيال الشابة»... مسفِّهاً آراء من ذهبوا إلى أن قضية سليمان الحلبي لغز من ألغاز التاريخ تكتنفه علامات الاستفهام، ومنهم من يعتبر سليمان الحلبي خائناً

وعميلاً للعثمانيين، مع أنهم سجنوا أباه، وشتَّتوا أسرته، وأفقروها، ومنهم من يشير إلى أن انتقامه كان بدافع الحب.

وأكدت الرسالة أن تلك الإشارات مغرضة وخبيثة وتهدف إلى محو الدافع القومي الوطني الذي كان سبيلاً لتقديم الحلبي روحه من أجل هذا الوطن، وأن هذا البطل قد ظلم على المستويين الرسمي والتاريخي، إذ لم ينصفه من كتب تاريخ تلك الحقبة من الزمن وخاصة الجبرتي، فمروا على ذكره في عبارة تاريخية موجزة تلصق به صفات لا تليق بمن حمل في فكره لواء الدفاع عن أرض بلاده.

وكتب عبد الهادي البكار في صحيفة أخرى يندِّد بمحاولة تجريد اسم الحلبي من شرف البطولة، ويشير إلى ما يقضي به الوفاء من انضمام الجهود المصرية إلى الجهود السورية لرد الاعتبار إلى الحلبي، فيقول: «وما يحزن القلب حقاً، أن تأتي محاولة تجريد سليمان الحلبي من شرف البطولة والاستشهاد في ذكرى استشهاده المئوية الثانية، من أرض مصر الغالية الحبيبة التي أحبها سليمان الحلبي حتى الموت، ووهبها حياته دون أي تردُّد تلفظه الجسارة وتتناقض معه. وإذا كانت أطراف سورية غير رسمية قد سعت خلال السنتين المنصرمتين لدى فرنسا معبرة عن رغبتها برد الاعتبار إلى اسم سليمان الحلبي وتطهيره من صفة المجرم اللصيقة بجمجمته في متحف أنفاليد، وبالموافقة على أن تسترد سورية رفاته من فرنسا لإعادة دفنها في مصر أو في مسقط رأسه بصفته بطلاً من شهداء الكفاح من أجل الحرية والاستقلال، فإن العدل وفضيلة الوفاء يقضيان بضم جهود مصر إلى الجهود السورية في هذا السبيل، خاصة أن مصر ملتزمة بفضيلة الوفاء التاريخي في كل العصور، ومن حق روح سليمان الحلبي عليها، أن يكون له نصيب من هذا الوفاء المصري التاريخي الشهير المضاد لكل ألوان الإجحاف والظلم والجحود».

لكن ما يسترعي الانتباه والنظر هو ما كتبه المؤرخون المستشرقون عن

الحملة الفرنسية على مصر وعن الشجاعة والإقدام اللذين قابل بهما سليمان الحلبي مصيره بعد أن ألقي القبض عليه، وفي ذلك نقرأ ما كتبه لوتسكي عن بطولته: «وقد قابل سليمان الموت ببسالة، إذ وضع يده بجرأة في النار الملتهبة، ولم ينبس ببنت شفة حينما كانت تحترق، كما كان باسلاً طيلة الساعات الأربع والنصف التي قضى من بعدها نحبه وهو مخوزق».

ويلفت الخبر إلى أن وجود حركة شعبية عربية حالياً تطالب باستعادة رفات وجمجمة سليمان الحلبي من فرنسا. وقدم العديد من المثقفين العرب طلباً لاستعادة الجثة.

وأضافت الصحيفة قائلةً: وينوي المثقفون السوريون والمصريون، توجيه رسالة إلى الرئيس الفرنسي تتضمن احتجاجاً على أنَّ وصف سليمان الحلبي بالإجرام فيه انتهاك لكل قيم الحق والخير والعدالة التي عرفها البشر، أو هو أشبه بوصف جان دارك وديجول وجورج واشنطن بالإجرام، لأنهم تحركوا للدفاع عن بلادهم ضد الغزاة. والمجرم الحقيقي هو القوات الفرنسية الغازية التي هدمت ونهبت وقتلت وأشعلت الحرائق في المناطق التي وقعت تحت سيطرتها من مصر من دون وازع.

وتتضمن الرسالة طلباً باسترداد جمجمة البطل سليمان الحلبي متضمِّنة بعض الأسئلة حول بعض الشخصيات الوطنية الفرنسية التي ضحت في سبيل بلاده، والنظر إلى قضية سليمان، تماماً كما ينظر إلى قضية (جان دارك)، وأن للتاريخ أحكامه، ومن هذه الأحكام أن جان دارك لم تحرك الجيوش الفرنسية خارج بلادها، ولم تأمرها باحتلال بلاد الآخرين، وديغول تزعم المقاومة فوق أرض بلاده التي وجب الدفاع شرعا عنها، مالاً وعرضاً وتراباً، ولذلك نظر التاريخ إليهما باعتبارهما بطلين لا مجرمين، واعتبرهما قدوة لمن تتعرض بلاده لغزو من جانب قوات احتلال غاصبة.

وستتضمن الرسالة في نهايتها سؤالاً: عندما دخل العدو الأراضي

الفرنسية، بماذا واجهتموه؟ بالورود؟ ... أم بالبارود؟ وبتضحيات الأبطال حتى الاستقلال؟!

* * *

طوى الصحيفة، بعد أن نظف عنها آثار الطعام، وقام يبحث عن مخطوطته التي أعطاه إياها والده في ستينات القرن الماضي، ثمَّ شَرَعَ بصياغة قصة (سليمان الحلبي) لعلَّها تكون جزءاً من الحملة، وتسهم في استعادة رفاته ليلقى التكريم الذي يستحقُّه في وطنه الذي ضحَّى بنفسه من أجله ... وتستقر الهامة في قبر سليمان، وتتوقف عن القول:

اسقوني ... اسقوني ... اسقوني ...

* * *

دمشق في ١٤ شباط / فبراير/ ٢٠١٥ م

داوُد أبو شقرة

فهرس

الصفحة

الصفحة



داوُد أبو شقرة

أديب، وإعلامي. عضو مجلس اتحاد الصحفيين. عضو اتحاد الكتاب العرب.

مُعِد ومقدِّم برامج في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون.

صدر له: مقامات، ديوان شعر.

عودة الفينيق، **رواية.**

جسر اللواء، **رواية.**

قيد الطبع: الحرب في برِّ الشام، رواية.

سيرك القرود، **مسرحية.**

الطبعة الأولى / ٢٠١٦م

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة